الجزء الثاني المجلد التسعون

مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلّة المجمع العلميّ العربيّ سابقًا »

مجلّة محكّمة فصليّة

رجب ١٤٣٨هـ

نيسان ٢٠١٧م

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلَّة المجمع العِلميِّ العَربيِّ سابقًا »

أُنشئَت سنة ١٣٣٩هـ الموافقة لسنة ١٩٢١م

المدير المسؤول: الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع

لجنة المجلة

الدكتور محمود السيِّد «رئيس التحرير»

الدكتور مكي الحسني الجزائري — الدكتور مازن المبارك

الدكتور ممدوح خسارة «المقرر» — الدكتور محمد محفِّل

الدكتورة لبانة مشوِّح — الدكتور وهب رومية

الدكتور عبد الناصر عسَّاف

أمينة المجلة: ريم الملَّاح

أغراض المجلة:

إن أغراض المجلة مستمدة من أغراض المجمع الواردة في قانونه ولائحته الداخلية وأبرزها:

المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائمة لحاجات الحياة المتطورة، ووضع المصطلحات العلمية والأدبية والحضارية، ودراستها وفق منهج محدد، والسعي لتوحيدها في الأقطار العربية كافة.

شروط النشر:

١- أن يتسم البحث بالجدَّة والأصالة والموضوعية.

٢- أن يُرفق البحث بالسيرة الذاتية والعنوان البريدي والإلكتروني.

٣- ألَّا يقلَّ البحث عن عشر صفحات وألَّا يزيد على ثلاثين صفحة من صفحات المجلة (٧٠٠٠ كلمة)، أما المقالات والتعريف بالكتب فيُقبَل منها مايقلُّ عن عشر صفحات.

٤- أن يرفق البحث بملخص بالعربية يُطبع في بدايته، يشير بوضوح إلى الجديد في البحث، وإلى أبرزِ نتائجه.

٥- أن يخلو البحثُ من أي إساءة إلى الكُتّاب والباحثين أو غيرهم، وأن يحترم المعتقدات الدينية والفكرية للشعوب.

٦- أن يُعدَّ الباحث - إذا رغب في ذلك - ملخصاً لبحثه بالإنكليزية أو الفرنسية.

٧- أن يلتزم الباحث المنهجَ العلميَّ في التوثيق، فتُعطى الحواشي أرقاماً متسلسلة من بداية البحث حتى نهايته، وتذكر حواشي كل صفحة في أسفلها كما يلي: «اسم المؤلف أو الكاتب- اسم الكتاب أو المجلة- رقم الصفحة»،

وفي المصادر والمراجع يكتب: «اسم الكتاب - اسم المؤلف - اسم دار النشر ومكانها - رقم الطبعة وتاريخها».

٨- أن تكون البحوث والمقالات المرسلة إلى المجلة منضدة بالحرف (Mylotus) أو (Traditional Arabic) قياس (١٦) وأن تشفع بقرص مدمج مسجلٍ عليه العنوان، أو مرسلة بالبريد الإلكتروني.

٩- تُوضع الكلمات العربية أو المُعرَّبة قبل مقابلها الأجنبي عند ورودها أول مرة، نحو:

تِقانة (Technology)، حاسوب (Computer)، نفسية (Psychologic).

١٠- أن يُعنى الكاتب بعلامات الترقيم: النقطة، الفاصلة، الفاصلة المنقوطة، ...إلخ.

١١- تنشر المجلة البحوث والمقالات التي ترد عليها بعد أن تخضع للتقويم السِّرّي.

١٢- ألا يكون البحث منشورًا أو مرسلاً للنشر في مجلة أخرى أو مستلًّا من رسالة ويتعهد الباحث خطيًّا بذلك.

١٣- تُرتَّب البحوث والمقالات وفق اعتبارات فنية.

١٤- البحوث والمقالات التي لا تُنشر لا تردُّ إلى أصحابها.

١٥- ترسل البحوث والمقالات إلى المجلة على العنوان الآتي:

دمشق ص. ب ٣٢٧. البريد الإلكتروني: E – mail: mla@net.sy

تُنشر المجلة في موقع المجمع على الشابكة (الإنترنت):

www.arbacademy.gov.sy

❋ ❋ ❋

فهرس الجزء الثاني

من المجلد التسعين

البحوث والدراسات

- واقع تدريس اللغة العربية في الجامعات العربية — د. محمود السيد — ٣١٧
- باع وأباع والمبيع والمُباع — د. مازن المبارك — ٣٤٣
- إكمال مادة لغوية (حَكَمَ) — د. ممدوح خسارة — ٣٦٣
- آليات الدماغ في اكتساب اللغة وتوليدها — د. لبانة مشوح — ٣٧٩
- انكسار بنية المتن في لغة القرآن الكريم — د. عيسى العاكوب — ٤٠٩
- مسائل صوتية من كتاب القانون في الطب لابن سينا — د. أحمد قدور — ٤٣٣
- الحوار في النقائض — د. سمر الديوب — ٤٦١

المقالات والآراء

- تذكرة بأهم دلالات الأداة (إذن) وأحكامها — د. مكي الحسني — ٤٩٥

التعريف والنقد

- نظرات في بعض قرارات لجنة اللغة العربية في الألفاظ والأساليب ج٢ — د. عبد الناصر عساف — ٥٠٣

أنباء مجمعية وثقافية

- حفل استقبال الدكتور رفعت هزيم: ٥٣١
  ١- كلمة رئيس المجمع د. مروان المحاسني ٥٣٢
  ٢- كلمة الدكتور محمد محفل ٥٣٧
  ٣- كلمة الدكتور رفعت هزيم يتحدث فيها عن سلفه د. ليلى الصباغ ٥٣٩
- من قرارات مجلس المجمع في الألفاظ الأساليب
  من (١٠٨-١٢٢) ٥٥٧

* * *

البحوث والدراسات

واقع تدريس اللغة العربية
في الجامعات العربية

أ.د. محمود أحمد السيّد(*)

نحاول في هذا البحث الموجز أن نتعرف واقع اللغة المستخدمة في التدريس الجامعي في الوطن العربي أولاً، ثم نشير إلى الشكوى من ضعف مخرجات الجامعات العربية في لغتهم الأم، ويُرجع بعضهم مردّ هذا الضعف إلى طرائق التدريس حيث يحملّونها مسؤولية هذا التردي، لذا كان لا بدّ من الوقوف على مسار هذه الطرائق ثانياً، إنْ في كليات الآداب والتربية من جهة، أو في الكليات الجامعية الأخرى في حال كون اللغة العربية متطلباً جامعيًّا من جهة أخرى. وفي ضوء ذلك كله نخلص إلى عدد من التوصيات الرامية إلى النهوض بهذا الواقع.

أولاً – واقع اللغة المستخدمة في التدريس الجامعي في الوطن العربي

لو وقفنا على واقع اللغة المستخدمة في التدريس الجامعي في الوطن العربي لوجدنا أن دول المغرب العربي تدرّس باللغة الفرنسية فهي اللغة المهيمنة في هذه الدول، وإن كانت الإنجليزية بدأت تزاحم الفرنسية في السنوات الأخيرة، أما الإنجليزية في دول الخليج العربي فهي المهيمنة

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

أيضاً، ففي المملكة العربية السعودية تدرّس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالإنجليزية وكذلك مؤسسات التعليم الخاص، تدرّس بها أيضاً في كلية الرياض للصيدلة وطب الأسنان. أما جامعة الملك سعود فتدرّس باللغتين العربية والإنجليزية، وتدرّس جامعتا الملك خالد والملك فيصل باللغة العربية ولكن يسمح بتدريس بعض المواد بالإنجليزية.

أما جامعتا أمِّ القرى والجامعة الإسلامية فتدرّسان بالعربية.

وفي دولة الإمارات العربية المتحدة تدرّس جامعة الإمارات بالإنجليزية في جميع الكليات ما عدا كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية واللغة العربية. وتدرّس جامعة عجمان الخاصة بالإنجليزية في الكليات العلمية، وبالعربية كليات الآداب والعلوم الإنسانية. أما الجامعات الخاصة (الجامعة الأمريكية في الشارقة) وجامعة العين، وجامعة الحصن فتدرّس بالإنجليزية وتدرّس جامعة باريس باللغة الفرنسية.

وفي جامعة قطر تدرّس المواد كلها بالإنجليزية في المدينة الجامعية، كما تدرّس الكليات العلمية باللغة الإنجليزية.

وفي دولة البحرين تدرّس جامعة الخليج العربي بالعربية ما عدا كلية الطب وكلية تكنولوجيا المعلومات فتدرّسان بالإنجليزية. أما الجامعات الخاصة (جامعة نيويورك وجامعة البحرين الطبية والجامعة الملكية للبنات وجامعة دلمون للعلوم والتكنولوجيا وجامعة بنتلي) فتدرّس كلها بالإنجليزية.

وفي الأردن تُستعمل العربية لغة تدريس في الكليات الإنسانية والاجتماعية في الجامعات الرسمية والخاصة، وتستعمل اللغة الإنجليزية الممزوجة بالعامية في التخصصات العلمية والطبية والهندسية وإدارة الأعمال والمحاسبة والاقتصاد والعلوم الإدارية. وتستخدم اللغة الإنجليزية

في جميع التخصصات في جامعة الأميرة سمية الخاصة. وفي الجامعة الألمانية الأردنية تدرّس الإنجليزية في السنوات الثلاث الأولى والألمانية في السنتين الرابعة والخامسة إضافة إلى تدريس الإنجليزية متطلباً جامعيًّا على أنها امتحان كفاءة في اللغة الإنجليزية وامتحان كفاءة في اللغة الألمانية قبل الالتحاق بالسنة الرابعة. ويجري التدريس باللغة الإنجليزية في جامعة نيويورك للتكنولوجيا.

وفي مصر يجري التدريس باللغة العربية في كليات الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعات الحكومية، في حين يكون التدريس في الكليات العلمية والطبية والهندسية والاقتصاد والعلوم الإدارية وإدارة الأعمال بالإنجليزية الممزوجة بالعامية. أما الجامعات الخاصة فتدرّس باللغة الإنجليزية.

وفي لبنان يجري التدريس في الجامعة اللبنانية باللغات الثلاث العربية والإنجليزية والفرنسية بحسب الكلية واختيار الطالب، في حين يجري التدريس في الجامعة الأمريكية والجامعة الأمريكية اللبنانية بالإنجليزية. أما جامعة البلمند والجامعة الفرنسية وجامعة نوتردام وجامعة سانت جوزيف فتدرّس كل منها بالفرنسية.

أما التدريس في سورية فهو بالعربية في جميع الكليات الجامعية وفي مختلف التخصصات، إن في الجامعات الحكومية، أو في الجامعات الخاصة، ما عدا مقررين اثنين يدرسان بالإنجليزية في الجامعات الخاصة.

وفي السودان شقّ التعريب طريقه إلى الكليات الجامعية وفي مختلف التخصصات منذ عام ١٩٩٠، إلا أن الإنجليزية هي المستعملة في جنوب السودان.

ويتضح من خلال هذا الواقع أن اللغة العربية ليست بأحسن أحوالها،

فهي مستبعدة في الأعم الأغلب في الجامعات الخاصة، إذ تحل محلها الإنجليزية في دول الخليج العربي، والفرنسية في دول المغرب العربي، كما تحل الإنجليزية محلها في الكليات العلمية في الجامعات الحكومية في دول الخليج العربي، وانحصر استعمال العربية في كليات الآداب والعلوم الإنسانية في الأعم الأغلب.

ثانياً - الشكوى من ضعف مستوى الخريجين

تتعدّى الأهداف المعاصرة للجامعة التدريس والبحث العلمي وخدمة المجتمع إلى تعزيز الانتماء، وتأكيد الهوية في عالم يرمي إلى هيمنة ثقافة الأقوياء على الضعفاء مع أنه يرفع شعار التنوع الثقافي والتعدد اللغوي.

وفي التدريس، لم يعد ليقتصر على أن تكون رسالة الجامعة تزويد الدارسين بالجوانب المعرفية البحتة، وإنما إعدادهم معرفيًّا وفنيًّا، وتزويدهم بمهارات التعلم الذاتي، والاعتماد على الذات، والتعلم المستمر، والإسهام في حل مشكلات مجتمعهم، والتنبؤ بالظواهر الاجتماعية، وإجراء البحوث المتصلة بالبيئة بمفهومها الشمولي بغية الارتقاء بالمستوى الثقافي والمعيشي للمجتمع بعد إيجاد الحلول المناسبة للمشكلات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

وطالما شكا المعنيون في أوساطنا الثقافية من ضعف مستوى أداء خريجي الجامعات في لغتهم، إذ إنهم لا يتقنون أساسياتها، ويرتكبون الأخطاء النحوية، وتعوزهم القدرة على التعبير الوظيفي في مواقف الحياة، فيعانون الارتباك في مواقفها من إلقاء كلمة في مناسبة أو تقديم طلب، أو إدارة اجتماع، أو كتابة محضر جلسة... إلخ، كما يعوزهم الاستشهاد ببيت شعري أو مَثَل أو حكمة لعدم تزويدهم بمهارة حفظ الشواهد على أن توظّف في المواقف الملائمة لها.

ولم تكن هذه الشكوى وليدة يومنا، وإنما أشار إلى ذلك في خمسينيات القرن الماضي الدكتور طه حسين وأمين الخولي وبنت الشاطئ، ولم تكن الشكوى منصبَّة على سوء التدريس في التعليم العام، وإنما تجاوزته إلى التعليم الجامعي، فها هو ذا أمين الخولي يقول: «امض قدماً في مراحل التعليم العام لمن تهيأ لهم السير فيها، فإذا تعليم اللغة القومية غير موفق، وإذا أدبها غير محبَّب، وإذا النشء يذهب هواه بدداً في آداب لغة أخرى إن قرأ، وإذا هو لا يرقى له وجدان إذا ما أعوزته الملهمات الفنية، ومن هذا يكون الركود الأدبي، وتكون أزمة الفن القولي في نواحيه الفنية والعلمية، فللمسرح أزمة، وللصحافة أزمة، وللإذاعة أزمة، ولذا وكيت أزمات لغوية كلها لا غير، ولهذا وما إليه أشدُّ الأثر في عجز الأمة عن أن تركز عواطف أفرادها، وتجمع قلوب أبنائها، وتوجه هواهم إلى الأمل الموحد والفعل المشترك»[(١)]؟

وتردّد بنت الشاطئ الشكوى ذاتها قائلة: «إن المتعلم قد يمضي في الطريق التعليمي إلى آخر الشوط، فيتخرج في الجامعة وهو لا يستطيع أن يكتب خطاباً بسيطاً بلغة قومه، بل قد يتخصص في دراسة اللغة العربية حتى ينال أعلى درجاتها، ويُعييه مع ذلك أن يملك هذه اللغة التي هي لسان قوميته ومادة تخصصه، وكل درس يتلقَّاه أبناؤنا في لغتهم العربية ينأى بهم عنها، ونرى اللغات الأخرى يتعلمها أبناؤها في مدارسهم العامة فيكسبون من كل درس معرفة جديدة بأسرار لغتهم، ونسمع أساتذة كباراً يحاضرون بالعربية، أو يلقون أحاديث في أندية ثقافية، وتقرأ لهم ما يكتبون من بحوث ومقالات

(١) أمين الخولي- محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية- معهد الدراسات العربية- القاهرة ١٩٥٨ ص٥.

فتدرك ما يعانون من إحساس باهظ بمقدرة اللغة التي ترهقهم بالشعور بأنهم لا يمتلكون أداة التعبير السليم الطلق عن أفكارهم وآرائهم»[٢].

وقام الدكتور سعيد التل بدراسة شاملة عن مستوى طلاب الجامعات الأردنية في اللغة العربية فوجد أن ثمة تدنِّياً في مستوى أداء هؤلاء الطلاب في اللغة العربية، وتمثلت مظاهر هذا التدني في الضعف في القدرة التعبيرية، والعجز أحياناً عن التعبير الإبداعي والصياغة الجيدة للعبارات، وشيوع الأخطاء اللغوية وعدم الدقة في استخدام المفاهيم والخلط بينها، والافتقار إلى مهارات القراءة الجهرية الجيدة، والقصور في مهارة الاستماع وفي آداب الاستماع والعجز عن القراءة الناقدة[٣].

ولقد أشارت لجنة النهوض باللغة العربية في رابطة الجامعات الإسلامية في اجتماعها بمدينة الإسماعيلية في يناير ٢٠٠٢ إلى تفشي الأخطاء اللغوية في كتابات الكثيرين من أعضاء الهيئة التدريسية بالجامعة وأحاديثهم سواء من المتخصصين في اللغة العربية، أو غيرهم، وتردٍّ في مستوى الكتابة والخط والمحادثة بلغة عربية سليمة خالية من الأخطاء النحوية والأسلوبية[٤].

ولم تكن هذه الصيحات تنطلق من قطر عربي دون آخر، وإنما كانت عامة على الصعيد العربي في مشرق الوطن العربي ومغربه. وتساءَل الباحثون عن الأسباب الكامنة وراء هذا الضعف، فإذا نفر منهم يرى أن

(٢) الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) - لغتنا والحياة - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٧١ ص١٩١.

(٣) سعيد التل - قواعد الدراسة في الجامعة - عمان - دار الفكر: الطبعة الأولى ١٩٩٧.

(٤) رابطة الجامعات الإسلامية - الجامعات الإسلامية وتعليم العربية: الواقع والتطوير - مدينة الإسماعيلية بمصر - يناير ٢٠٠٢م.

أخطر ما في الصورة هو المناهج وطرائق التدريس، «إذ إن النظام السائد في بعض الدروس هو الإملاء، والتفكير العلمي حبيس المختبرات، ولا ينصب إلا على الجماد والحيوان والنبات منها، وكثير من الموضوعات تبدو غير ذات أهمية للطلبة في حياتهم، وكثير من الكتب الدراسية التي توجد بين أيدي الطلبة شحيحة أو سطحية أو غير مناسبة، وروح البحث غير مشجعة فيهم، وليس من المبالغة إذا قلنا إن التدريس في بعض الدروس والأقسام والكليات يكاد يكون امتداداً للدراسة الثانوية دون تغيير يذكر، وتأصيلاً لما غرسته في الطلبة من اعتماد على الغير وحفظ المتون»(٥).

ولما كانت اللغة العربية تستند في وجودها وأدائها إلى جانبين أساسيين هما الجانب اللغوي العلمي والجانب الأدبي الجمالي، وكان إغناء هذين الجانبين بالمادة العلمية والأدبية التي تربط التراث بالحداثة والأصالة بالمعاصرة ثم تكاملهما معاً من شأنه أن يمنح اللغة بعداً قوميًّا فيه أصالة، وبعداً إنسانيًّا فيه حضارة(٦)، أدركنا مدى خطورة ضعف تزويد خريجينا الجامعيين بمهارات لغتهم وتدني مستوى أدائهم فيها.

وابتعاداً عن التعميم في إصدار الأحكام على الواقع، وتبياناً لما ذهب إليه بعض الباحثين من أن طريقة التدريس هي المسؤولة عن تدني مستوى أداء المتخرجين في الجامعات العربية، كان لا بد من وقفة مستأنية على واقع طرائق التدريس في هذه الجامعات على النحو المبيّن فيما يلي:

---

(٥) الدكتور عبد الجليل الزوبعي والدكتور محمد أحمد الغنام – التعليم العالي في العراق (اتجاهات نموه ومشكلاته) – جامعة بغداد ١٩٦٨ ص٤٥.

(٦) الدكتور محمد جواد النوري – اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين في المؤسسات التعليمية في فلسطين – الواقع والتحديات واستشراف المستقبل – الموسم الثقافي الثالث والعشرون لمجمع اللغة العربية في الأردن– عمان ٢٠٠٥ ص١٩٥.

ثالثاً – طريقة التدريس أحد مكونات المنهج

تعدّ طريقة التدريس مكوناً من مكونات المنهج بمفهومه المنظومي الشمولي المتكامل، إذ إن المنهج بمفهومه الحديث هو نظام System يشتمل على الأهداف والمقررات الدراسية والكتب والمراجع وطرائق التدريس والوسائل التعليمية التعلُّمية والمناشط والامتحانات وأساليب التقويم والمباني والمرافق والمعدات. وهذه المكونات لمنظومة المنهج تتبادل التأثير والتأثر فيما بينها، فهي ترتبط ارتباطاً عضويًّا فيما بينها بحيث يؤثر كل منها في غيره ويتأثر به.

وتعدّ طريقة التدريس عنصراً أساسيًّا في هذه المنظومة، ولها أثر كبير في تحقيق الأهداف المرسومة للمنهج، ذلك لأن المدرس لا يدرّس بمادته فقط، وإنما يعلّم بطريقته وأسلوبه وشخصيته وعلاقاته بطلابه، وما يضربه لهم من مثل أعلى وقدوة حسنة، وعلى المدرسين مسؤولية كبيرة في جذب طلابهم إلى المادة التي يدرسونها على أن يكونوا متقنين مادتهم، عارفين أسرارها، ومدركين سماتها وخصائصها، ذلك لأنهم القدوة والمثال أمام طلابهم، بهم يقتدون، ولغتهم يقلدون، فإذا كانت لغة المدرس سليمة وأسلوبه مستقيماً امتص طلابه السلامة والاستقامة في الأسلوب والتراكيب، وإذا ارتكب الخطأ وعلَّمه طلابه رسخ الخطأ في الأذهان، وسرى على الألسنة والأقلام، وانتقل من جيل إلى آخر.

وإذا كان لتمكن المدرِّس من مادته أثر كبير في نجاح العملية التعليمية التعلُّمية فإن لطريقة التدريس أثراً كبيراً في تحقيق الأهداف المرسومة للمنهج. ومن هنا كان لا بد لنجاح المدرس في عمله أن يكون متقناً لمادته أولاً، محضِّراً لها، وواثقاً من نفسه، ومستخدماً الطريقة التربوية الملائمة

والمُشوِّقة لعرض مادته، وأن يكون مرناً في استخدام الطريقة، ومكيفاً لها وفق الأجواء التي يتفاعل معها.

وغني عن البيان أن المدرس الذي يقولب نفسه في إطار طريقة واحدة يلتزم بها في دروسه كافة، وأسلوب معين ينتهجه في المواقف كافة، محكوم عليه بالإخفاق، ذلك لأن الطريقة لا تصنع المدرس، وإنما هو الذي يبتكرها ويكيّفها وفق المادة والوسيلة والأجواء والمستويات.

ومن هنا كانت التربية الحديثة تمنح المدرس حرية الحركة وتنطلق به نحو الإتقان في نجاح أدائه، إذ لا شيء يعمل على تحنيط المدرس وتجميده وشل قواه مثل اعتماده طريقة معينة على أنها هي المثلى والفضلى، إذ لا يمكن الحكم على فعالية أي طريقة إلا بالتجربة العلمية المنضبطة، إذ إن التعصب لأي أسلوب تعليمي والتحيز له من غير القيام بأي تجربة تثبت فعاليته أمر بعيد عن الأسلوب العلمي والموضوعية، ذلك لأن عصرنا لم يعد يحتمل الاعتماد على الاجتهادات الذاتية والانطباعات الشخصية.

والسؤال: ما طرائق التدريس المتبعة في جامعاتنا العربية؟

وهنا لا بد لنا من التفريق بين تدريس اللغة العربية في كليات الآداب والتربية، وتدريسها في الكليات الأخرى على أنها متطلب جامعي.

رابعاً – طرائق تدريس اللغة العربية في الجامعات العربية

١ – تدريس اللغة العربية في كليات الآداب والتربية:

أ– **محتوى المناهج**: إذا حاولنا رصد تدريس اللغة العربية في الجامعات العربية في كليات الآداب والتربية فإننا نلاحظ ما يلي:

١ – يجري إعداد المعلم في كليات الآداب والتربية على أساس توجيه العناية الأولى لآداب اللغة، وليس للغة نفسها. فالمنهاج في هذه

الكليات إن في أقسام اللغة العربية أو في أقسام اللغات الأجنبية يركّز على الشعر والنثر والآداب، ويغفل المحادثة والتعبير الشفاهي غالباً، مع أنه لا يمكن إنكار أهمية هذه الجوانب، ولكن في الوقت نفسه يجب أن نقر بأهمية المحادثة في العملية التعليمية التعلمية، إذ ينجم عن ذلك أن يتخرج مدرسون يحفظون قصاصات من تاريخ اللغة والأدب، ولكنهم لا يحسنون استخدام المهارات اللغوية في الحياة.

٢- من الملاحظ في تدريس اللغة وآدابها أن ثمة عزلة بين المواد اللغوية والأدبية في مناهج إعداد المدرسين، لا بل إن العزلة تتمثل أحياناً بين علوم اللغة نفسها، إذ إن اللغويين فصلوا النحو عن المعاني، ووضعوا بينهما الحدود والأسوار، وكان ثمة دعوة لأن يدرس علم المعاني ضمن النحو بمفهومه المنظومي الشمولي المتكامل أصواتاً وبِنيةً صرفية وضبطاً للأواخر وتركيباً وأداءً ومعاني... إلخ.

٣- الفصل بين مصادر البحث اللغوي ومصادر البحث الأدبي، فمصادر البحث اللغوي تتمثل في الكتابات العربية النظرية المعتدّ بها، والتي تصور واقعاً لغويًّا معيناً هو واقع اللغة في عهودها الزاهرة المحدودة وما يطلقون عليها عهود الاحتجاج والتي تعزّزها النصوص الأدبية القديمة وحدها. أما مصادر البحث الأدبي فهي نصوص الأدب الإنشائي منذ الجاهلية إلى العصر الحديث دون استثناء، في حين أن اللغويين لا يعدّون النصوص بعد عصر الاحتجاج مصادر للبحث اللغوي.

٤- الاهتمام بالقضايا التاريخية من غير التركيز على المبادئ العامة والاتجاهات الأساسية في المقررات المدروسة، ففي الأدب

المقارن يطول الحديث عن تاريخ الأدب المقارن ومؤتمراته في الوقت الذي يختصر فيه بيت القصيد من حيث الإتيان بالنصوص الأدبية من الأدب العربي والآداب العالمية وإجراء الدراسات المقارنة حولها لبيان أوجه الاتفاق والاختلاف ووشائج التأثير والتأثر والتبعية والإبداع. وفي مقرر النقد القديم يجري الحديث عن الشخصيات النقدية من دون الاهتمام الكافي بتطور الفكر النقدي تبعاً لتطور الذوق والحياة.

٥- العزلة بين مناهج الأدب والعلوم الإنسانية المختلفة في الأعم الأغلب كالتحليل النفسي وعلم اجتماع الأدب، وعلم اللغة الحديث. وثمة ظواهر في الأدب لا يمكن تفسيرها إلا في ضوء علم النفس كظاهرة التمركز حول الذات أو التضخم بالأنا (égocentrisme) لدى المتنبي.

٦- الاهتمام بفقه اللغة وهو منحى تاريخي فلسفي، وإهمال لعلم اللغة بفروعه المختلفة من مثل علم نفس اللغة، علم اللغة الاجتماعي، علم الأصوات، علم تركيب الكلام... إلخ.

٧- غياب المعايير العلمية الموضوعية في تدريس الأدب وإخضاع ذلك إلى مزاج المدرس واختصاصه، وهذا يؤدي إلى هشاشة الإعداد واضطرابه، فتدريس الأدب الجاهلي يقتصر على المعلَّقات عند بعضهم، وعلى شعر الصعاليك لدى بعضهم الآخر، أو لدى شاعرين فقط عند بعضهم الثالث، وينطبق هذا المسلك على تدريس الأدب العباسي وتدريس الأدب الحديث، فإذا تدريس الأدب العباسي يقتصر على البحتري وأبي تمام، وإذا تدريس الأدب الحديث يقتصر

على المسرح، فيتخرج الطالب في الكلية دون أن يتعرّف الصورة المتكاملة لعصور الأدب بمختلف فروعها واتجاهاتها وتياراتها.

٨- تدريس النحو على أنه غاية في حدِّ ذاته لا على أنه وسيلة لتقويم القلم واللسان: وقد انعكس ذلك سلباً على الدارسين بَرَماً به، واستثقالاً له، وعُزوفاً عن الإقبال عليه بكل نفس راضية، أضف إلى ذلك أن المماحكات في المسائل النحوية والتأويلات والشذوذات والاستثناءات وتعدد الآراء النحوية في المسألة الواحدة بين البصريين والكوفيين قد زاد في مشكلة تدريس النحو تعقيداً وصعوبة.

ومن يلق نظرة على توزيع المباحث النحوية في بعض كليات الآداب الجامعية يرَ أن أغلب المباحث قُرِّرت في السنة الأولى، وأن السنة الثانية تدرّس فيها الجمل التي لها محل من الإعراب والتي لا محل لها، على حين أن الأدوات وتاريخ النحو يدرس في السنة الثالثة، وقد خلت السنة الرابعة من مباحث النحو.

فإذا رأينا أن المهارات النحوية لا تكتسب إلا بكثرة المران والممارسة أدركنا أن ثمة نقصاً يحوط تدريس النحو في جامعاتنا، ومدى الصعوبة التي يُحِسّ بها بعض المتخرجين في الواقع العملي عندما تصادفهم مسائل نحوية أساسية لم يكونوا قد تمكنوا منها بسبب عدم التدريب الوافي، والانصراف إلى أمور جانبية على حساب أمور أساسية.

ب- طرائق التدريس: إذا كانت أنظار بعض الباحثين قد اتجهت إلى محتويات المنهج ومضامينها ومقرراتها على أنها هي السبب في ضعف مستويات المتخرجين في الجامعات العربية، فإن ثمة باحثين آخرين رأوا أن الأزمة ليست في اللغة ذاتها، وإنما في طرائق تدريس اللغة، إذ ترى بنت

الشاطئ «أننا نتعلم العربية قواعدَ صنعة وإجراءاتٍ تلقينية وقوالبَ صماء، نتجرَّعها تجرُّعاً عقيماً بدلاً من أن نتعلمها لسان أمة ولغة حياة، وقد تحكمت قواعد الصنعة وقوالبها الجامدة فأجهدت المعلم تلقيناً والمتعلم حفظاً دون أن تجدي عليه شيئاً ذا بال في ذوق اللغة ولمح أسرارها في فن القول»(٧).

وحمّل المجمعي الراحل الدكتور محمد كامل حسين طريقة التدريس مسؤولية تدني المستوى اللغوي، فها هو ذا يقول: «وكنت أحسب أن ذلك الضعف مرجعه إلى ما في قواعد اللغة من تعقيد، وبعد عن أسلوب التفكير الحديث وكثرة ما فيها من تأويل وحذف وتقدير وتعليل لما لا يحتاج إلى تعليل.. على أن ما نشهده اليوم من ضعف بالغ في العلم باللغة العربية لا يمكن أن نرجعه إلى تلك الصعوبات فهي قديمة. أما الجهل باللغة إلى الحد الذي نشكو منه اليوم فهو ظاهرة حديثة وسببُها من غير شك الطرائقُ الجديدة في تعليم قواعد اللغة العربية»(٨).

ويرى بعض الباحثين «أن أي لغة في العالم مهما تبلغ درجة صعوبتها وتعقيدها ممكنة التعلم والإتقان حين توجد الطريقة التربوية الناجحة لتعلمها واكتسابها»(٩).

ويلاحظ المتتبع لطرائق تدريس اللغة العربية في جامعاتنا العربية في العقود الأخيرة أن هذه الطرائق ما تزال متسمة بالطابع التقليدي في الأعم الأغلب، ففي دراسة استطلاعية على أعضاء هيئات التدريس في الجامعة

(٧) الدكتورة بنت الشاطئ – لغتنا والحياة – دار المعارف بمصر – القاهرة ١٩٧١ ص١٩٦.

(٨) الدكتور محمد كامل حسين – مذكرة عن الطريقة الحديثة في تعليم النحو – وزارة التربية والتعليم بالجمهورية العربية المتحدة – القاهرة ١٩٦٦ ص١.

(٩) الدكتور حسام الخطيب – اتحاد المعلمين العرب – الخرطوم ١٩٧٦ ص٥٥٨.

تبين أن أكثر طرائق التدريس شيوعاً كانت لمصلحة المحاضرة على النحو المبيّن فيما يلي(١٠):

نوع الطريقة	النسبة المئوية لشيوعها
١- المحاضرة	٣٧ ٪
٢- التجارب العملية	٢٣ ٪
٣- المناقشة	١٨ ٪
٤- المشاهدات التوضيحية	٧ ٪
٥- الندوات	٧ ٪
٦- حلقات البحث	٦ ٪
٧- طرائق أخرى	٢ ٪

ولما كانت المحاضرة من الطرائق الإلقائية التلقينية هي الأكثر تواتراً وشيوعاً كان المربون يرون أن المتعلمين في ضوء هذه الطريقة يتسمون بالسلبية والمحاكاة العمياء ما داموا يتلقون المعلومات والحقائق والأحكام دون بذل مجهود في الوصول إليها، وهذا ما يقتل فيهم روح الابتكار، كما أن الحقائق التي تقدم في ظلال المحاضرات تبقى مزعزعة في الذهن في منأى عن الرسوخ فيه بسبب وأدِ رُوح الاستنتاج وحسن التعليل ودقة الفهم، كما أن القدرة على التذوق الأدبي لن تنمّى بهذا الطريق.

ويضاف إلى ذلك أن هذه الأحكام السابقة قد تؤدي إلى التعميم الذي يفسد النظر إلى الأمور، فإذا عرف الطالب سمات أدب عصر الانحدار على سبيل المثال، وقُدِّم إليه نص أدبي على أنه من أدب هذه الفترة وهو ليس

(١٠) د. رشدي أحمد طعيمة ود. محمد بن سليمان البندري - التعليم الجامعي بين رصد الواقع ورؤى التطوير - دار الفكر العربي - القاهرة ٢٠٠٤ ص ١٦٧.

منها، ولا يحمل أي سمة من سمات أدبها، فإنك تجد أنه يضفي على النص خصائص أدب عصر الانحدار، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلُّ على أن تقديم الحقائق والأحكام لا يؤدي إلى تحقيق الأهداف المرجوة من تدريس الأدب من حيث التحليلُ والربط والاستنتاج والتذوق والتفاعل مع النصوص تفاعلاً يكشف عن أسرارها مبنىً ومعنىً[١١].

ولقد لجأت بعض الجامعات العربية إلى اعتماد أسلوب حلقات البحث على أنه نمط من أساليب تدريب الطلاب على البحث والتنقيب والاعتماد على النفس في التفتيش عن مصادر المعلومات والموازنة بين الأفكار، ومناقشتها وإبداء وجهات النظر حولها في ضوء نظرة نقدية، إلا أن هذا الأسلوب لم يحقق الأهداف المرسومة له في الجامعات الكثيرة العدد لأن أعباء أعضاء الهيئة التدريسية لا تسمح لهم بمناقشة الطلاب في كل ما قدَّموه من جهة، كما أن هذه الحلقات البحثية من جهة أخرى تقتصر في أغلبها على تلخيص بعض المقالات والكتب، وتُقدَّمُ بصورة بعيدة عن الجديّة والحرص والاهتمام.

ومن الملاحظ في تدريس اللغة العربية في الجامعات العربية قلة استعمال وسائل الإيضاح والتقانة في العملية التدريسية، مع أن مدرسي اللغة يحتاجون إلى المواد التعليمية في أثناء تدريسهم متمثلة في الكتب والمصادر والمراجع والصحف والوثائق والسجلات والصور المتحركة والتسجيلات الصوتية واللوحات المصورة والرسوم والأشكال والشرائح والشفافيات واللوحات والخطوط البيانية والنماذج والمجسمات والحواسيب والشابكة (الإنترنت)... إلخ.

(١١) الدكتور محمود أحمد السيد- الموجز في طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها- دار العودة- بيروت ١٩٨٠ ص٢٢٦.

وقد يحتاج مدرس اللغة إلى عدة مواد في الموقف التعليمي الواحد، ذلك لأن اللغة ما هي إلا صورة رمزية للواقع، والمدرس لا يستطيع أن يقرّب ما بين الرمز والواقع إلا إذا ربط بينهما ربطاً محكماً، فإما أن يقود طلابه إلى خبرة مباشرة بطريق مشاهدة الواقع في المواقف الحيوية المختلفة، وإما أن ينقل إليهم الواقع مصوراً أو مسموعاً أو ملموساً بطريق الحواس.

وثمة نقص فادح في المختبرات اللغوية في أغلب جامعاتنا العربية، وإذا توفّرت فهي لتدريس اللغات الأجنبية، ونادراً ما توظف لمصلحة اللغة العربية. مع أن ثمة تدريبات علاجية لتلافي الأخطاء الشائعة في النحو والإملاء يمكن أن تستخدم، وكذلك الاستماع إلى نماذج من التسجيلات الشعرية في مواقف متعددة مثل الرثاء والفخر والإباء والاعتزاز والوجدانيات بغية تعويد الطلبة على تكييف القراءة وتلوينها بحسب المواقف، أضف إلى ذلك إمكان إجراء تدريبات في البيان والبديع والعروض... إلخ.

وعلى الرغم من أن العصر الذي نحيا فيه هو عصر العلم والتقانة فإن غياب البرامج الحاسوبية التفاعلية في الأعم الأغلب من ميدان تدريس اللغة العربية ما يزال قائماً، مع أن الاستثمار في اللغة العربية في هذا المجال واسع جدًّا، وله عائداته الإيجابية على فعالية طرائق التدريس وتحقيق الأهداف المرسومة.

ج- **أساليب التقويم**: وإذا انتقلنا إلى أساليب التقويم المستخدمة في الجامعات العربية في ميدان تدريس اللغة العربية فإننا نلاحظ أن هذه الأساليب قاصرة عن قياس مستوى المتعلمين، إذ إنها لا تقيس إلا المستوى الأول من مستويات المعرفة ألا وهو الحفظ والتذكر والاسترجاع. أما المستويات العليا من حيث الفهم والربط والموازنة والاستنتاج والتحليل

والتركيب والتطبيق والتفاعل والنقد والحكم، فنادراً ما تعرض لها هذه الأساليب التقويمية، كما أن الأسئلة محدودة وغير شاملة، ويرد أحياناً سؤال خصص له ثمانون درجة من أصل مئة، ونادراً ما يبصّر الطالب بأخطائه في الامتحانات ليعمل على تلافيها، إذ إن معظم الأنظمة الجامعية تتشدد في إطلاع الطالب على ورقة امتحانه بعد تصحيحها(١٢).

كما أن إلغاء الامتحانات الشفاهية من بعض الكليات، والاقتصار على الامتحان الكتابي، جار كثيراً على الوقوف على المستوى الحقيقي لأداء الطالب في اكتسابه المهارات اللغوية، إذ إن الامتحانات الكتابية وحدها لا تكشف عن الضبط بالشكل الذي يؤديه الطالب في أثناء قراءته، كما أنها لا تكشف عن تفاعله مع المقروء..

٢- تدريس اللغة العربية لغير المتخصصين على أنها متطلب جامعي

يحقق تدريس اللغة العربية لغير المتخصصين أهدافاً ثلاثة وهي:

١- تعزيز الإحساس بأصالة لغتنا العربية ودورها القومي في جمع كلمة أبناء الأمة العربية وصهر مشاعرهم وتوحيد فكرهم، والاعتزاز بالدور الحضاري الذي أسهمت به اللغة العربية في مسيرة الحضارة البشرية في ميادين المعرفة المختلفة.

٢- الارتقاء بواقع طلابنا اللغوي والنهوض بمستواهم، والعمل على تعزيز تزويدهم بأساسيات لغتهم حتى يعملوا بدورهم على النهوض بواقع المستوى اللغوي لدى طلابهم فيما بعد إذا كانوا من الذين سيمارسون التدريس مستقبلاً.

٣- إعانة الطلبة على توضيح فِكَرهم والتعبير عنه بلغة دقيقة ومعبرة، وبعيدة

(١٢) الدكتور محمود أحمد السيّد - تعليم اللغة بين الواقع والطموح - دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر- دمشق ص٢٠٣.

عن الغموض والتشويش حتى يتمكنوا من التعبير عن أفكارهم إفهاماً للآخرين في عمليات التواصل اللغوي حديثاً واستماعاً وقراءة وكتابة وتعبيراً[١٣].

وهكذا يرمي تدريس اللغة العربية إلى تعزيز الخبرات اللغوية التي اكتسبها الطلبة من قبلُ، وترميم الثغرات في أدائهم من جهة، وغرس الشغف في نفوسهم بمحبة لغتهم إذا كانت المادة اللغوية التي يتفاعلون معها تستثير الاهتمامات، وتسدّ الحاجات ما دامت وثيقة الصلة باختصاصاتهم، ومن المتوقع أن يكون خريج الجامعة ملمًّا بلغته القومية عارفاً أساسياتها بوصفها مقوماً أصيلاً من مقومات فكره وحضارته وهويته، وأن يكون متمكناً من سلامة لغته قراءة وكتابة وحديثاً وفهماً للمعاني وتعبيراً عنها.

ويجيء السؤال: ماذا ندرّس من المادة اللغوية لغير المتخصصين؟ وإذا كانت المادة متطلباً جامعيًّا؟

وتجيء الإجابة أن القدر الذي نأخذه من المادة اللغوية هو أساسيات المادة أي القدر الرئيس منها، على أن يقدم إلى الدارسين في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة. هذا من جهة، ومن جهة ثانية لا بد أن تكون النصوص اللغوية المتخيرة من اختصاصات الدارسين.

أما القدر المناسب الذي يؤخذ من المادة فقد رئي أن يقتصر على أساسياتها، ونتعرف هذه الأساسيات من تواترها وشيوعها، فما كان مستعملاً بكثرة في مواقف التواصل عدَّ أساسيًّا، وما كان استعماله نادراً فليس ثمة حاجة ليدرسه الطلبة، ذلك لأن أساسيات المادة تعد ذات نفع عام فيما يتعلق بمعظم المواقف التي يتعرض لها الفرد في تفاعله مع المجتمع، وهذه الأساسيات ترتبط على نحو واضح بمطالب المتعلم والمبادئ الاجتماعية وواقع المجتمع وظروفه، كما ترتبط

(١٣) الدكتور محمود أحمد السيّد - المرجع السابق ص ٢٦٦.

باختصاصه الذي يدرسه حتى يدرك أهميتها في حياته المستقبلية وحياة مجتمعه. ومن هنا كان ثمة أساسان متكاملان تختار المادة اللغوية لغير المتخصصين في ضوئهما، أولهما يركز على الأساسيات، وثانيهما يوظف هذه الأساسيات ضمن تخصص الطالب سدًّا لحاجاته وتلبية لرغباته واهتماماته.

وتجدر الإشارة إلى أن التعامل مع الطلبة الدارسين في الكليات المختلفة ينبغي له أن يتَّسم بالمرونة في ضوء اختصاصات الدارسين ومستوياتهم، وعلى المدرسين أن يراعوا هذين الجانبين معاً: مستوى الدارسين من جهة، واختصاصاتهم من جهة ثانية.

ومن الملاحظ في تدريس الطلبة – من غير اختصاص اللغة العربية في الكليات الجامعية – مقررَ اللغة العربية أن ثمة غياباً للهدف عن أذهان القائمين على التدريس في الأعم الأغلب، فإذا هم يتبعون الطرائق نفسها التي كانوا يتبعونها في المرحلة الثانوية، وإذا هم يعيدون على مسامع الطلبة النصوص نفسها التي درسها الطلبة من قبل، وليس هنالك جدة في تخيّر هذه النصوص، وطالما أسهب المدرسون في تدريس الخلافات بين المدارس النحوية لطلبة كليات الطب، وأقسام البلاغة وضروبها لطلبة الهندسة الكهربائية، وهذه الممارسات التي تدل على غياب الهدف انعكست سلباً على الطلبة، فإذا هم ينفرون من اللغة العربية، ويستثقلون مدرسيها، ويغيبون عن حضور دروسها.

أما الكتب التي يتفاعل معها الطلبة في هذه الكليات فإن بعضها زاخر بالأخطاء اللغوية، وقد ورد في مقدمة أحد الكتب التي تدرَّس في إحدى الكليات العلمية هذا الإهداء «وأهدي هذا العمل المتواضع إلى الذين يعرفون معنى العطاء والتضحية والدي ووالدتي ومن تشبه بهم، وإلى الذين يعرفون الحق ويناصروه، وللقراء المعذرة لأنهم كانوا ينتظروا أكثر مما قدم».

ومع تقديرنا للنيات الطيبة الصادقة والمخلصة في التأليف بالعربية، وتعميمها على مختلف الأقسام في الجامعات العربية، فإننا نطمح إلى أن تكون لغة هذه الكتب المؤلفة سليمة حتى لا تقع عين الطالب على أي خطأ في هذه الكتب، بحيث يمتص السلامة اللغوية منها، ولا يضير أحدنا أن يستعين أحدنا بأهل الاختصاص فيطلب إليهم تصحيح ما كتبه وأعده لطلابه، ذلك لأن الأخطاء اللغوية إملائية كانت أو نحوية أو غموضاً، تشين الكتابة مهما يكن صاحبها متمكناً من مادة اختصاصه.

ومن الملاحظ أيضاً في جامعاتنا العربية أن ثمة اضطراباً في المصطلحات، واختلافاً فيما بينها مما ينعكس بلبلة وتشويشاً في أذهان الدارسين، وأكثر ما يتجلى هذا الاختلاف في ميادين العلوم البحتة والتطبيقية حيث تتعدد التسميات والمصطلحات للمفهوم الواحد بين قطر عربي وآخر.

ويلاحظ أيضاً أن بعض الترجمات في الكتب المترجمة غير مفهومة في عباراتها، ولا يتمثلها الطلبة ما دامت متسمة بالغموض، وهذا ما يجعل الفائدة منها غير متحققة.

خامساً – صوى على درب النهوض بطرائق تدريس اللغة العربية في الجامعات العربية

ثمة أمور يمكن في حال تحقيقها أن ترتقي بواقع تدريس اللغة العربية في الجامعات العربية، ومن هذه الأمور:

١ – **وظيفية المناهج**: يتجه تعليم اللغة نحو الوظيفية والنفعية الاجتماعية، إذ لا فائدة من تعلم أي مادة إذا لم يكن لها نفع اجتماعي وفائدة للمتعلم في تفاعله مع المجتمع.

وفي ضوء هذا التوجه لا بد من أن تبنى المناهج اللغوية على المواقف

الحية التي تُستخدم من المادة في الحياة، حتى يحس الدارس أن المادة التي يتفاعل معها تستثير دوافعه، وترضي اهتماماته، وتلبي حاجاته، وتُوفِّر متطلباته، فيقبل عليها بشغف ورغبة.

ويتطلب ذلك تخليص المناهج من الحشو والتكرار والشذوذات والاستثناءات والمماحكات والتأويلات وخاصة في المادة النحوية، والتركيز على الأساسيات التي تساعد المتعلم على إدراك العلاقات بين الحقائق والمفاهيم والمجالات، مما يعين على حسن الانتفاع بها، وهو بذلك يعد خطوة في سبيل تكامل المعرفة ووحدتها.

أما فيما يتعلق بوظيفية المناهج اللغوية في الكليات الأخرى غير الآداب والتربية (قسم اللغة العربية) فلا بد من أن تكون المواد في هذه المناهج التي يتفاعل معها الطلبة إن في الطب أو في الهندسة أو التجارة أو الفقه أو التاريخ وإن في أي اختصاص آخر، من صميم اختصاصاتهم حتى تلبي حاجاتهم، وتشبع ميولهم، وأن يصار إلى إجراء التدريبات اللغوية في ظلال تلك النصوص الوظيفية بصورة غير مباشرة.

وثمة مجال رحب وواسع في اختيار المادة اللغوية في ضوء اختصاصات الدارسين، فإذا كنت أدرّس طلبة كلية التربية فيمكن الإتيان بنصوص تربوية من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ومن رسالة (أيها الولد) للغزالي، ومن مقدمة ابن خلدون (الشدة على المتعلمين مضرة بهم) ومن كتابات المربي ساطع الحصري وأحمد أمين مثل وصيته إلى ولده، ووصية الأستاذ الدكتور فاخر عاقل إلى ابنته... إلخ، ويمكن عرض نصوص شعرية من مثل لامية ابن الوردي وميمية الجرجاني.... إلخ.

وإذا كنت أدرّس طلبة علم النفس فيمكن أن آتي بنصوص تدور حول

نفسية قائلها من مثل شخصية المتنبي في «أطاعن خيلاً» وشخصية أبي فراس الحمداني في روملياته، وأبي العلاء المعري في «أرى العنقاء»، وتربية النفس عند البوصيري، وعزة النفس لدى بدوي الجبل، والتفاؤل عند إيليا أبي ماضي... إلخ.

وإذا كنت أدرّس طلبة علم الاجتماع فيمكن أن آتي بنصوص تعالج المشكلات الاجتماعية قديماً وحديثاً من مثل مشكلة (أسعار الرعية) لأبي العتاهية، والتخلف في الشرق لنجيب حداد، وحرية الزواج عند الرصافي، والفقر والتشرد عند علي الجارم وأبي ماضي ومشكلة الانغماس في الملذات عند الأخطل الصغير... إلخ.

وإذا كنت أدرّس طلبة كلية الفنون الجميلة فيمكن أن آتي بنصوص وصفية قديمة وحديثة من مثل وصف الفرس لامرئ القيس، ووصف الحرب لبشار بن برد، ووصف الذئب للبحتري، ووصف الليل للمعري، والصور الكاريكاتورية لدى كل من ابن الرومي والجاحظ مثل وصف الأصلع ووصف قاضي البصرة، ووصف البركة لابن حمديس الصقلي والبحتري، ووصف الجبل لابن خفاجة الأندلسي، والربيع لأبي تمام والبحتري وصفي الدين الحلي، ووصف المساء لخليل مطران... إلخ.

وهكذا نرى أن التعامل مع هؤلاء الدارسين في الكليات المختلفة ينبغي له أن يتسم بالمرونة وفق اختصاصات الدارسين من جهة ومستوياتهم من جهة ثانية.

٢- العمل على إصدار توصيف للمقررات الدراسية يحدد المحتوى لكل منها وعدد ساعات التدريس وتصنيف المقررات الدراسية إلى مجموعات (متطلبات الجامعة أو المعهد، متطلبات الكلية، متطلبات القسم العلمي

(التخصص)، مقررات اختيارية) على أن تكون اللغة العربية متطلباً جامعيًّا لجميع الطلبة، وليست من المقررات الاختيارية، وذلك للطلبة في الكليات المختلفة.

٣- إحداث تغييرات جوهرية في طرائق التدريس وتنويع مصادر التعليم والتعلم تحقيقاً لأهداف المنهج مع التركيز على توظيف التقانة في التدريس، واستخدام أساليب التعلم الذاتي وتوظيف التعلم بالحاسوب، والمناقشة والحوار والعصف الدماغي والتكليفات البحثية، إضافة إلى الدراسات الميدانية والعملية، وتعزيز التعلم الذاتي على أنه أحد ركائز المنهج الجامعي، وأنه أساس للتعلم المستمر مدى الحياة؛ والتركيز على تنمية التفكير النقدي لدى الطلبة على أنه المدخل الأساسي لمواكبة روح العصر والتمييز بين الأصالة والزيف. والعمل على أن تكشف طرائق التدريس في التعليم الجامعي عن المواهب الأدبية بغية تنميتها والارتقاء بها.

٤- توظيف تقانة المعلومات والاتصالات الحديثة في ميدان طرائق التدريس الجامعي سواء للطلبة الذين يتابعون دراستهم في الجامعة، أو لأولئك الذين يتلقون التعليم عن بعد، كما يمكن لهذه التقانة أن تؤثر تأثيراً إيجابيًّا في نوعية التعليم العالي ومواءمته والحصول عليه وتخفيض تكلفته إذا وفرت لها الظروف الملائمة للحصول المباشر على مصادر المعلومات التقنية، وتسهيل التواصل السريع بين أعضاء هيئة التدريس والباحثين، كما تسهم هذه التقنيات في تقديم الدروس والبرامج المؤدية إلى الحصول على الشهادات بوسائط متعددة ومتقدمة مخترقة بذلك الحواجز التقليدية للمكان والزمان. وإن القدرة الافتراضية لهذا التطور في وسائل التعليم لا حدود لها لتحسين التعليم المفتوح والتعلم عن بعد، والتعلم مدى الحياة إذا ما هُيِّئت لها الظروف المناسبة[١٤].

(١٤) الدكتور رشدي أحمد طعيمة والدكتور محمد بن سليمان البندري - التعليم الجامعي بين رصد الواقع ورؤى التطوير - مرجع سابق ص٨٧٦.

٥- العمل على أن يكون إعداد مدرسي اللغة العربية في الجامعات العربية غير مقتصر على التخصص الدقيق، وإنما على ما يرتبط به من تخصصات علمية أخرى في إطار تكامل المعرفة تحقيقاً لأهمية الدور التربوي والمهني للمدرس الجامعي، وضرورة إعداده لمهنته التدريسية بحيث يتمكن من نقل نتائج التعلم نقلاً يؤدي إلى الفهم والتجديد والإبداع.

٦- إخضاع أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات إلى دورات تدريبية تربوية تزودهم بمهارات توجيه الطلبة وسبل إرشادهم والأساليب الفعالة في تدريسهم وطرائق تقويمهم، بحيث يغدو عضو الهيئة التدريسية قادراً على مواكبة التدفق المعرفي، ومواجهة عصر المعلوماتية والمكتبات الإلكترونية وبنوك المعلومات والاتصالات وتقانة الاتصال والتعليم.

٧- التطوير المهني لأعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات على ألا يقتصر على الأساليب والطرائق فقط، وإنما إخضاعهم لِدورات في اللغة تركز على الأساسيات ارتقاء بالواقع اللغوي، وانطلاقاً من أن هذا الارتقاء مسؤولية جماعية، ولا تلقى على كاهل مدرسي اللغة العربية وحدهم.

٨- تنويع أساليب التقويم وعدم الاقتصار على الامتحانات الكتابية، وإدخال الامتحانات الشفاهية وحلقات البحث، على أن تركز الأسئلة على مستويات المعرفة كافة، وعدم الاقتصار على المستوى الأول من مستويات المعرفة المتمثل في الحفظ والتذكر والاسترجاع، وإنما يشمل الفهم والتطبيق والتحليل والضبط بالشكل والتعليل والنقد... إلخ. والحد من الأسئلة الموضوعية المؤتمتة، نظراً لقصورها في قياس الكثير من المستويات المعرفية العقلية العليا من جهة وقصورها في تعرف مستويات الطلبة في التعبير.

٩- السعي لأنْ تتضمن مقررات التعليم الجامعي مقرراً في مهارات استخدام المكتبة وتعدد مصادر التعلم، وآخر في أساليب البحث.

١٠- تشجيع حركة الترجمة للمراجع وأمهات الكتب الأجنبية في التخصصات المختلفة والتنسيق مع المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق في هذا المجال، حتى يتمكن الطلبة من الاطلاع على التطورات العلمية الحديثة في التخصصات المناظرة في دول العالم المختلفة، ونقلها إلى لغتهم الأم «العربية الفصيحة».

١١- التنسيق بين منظومة التعليم الجامعي ومنظومة التعليم ما قبل الجامعي، وكفانا تقاذف الكرة وتحميل المسؤولية لطرف دون آخر!

* * *

المصادر والمراجع

- اتحاد المعلمين العرب - الدكتور حسام الخطيب - الخرطوم ١٩٧٦.
- التعليم الجامعي بين رصد الواقع ورؤى التطوير - الدكتور رشدي أحمد طعيمة والدكتور محمد بن سليمان البندري - دار الفكر العربي - القاهرة ٢٠٠٤.
- التعليم العالي في العراق (اتجاهات نموه ومشكلاته) - الدكتور عبد الجليل الزوبعي والدكتور محمد أحمد الغنام - جامعة بغداد ١٩٦٨.
- تعليم اللغة بين الواقع والطموح - الدكتور محمود أحمد السيد - دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر - دمشق ١٩٩٨.

- رابطة الجامعات الإسلامية - الجامعات الإسلامية وتعليم العربية: الواقع والتطوير - مدينة الإسماعيلية - مصر يناير ٢٠٠٢.
- قواعد الدراسة في الجامعة - الدكتور سعيد التل - عمان - دار الفكر - ١٩٩٧.
- اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين في المؤسسات التعليمية في فلسطين: الواقع والتحديات واستشراف المستقبل - الدكتور محمد جواد النوري - الموسم الثقافي الثالث والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني - عمان ٢٠٠٥.
- لغتنا والحياة - الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٧١.
- محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية - أمين الخولي - معهد الدراسات العربية - القاهرة ١٩٥٨.
- مذكرة عن الطريقة الحديثة في تعليم النحو - الدكتور محمد كامل حسين - وزارة التربية والتعليم في الجمهورية العربية المتحدة - القاهرة ١٩٦٦.
- الموجز في طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها - الدكتور محمود أحمد السيّد - دار العودة - بيروت ١٩٨٠.

* * *

باع وأباع، والمَبيع والمُباع

أ. د. مازن المبارك(*)

لعلّ من أبرز صفات اللغة الحيّة أن تكون كثيرةً في موادّها وجذورها، غنيّة سخيّة في عطائها توليدًا واشتقاقًا، قادرة على التعبير عن المعاني والأفكار، تملك من الأبنية والقوالب اللفظيّة ما تستطيع به أن تعبّر عن المعاني الدقيقة، وعن الفروق بين المعاني، حتى يكون لكل معنًى مهما يدقّ كلمة تعبّر عنه، أو بناءٌ لفظيّ يصوّره. ومن المعروف أن من خصائص العربيّة التي امتازت بها أنها تملك من القوالب اللفظية والأبنية والكلمات ما تعبّر به عن دلالاتٍ كثيرة تباينت معانيها ضمن المعنى العام الواحد. ولا تكون اللغة صادقة مطواعًا إلّا إذا كانت مرافقة للفكر، مسايرة له في تمييزه بين المعاني، وإلّا لم تكن صورةً له، وكانت عاجزة أمامه. ولو لم تكن اللغة قادرة على ملاحقة الفكر ومسايرته لمات كثير من أفكار العلماء والشعراء والمبدعين الذين حفظت اللغة بوارقَ قرائحهم بدقائق دلالاتها.

إن الفكرة كثيرًا ما تمرّ بالخاطر أو بالذهن مرور البرق، فإن لم تكن عند صاحبها، وفي الثروة اللغوية التي يمتلكها، كلمةٌ تستطيع التقاط الفكرة العابرة وتصويرَها، غابت وغارت ومضت؛ لأنَّ صاحبها لم يستطع أن يكسوها ما يُظهرها به، ولا يملك القالب اللغويّ الذي يصلح لها، ويكون

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

على قدّها. إنه كلما كان اللسان قادرًا على ملاحقة الفكر ومجاراته، قادرًا على التعبير عن أدقِّ أفكاره ومعانيه، وعن درجات دلالاته المختلفة المتفاوتة، كان أرقى وأدقّ وأوضح، ومن العسير أن تتمايز المعاني المتقاربة إذا لم يكن لكلٍّ منها البناءُ اللغويّ الخاصّ به والمعبِّر عنه.

إن كتّاب العربية وأدباءها يعرفون أن للعربيّة ثروةً لفظية لا نظير لها في القدرة على التفريق بين المعاني مهما تكن دقيقة، وعلى التعبير عن الصفات مهما يقلّ الفرق بينها، وعن الأفعال مهما تفاوتت درجات الضعف والقوة فيها. ومن يَعدْ إلى كتب التراث اللغوي يجدِ العجب العجاب في تحديد درجات أفعال الحبّ والعشق، وأفعال النوم وما تدلّ عليه من سطحيّة أو استغراق. ودرجات السَّير وما في أفعاله من دلالات على البطء والسرعة والحركة والهيئة!

إن كتب اللغة حفظت لنا ما بين أسماء المسمَّى الواحد من الفروق، وما بين أفعال أو درجات الفعل الواحد من فروق، وما بين الصفات المتقاربة من تفاوت... وهكذا تجد الكلمة، سواء أكانت اسماً أم فعلاً، وكأَنها الثوب الذي يُفصَّل على قدِّ لابسه، لا يزيد عنه ولا ينقص، والذي يَشِفُّ عن المعنى كما يشفّ الثوب الرقيق عن لابسته أو عمّن يرتديه.

لقد دعوت في مقال سابق[1] إلى عدم طمس الفروق المعنوية بين الكلمات، وعدم المسارعة إلى عدّها مترادفات، وقلت إن ذلك المنهج سياسة غير حكيمة، ولا مفيدة في ميدان اللغة عامّة، فكيف إذا كانت اللغة كالعربية المعروفة بأنها تضع لكل حالة لبوسها، وتخصّ كلَّ حالة يمرّ بها الكائن في خَلقه، وفي خُلُقه، في سيره وأكله وشربه، في نومه وحبّه وبغضه، وفي كل صغيرةٍ أو كبيرة تتصل بحياته أو بيئته أو حيوانه، بكلمةٍ يعبّر بها عنها ويدلّ عليها؟!

(١) محاضرة التصحيح اللغوي: كلام في المنهج مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق م٨٨ ج٣ ص٨٢١.

والعجيب أن نسلك اليوم في عملنا اللغوي «منهج طمس الفروق»، ونحن نرى أن العربية تملك من ثروة المترادفات ما لا نحتاج إليه، وما وصل إلى أن أصبح مجال طعنٍ ونقد يوجَّه إلى العربيّة ممن لا يعرفون مزية ذلك، أو ممن يتوهّمون الترادف فيما لا ترادف فيه!

إننا اليوم في أشدّ الحاجة إلى إحياء الفروق بين المعاني، وإلى الدقّة في التفريق بين معاني الكلمات لنضع بين أيدي العلماء لغةً دقيقة تساعدهم فيما يتصدَّون إليه من وضع مصطلحات علميّة دقيقة، ومن تعبير علميّ دقيق. ونحن اليوم مع شيخ كتّاب العربية أبي عثمان الجاحظ الذي قال: «إن على الكاتب إذا وقع على ألفاظ متقاربة المعاني، أن يبحث عن أسباب اختلافها، وأن يستعمل كلًّا منها في موضعها مادام من حقِّ المعنى، أن يكون له الاسم طِبقاً. وألَّا يكون له فاضلاً ولا مفضولاً، ولا مُقصِّراً ولا مشتركاً، ولا مُتضمَّناً»(٢).

وأحسن الكلام ما كانت كلماته معبّرة عن المراد، وخير الألفاظ وأدقّها ما كان منها قالباً على قدِّ المعنى؛ لأن المعنى جسم واللفظ لباسه، ولا بدّ للعالِم وللبليغ أن يصيب بقوله وكلماته ما يرمي إليه من دقائق المعاني، وعلى اللغويّ أن يضع بين أيدي الكتّاب ثروة يختارون منها ما يشفي غليلهم، ويكسو معانيهم، ويتجلَّى به مُرادُهم، وتتحلَّى به بنات أفكارهم الأدبيّة، وحقائقهم العلميّة الدقيقة.

وأضرب اليوم للقارئ مثالاً واحداً من أمثلةٍ كثيرة يسارع أصحابها إلى القضاء على الفروق بين المعاني، على رغم اختلاف المباني، وإلى جعل المُتباينَيْن في المعنى مترادفَيْن!

جاء في قرار لغويّ مجمعيّ: «جواز قولهم المَبيع والمُباع بمعنًى واحد».

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ٩٣.

وجاء في تعليل هذا القرار:

[التعليل: أ) في المعاجم. لسان العرب: لم يذكر (أباع) على بناء (أفعل) في مادة (بيع)، ولكن جاء في مادة (أبر): «وشبَّه الشافعيّ ذلك بالولادة في الإماء إذا أُبيعت حاملاً تبعها ولدها، فإن وَلدتْه قبل ذلك كان الولد للبائع... وقوله (أباع) لغة في (باع) كما قال ابن القطّاع».

المعجم الكبير: «أباع فلان الشيء باعه».

أي إن ابن القطاع أثبت (أباع) بمعنى (باع): وذكر ذلك ابن منظور ولم يُخطّئها، إذ هي وردت بمعنى (باع) في كلام الشافعي.

ب- في الدلالة: قال سيبويه (الكتاب ٢/ ٢٣٦): «وقد يجيء فَعَلتُ وأفعلت لمعنًى واحد إلّا أن اللغتين اختلفتا». أي إن ما جاء على هذين البناءين هو اختلاف لغات من نحو: صدّه وأصدّه، وحزنه وأحزنه، وجدَّ وأجدَّ في الأمر].

ويتحدث القرار عن (خصوصيّة) فعل (باع) ويقول: [وهذه الخصوصية لا يُفسدها إعطاء دلالة جديدة للفعل (أباع) ليكون بمعنى (باع) لا عَرَضَ للبيع فقط].

ثم يستشهد القرار بمجيء (أباع) بمعنى (باع) في كلام النويري المتوفى سنة (٧٣٣هـ) في كتابه (نهاية الأرب). ومجيئها في كلام الكاساني (٥٨٧هـ) في كتابه (بدائع الصنائع) وينتهي تعليل القرار إلى القول: [ولا يكاد المعاصرون من الفقهاء والتجار يستعملون (المُباع) إلّا بمعنى (المَبيع) وليس المعروض للبيع]. وهنا ينتهي كلام أصحاب القرار القائل بأن (المبيع) بمعنى (المباع)، والمتضمّن أن (باع) بمعنى (أباع).

وأقول في الردّ على القرار وتعليله:

١- أما القول بأن (لسان العرب) لم يذكر (أباع) على بناء (أفعل) في مادة (بيع). فغير صحيح! فقد ذكر ابن منظور ذلك في مادة (بيع) وقال: «وابتاع الشيءَ: اشتراه. **وأباعه: عرَّضه للبيع**. قال الهمداني:

فرضيت آلاء الكُميت فمن يُبْع فرساً فليس جوادُنا بمُباعِ

أي بمعرَّض للبيع».

وهكذا وردت المادة وشرحها والاستشهاد لها في معجم لسان العرب، فكيف يقال إن اللسان لم يذكرها في مادة (بيع)؟!!

٢- وأما قولهم «ولكن جاء في مادة (أبر): وشبّه الشافعي... إلخ». والتعليق على ذلك بأن (باع) بمعنى (أباع) في قول الشافعي، فيدلّ على عدم فهم كلام الشافعي، رغم أنه مفسَّر مشروح بعده. إنه يقول عن الجارية: «إنها إذا (أبيعت) حاملاً، تبعها ولدها، فإن ولدته قبل ذلك كان الولد للبائع، أي ما دامت (أبيعت) أي عُرضت للبيع حاملاً فإن ولدها الذي تحمله معروض معها، وهو من حقِّ الذي اشتراها، وأمَّا إن ولدته قبل عرضها للبيع، فهو من حقِّ الذي كان يملكها أي البائع، وهذا كلام واضح فسَّره ناقله، فكيف نُقوّل الشافعيَّ ما لم يقل، ونغيّر حكمًا شرعيًّا أفتى به؟!

٣- وأما القول بأن ابن منظور نقل قول ابن القطاع بأن (أباع) بمعنى (باع) فقول عجيب، بعيد عن الدقّة في النقل، وعن الصحة في الرواية؛ وذلك أن متن اللسان خلا من كلام ابن القطاع البتّة! ولكن محقّق اللسان أو الناشر، وضع حاشية في أسفل الصفحة عند قول الشافعي (أبيعت) وذكر فيها ما نقل عن ابن القطاع، وأما كلام ابن منظور فليس فيه إشارة إلى ابن القطاع ولا غيره، ومع ذلك يقول

المعلِّلون: إن ابن منظور نقل القول ولم يُخطِّئه!! وبين موت ابن منظور ووضع تلك الحاشية الداخلة في غير موضعها، مئات السنين، وكان حقّ موضعها أن تكون حاشية في مادة (بيع) بل حقّها ألّا تكون أبداً، لأن كلام ابن منظور وكلام الشافعي لا يعلّق عليهما بكلام ابن القطاع!

وذلك لأن الشافعيَّ شيخُ الأصمعيّ، قرأ عليه الأصمعي كثيرًا من أشعار الجاهليّين، وكان الشافعي حجة في اللغة، استثناه اللغويون والنحاة والأصوليّون منهم من تاريخ الذين يحتجّ بهم في اللغة، وقبلوا الاحتجاج به بعد عصر الاحتجاج، وروى عنه أصحاب المعاجم. وأما الأصمعيّ فكان لا يروي إلّا ما علا وكان فصيحًا، ويرفض ما دون ذلك، فإذا ثبت القول عن الشافعي وعن الأصمعي كان فوق كلِّ قول. وأما ابن القطّاع، صاحب الحاشية الدخيلة، والتي فسَّر بها القرارُ المجمعي قول الشافعي، وغلّبوا قوله، واتّهموا أو نسبوا إلى ابن منظور قبول قوله، فهو المتَّهم بالتَّسامح والتساهل في النقل والرواية، وقد جاء في ترجمته أنه ولد في صقلية سنة (٤٣٣هـ) ورحل إلى مصر سنة (٥٠٠هـ)، وأنه أجاد النحو، وكان نَقَدَة المصريّين **يَسِمونه بالتساهل في الرواية**، وهو الذي بعد أن أنكر معرفته بمعجم الصحاح للجوهري، رأى شهرته واشتغال الطلبة والدارسين في مصر به، فركّب طريقاً في الإسناد، مدّعياً أنه يرويه عن الجوهري بإسناد متّصل[٣]!!

وكيف يجوز أن ننقل من حاشية للناشر وضعها في أسفل

(٣) انظر ترجمته في إنباه الرواة للقفطي ٢/ ٢٣٦.

الصفحة خارجة عن المتن ثم ننسبها إلى صاحب المتن؟ وكيف نقول إن صاحب المتن أي المؤلِّف نقلها ولم يخطِّئها؟ هل يصحّ هذا في أساليب الاستشهاد بله الاحتجاج بله التحقيق؟!

٤- حين يقول سيبويه - على نحو ما جاء في تعليل القرار -: «وقد يجيء فعلت وأفعلت والمعنى واحد، أي إن ما جاء على هذين البناءين هو اختلاف لغات» فهل معنى ذلك أن هذين البناءين، حيثما وجدا - جاز لنا أن نعدّهما بمعنى واحد بحجة أنه (قد يجيء) كما قال، وبحجة أن (بعضها) كان اختلاف لغات؟! وهل يجوز القياس في هذا على ما جاء في كل من أبواب فعلت وأفعلت؟

إن عنوان الباب في كتاب سيبويه (٢/ ٢٣٣) هو: «هذا باب **افتراق فعلت وأفعلت في الفعل للمعنى**» مثل: دخل وأدخل، وخرج وأخرج وفزع وأفزع. وجاء في الباب نفسه قوله: «**وتجيء أفعلته على أنْ تعرّضه لأمرٍ**؛ وذلك قولك: أقتلته أي عرَّضته للقتل، ويجيء مثل: قبرته وأقبرته، فقبرته: دفنته، وأقبرته: جعلت له قبراً. وتقول سقيته فشرب، وأسقيته: جعلت له ماء وسُقياً». ويقول في الباب نفسه: «وقد يجيء فعلت وأفعلت المعنى فيهما واحد، إلَّا أن اللغتين اختلفتا، زعم ذلك الخليل».

وواضح أنه ليس في كلام سيبويه ما يؤيد أن (باع) بمعنى (أباع)، وليس في قوله ما يدلّ على جواز القياس في ذلك لنقول إن كل ما جاء على (فعل) يصحّ أن يجيء منه على (أفعل) والمعنى واحد، بحجة أن مثل هذا جاء في اللغة! بل إن في كتاب سيبويه، وفي الباب نفسه جاء قوله: إن أفعلته تجيء للتعرّض للأمر، ومثّل

بـ(أَقْتَلَ) وهي مثل (أباع) فلماذا نذكر بعضاً من قوله. ونقيس عليه، ونهمل بعضاً، وهو في الباب نفسه ومتّصل بموضوعنا؟!

أين كتب تراثنا اللغويّ التي كتب فيها المؤلِّفون تحت عنوان (فَعَلتُ وأَفعلْتُ)، وماذا عمل الذين ألّفوا من اللغويِّين في كتب «فعلت وأفعلت»؟ ولماذا راحوا يصنِّفون الأفعال أصنافاً هي:

١- فعلت بمعنًى وأفعلت بمعنى آخر.

٢- فعلت وأفعلت بمعنى واحد.

٣- فعلت لا يأتي منها أفعلت.

٤- أفعلت لا يأتي منها فعلت.

قال الزَّجاج (٣١١هـ): «هذا كتاب يذكر فيه ما تكلَّمت به العرب على فعلت وأفعلت والمعنى واحد، وما تكلَّمتْ به على فعلتُ وأفعلتُ والمعنى مختلف، وما ذُكر فيه فعلتُ وحده، وما ذُكر فيه أفعلت وحده»(٤).

والكتاب مرتَّب على حروف المعجم، ولو كان القياس بين هذه الأقسام جائزاً، فلماذا أتعب الزَّجاج وأمثاله أنفسهم وألّفوا أو كتبوا في هذا الموضوع؟! ونقلوا ما سمعوه وما بلغهم أنه قيل، وقد نقل الزَّجاج نفسه باع وأباع وجعلهما بمعنًى، ونقل اللغويّون ما نقله وردّوا متمسّكين بما جاء عن الأصمعي وابن السكيت.

٥- جاء في تعليلهم لمجيء (باع) بمعنى (أباع) قولهم: «كما أن للفعل (أباع) معنى آخر، وهو (جعله للبيع) على القياس». وفي هذا القول ما فيه! لأنه يعود إلى القول بأن (أباع) بمعنى عرضه للبيع! إذ ما الفرق بين

(٤) الزَّجاج: كتاب فعلت وأفعلت ص١.

جعله للبيع وعرضه للبيع؟ وهل يصحّ هذا القول في معرض القول بأن الفعلين باع وأباع بمعنى واحد؟ ثم عن أيّ قياس يتحدثون؟

هل يجوز إذا رأينا بناءي فعلٍ على (فَعَل) و(أفعل) بمعنًى واحدٍ، مثل: ضاء وأضاء، ووم وأوم، وجدّ وأجدّ، أن نقيس على ذلك فنقول: إن كلًّا من حصد وأحصد، وقطف وأقطف، وذمَّ وأذمّ، وقبح وأقبح، ولام وألام بمعنى واحد؟ وإن رعى وأرعى، وسقى وأسقى، بمعنى واحد؟ وإن جبر بمعنى أجبر وإن خفرت الرجل بمعنى أخفرته؟!! مع أنَّ كلًّا من هذه الأفعال اختلف معناه باختلاف بنائه.

وإن (ثنيت) الشيءَ: عطفته ولويته، وأما (أثنيت عليه) فمدحته وأطريته. و(خَفَرت) الرجلَ: حفظته، وأما (أخفرته) فمعناه: نقضت عهده، وهكذا تختلف الأبنية بمعانيها في كثير من الأحيان، فلا يكون القياس فيما بينها مطّرداً ولا صحيحاً.

٦- أليس عجيباً أن يقال إن لهذا الفعل خصوصيّة لا تمنع إعطاءه دلالة جديدة يصبح فيها (أباع) بمعنى (باع)، لا بمعنى عرضه للبيع فقط؟ إذا كان الاستدلال والاحتجاج بأقوال اللغويِّين الذين روي عنهم يقوم على أنهم استعملوا (أباع) بمعنى (باع) كما ادّعيتم ذلك عند الشافعي وابن منظور وغيرهما، فكيف يقال إن إعطاء (أباع) معنى (باع) هو دلالة جديدة؟! ثم أليس التحول بأن (أباع) يصبح بمعنى (باع) لا بمعنى (عرض للبيع) فقط، يدل أيضاً على أن معناه (عرض للبيع)؟!

وإن قياس الأبنية بعضها على بعض، لم يقل به أحد، ولو صحّ لفسدت اللغة وتداخلت المعاني. وأصبحت اللغة فوضى كحياتنا!

وإن احتفاظ العربية بالفروق الدقيقة بين المعاني من أجمل

خصائصها، وإن من دقّتها في ملاحظة تلك الفروق مثلاً أنها تعبّر عن اتجاه الحركة نحو كلٍّ من اليمين والشمال بكلمة خاصّة بها تدلّ على اتجاه الحركة والمتحرّك، فتقول لطائر يطير من ناحية اليمين السّانح، وللطائر يطير من ناحية الشمال البارح.

وتقول لمن يطحن بالرحى إذا أدار يده من يمينه إنه يطحن شَزْراً، وإذا كان يُديرها نحو اليسار: إنه يطحن بتًّا!! قال شاعرهم:

ونطحن بالرَّحى شَزْراً وبتًّا ولو نُعطى المغازلَ ما عَيينا(٥)

ولقد وضع العلماء علم الصرف للتفريق بين المعاني بالأبنية المختلفة والجديدة المشتقّة، ونحن اليوم نعيد الكلمات المختلفة المباني إلى الاتّحاد في المعاني!!

وهل إلغاء الفرق بين دلالتين لبناءين مختلفين وجعلهما بمعنًى واحدٍ يعني إعطاء دلالة جديدة لأحدهما أم يطحن الفرق بينهما؟ أليس هذا هو نفسه عكس ما ينبغي أن نفعله؟ وهو أن نفرّق بين المعاني الدقيقة لاختلافها بأبنيتها، نأتي لنطمس دقّة المعاني بجمعها وعدّها مترادفات، وكأن لغتنا فقيرة بالمترادفات محتاجة إلى الزيادة فيها والإكثار منها!!

٧- وأعجب من هذا أن المجيزين يعدّون (أباع) بمعنى (باع) دلالة جديدة!! وأنه ليس بمعنى عرض للبيع فقط! وذلك عودة منهم وإقرار بأن (أباع) عرض للبيع، ولكنه يأتي أيضاً بمعنى (باع) لماذا؟ يجيبون:

لأنّه «**لا يكاد المعاصرون من الفقهاء والتجار** يستعملون

(٥) انظر أدب الكاتب: ١٨٨.

(المباع) إلّا بمعنى (المبيع) وليس المعروض للبيع»! وبذلك يجعلون علماء اللغة ومَجامعَها تبعًا للمعاصرين من الفقهاء والتُّجار... وهم يقولون إنّهم لا يتأثّرون بالشيوع وكثرة الاستعمال.

وهل أصبح اللغويّون يقيسون أو يستأنسون بكلام المعاصرين من فقهاء وتجّار؟ ونحن نسمع كثيرًا من الفقهاء يلحنون! وأما التجّار فإن موقف أصحاب القرار من اللغويّين اليوم يذكرنا بقول أعرابيٍّ قديم: سبحان الله، التجّار يلحنون ويربحون. ونحن لا نلحن ولا نربح!! ويُروى أن أبا عمرو ابن العلاء دخل السوق فوجد أعدالاً مطروحة مكتوباً عليها (لأبو فلان) فقال: «يا ربّ يلحنون ويُرزقون!»[٦].

ومن يرجع منّا إلى كتب تراثنا اللغوي باحثاً فيه عن باع وأباع يجد:

١- أن الشافعي المتوفى سنة (٢٠٤هـ) فرّق بين باع وأباع، وقد استشهد اللسان بقوله، كما رأينا.

٢- أورد الأصمعي (٢١٦هـ) في «الأصمعيّات» قصيدة الأجدع بن مالك الهمداني، وهو جاهليّ أدرك خلافة عمر بن الخطاب، وفيها قوله:

تقفو الجياد من البيوت ومَن يُبع فرساً فليس جوادُنا بمباعِ

وعلّق المحققان الشيخ أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون بالقول: «تقفو: تتبع، يريد تختار. ومُباع: أباع الشيء أي عرضه للبيع»[٧].

(٦) القفطي: إنباه الرواة ٢/ ٣١٩.

(٧) الأصمعيّات، تح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ص٦٨-٦٩.

٣- قال ابن السكّيت (٢٤٤هـ) في «باب ما يُتكلَّم فيه بأفعلت ممّا يتكلّم فيه العامّة بفعلت» من كتابه «إصلاح المنطق»: «وقد أبعت الشيء إذا عرّضته للبيع، وقد بعته أنا من غيري. قال الهمداني:

فرضيت آلاء الكميت فمن يُبع فرساً فليس جوادُنا بمباعِ

أي بمُعرَّضٍ للبيع»[٨].

٤- وقال أبو حاتم السجستاني (٢٥٥هـ):

«ويقال: بعت الشيءَ إذا بعته واشتريته جميعاً، ومن ثَم قيل: «البيِّعان بالخِيار ما لم يتفرَّقا». وأما أبعت الشيء فعرضته لأنْ يُباع، وكذلك أقتلته وأضربته، أي عرَّضته للقتل وللضرب. قال[٩]: **ولا يقال أبعت بمعنى بعت**، ولكن عرضته للبيع. فقول الشاعر: فليس جوادنا بمباع، فهو ليس بمعرَّض للبيع. قال أبو عبيدة: أبعته: عرضته للبيع»[١٠].

٥- أن ابن قتيبة المتوفى سنة (٢٧٦هـ) قال في (باب أفعلت الشيءَ: عرَّضته للفعل): «أقتلت الرجلَ: عرّضته للقتل، **وأبعت الشيءَ: عرَّضته للبيع**. وأنشد:

فرضيت آلاء الكميت فمن يُبع فرساً فليس جوادنا بمُباعِ

أي بمعرَّض للبيع»[١١]. وتابع ابن قتيبة قوله:

---

(٨) إصلاح المنطق لابن السكِّيت، تح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ص٦٢-٦٣.

(٩) كثيراً ما يروي السجستاني قول شيخه الأصمعي بقوله: قال.

(١٠) كتاب فعلت وأفعلت لأبي حاتم السجستاني، تح: خليل إبراهيم العطية، طبع بمساعدة جامعة البصرة ١٩٧٩م، ص١٦٣-١٦٤.

(١١) ابن قتيبة، أدب الكاتب، تح: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ص٤٤٦.

«وقال الفرّاء (ت٢٠٧هـ): تقول **أبعت الخيلَ** إذا أردتَ أنك أمسكتها للتجارة والبيع، فإن أردت أنك أخرجتها من يدك قلت: بعتُها. قال: وكذلك قالت العرب: أعرضتُ العِرضان[١٢]، أي أمسكتها للبيع. وعرضتها: ساومت بها. فقِس على هذا ما ورد عليك».

٦- وكيف يكون (باع) بمعنى (أباع) على القياس، ولهذين البناءين معانٍ كثيرة مختلفة؟ وعلى أي معنًى بنينا القياس؟!

هل نقيس قسط على أقسط؟ وعثر على أعثر؟ وشكا على أشكى؟، بل انظر إلى ابن قتيبة في أدب الكاتب يعقد عشرة أبواب لذلك وأمثاله فيقول:

١- باب فعلت وأفعلت باتفاق المعنى.

٢- باب فعلت وأفعلت، باتفاق المعنى واختلافهما في التعدّي.

٣- باب أفعلت الشيءَ: عرّضته للفعل.

٤- باب أفعلت الشيءَ: وجدته كذلك.

٥- باب أفعلَ الشيءُ: حان منه ذلك.

٦- باب أفعلَ الشيءُ: صار كذلك، وأصابه ذلك.

٧- باب أفعلَ الشيءُ: أتى بذلك، واتّخذ ذلك.

٨- باب أفعلتُ الشيءَ: جعلت له ذلك.

٩- باب أفعلت وأفعلت بمعنيين متضادّين.

١٠- باب أفعل الشيءُ في نفسه، وأفعل الشيءُ غيرَه[١٣].

---

(١٢) العرضان: ج عريض، وهو من أولاد المعز الحوليّ، وقيل له عريض لأنه بلغ أن يعرض للبيع. وانظر حاشية التحقيق (٦) في ص٤٤٦ من أدب الكاتب.

(١٣) تجد هذه الأبواب وغيرها في أدب الكاتب ص٤٣٣-٤٥٣.

٧- أليس قول المجمعيّين إن جعل (أباع) بمعنى (باع) يعطي الفعل دلالة جديدة (كذا)، فلا يبقى بمعنى (عرض للبيع فقط)؟ هو الدليل على أنهم وجدوه بمعنى عرض للبيع، ولكنه (لخصوصيّته)! لا بأس أن يطمس الفرق بينه، وهو ذو المعنى الخاص، ليصبح لفعل (باع) الذي شاع وانتشر، ولا يختلف على معناه اثنان، ولسنا في حاجة إلى مرادف له؟!!

٨- جاء في معجم (الصحاح) للجوهري (نحو ٣٩٩هـ) (بيع):

«وأبعت الشيء: عرضته. قال الأجدع الهمداني:

فرضيت آلاء الكميت فمن يُبع فرساً فليس جوادنا بمُباعِ»

٩- وجاء في مختار الصحاح للرازي (٦٦٦هـ):

«ويقال للبائع والمشتري (بيِّعان) بتشديد الياء. وأباع الشيء: عرضه للبيع».

١٠- وقال الفيروزآبادي (٨١٧هـ) في قاموسه المحيط: (بيع)

البيِّع: البائع والمشتري. وأبعته: عرضته للبيع.

باعه يبيعه بيعاً ومَبيعاً: إذا باعه وإذا اشتراه، وهو مبيع ومبيوع، ولم يقل (مُباع) لأنها ليست من باع ولا بمعناها.

١١- وجاء في تاج العروس للزَّبيدي (١٢٠٥هـ): (بيع)

«البِياعة بالكسر: السِّلعة. ج بياعات، وهي الأشياء التي يتبايع بها والبيِّع كسيِّد: البائع والمشتري، ومنه الحديث: البيِّعان بالخيار ما لم يتفرَّقا». وأبعته إباعةً: عرضته للبيع. قال الأجدع بن مالك بن أميَّة الهمداني:

ورضيت آلاء الكميت فمن يُبع فرساً فليس جوادنا بمُباعِ

أي: ليس بمعرَّض للبيع، وآلاؤه: خصاله الجميلة. وابتاعه: اشتراه. يقال: هذا الشيء مُبتاعي، أي: اشتريته بمالي، وقد استعمله المصريون في كلامهم كثيراً، فيحذفون الميم [أي قالوا: بتاعي] ومنهم من أفرط فجمع فقال: (بتوعي) وهو غلط.

وانباع الشيءُ: نفق وراح، كأنه مطاوع لباعه.

ورجل بيوع كصبور: جيّد البيع. وبيّاع: كثير البيع.

وبيِّع كبيوع».

١٢- لم تهمل المعجمات المعاصرة دلالة (أباع) وأنها بمعنى عرض للبيع، وليست بمعنى (باع) وقد جاء ذلك:

في المعجم المدرسي للشيخ زين العابدين التونسي (ت١٩٧٧م): «أباع الشيءَ: عرضه للبيع».

وفي المعجم الوسيط: «أباعه: عرضه للبيع».

وفي المعجم المدرسي الذي أعدّه (محمد خير أبو حرب) وطبعته وزارة التربية السورية: «أباع الشيءَ إباعة: عَرَضه للبيع، فالشيء مُباع أي معروض للبيع.

وفيه: باعه الشيءَ: أعطاه إيّاه بثمن، فهو مبيع، وأباع إباعة: الشيءَ عرضه للبيع، فهو مباع. فالمبيعات لما بيع، والمباعات للمعروض للبيع».

وهكذا تكرر التفريق بين باع وأباع، وما ينبني عليه من التفريق بين المبيع والمباع، من عصر الفرّاء المتوفى سنة (٢٠٧هـ) إلى عصر معجماتنا المعاصرة كمعجم مجمع القاهرة (الوسيط) ومعجم وزارة التربية بدمشق (المعجم المدرسي). وكان قول الفرّاء نقلاً وشرحاً وتوجيهاً حين قال:

«تقول: أبعت الخيلَ، إذا أردت أنك **أمسكتها** للتجارة والبيع (أي أبقيتها عندك معروضة للبيع)، فإن أردت أنك **أخرجتها** من يدك، قلت: بعتُها».

فكان قوله تفسيراً وشرحاً وتفريقاً بين المعنيين.

وقال: «وكذلك قالت العرب» فنقل لنا ما قاله العرب. ثم قال موجِّهاً «فقِسْ على هذا ما ورد عليك».

وانظر ما أورده ابن السكّيت من أمثلة (أفعلت) الذي ينطقه العامَّة بـ(فعلت) مثل قوله: «أطرَدته: صيَّرته طريداً، وطردته إذا نفيته عنك»[١٤].

كيف نقيس (فعلت) من فعلٍ على (أفعلت) إذا كان الفعلان من جذر واحد، ونحن نعلم أن:

ثاب ليس بمعنى أثاب. وأتيته ليس بمعنى آتيته. وقدت الخيل ليس بمعنى أقدتها. وثنيت ليس بمعنى أثنيت. وسقيت ليس بمعنى أسقيت... وهكذا اختلفت المعاني لاختلاف المباني، وهذه صفة كان اللغويون يتنافسون في الوقوف عندها وبيان الفروق بين معانيها. ونحن اليوم أحوج منهم إلى بيانها والمحافظة عليها حرصاً على الدقّة في التعبير... ونحن أشدّ حاجة إلى الدقّة والتفريق بين الدلالات منَّا إلى الإكثار من المترادفات.

كيف نترك **آراء جمهرة اللغويين ونستأنس** بأقوال المعاصرين من غير المختصين ومن التجار وندّعي أننا لا نأخذ بالشيوع؟!

وكيف يرى علماء اللغة اليوم الاستئناس بآراء متأخري الفقهاء، وهم الذين نبّه النحويون إلى أنهم كثيراً ما يخطئون في اللغة فيضعون أداة مثل (أو) في موضع (أم)؟ وكيف يرون الاستئناس بتجّار اليوم، وقد ضجّ اللغويون والنحويون من تجّار عصورهم أيام أبي الأسود وتلامذته؟! وكيف

(١٤) إصلاح المنطق: باب ما يتكلم فيه بأفعلت مما تتكلم فيه العامة بفعلت.

يصحّ في أذهاننا وأفكارنا وقراراتنا أن نتخلَّى عمّا يثبت لدينا عن الشَّافعي (٢٠٤هـ) والفرّاء (٢٠٧هـ) والأصمعي (٢١٦هـ) وابن السكّيت (٢١٤هـ) والسّجستاني (٢٥٥هـ) وابن قتيبة (٢٧٦هـ) والرَّازي (٦٦٦هـ) وابن منظور (٧١١هـ) والفيروزآبادي (٨١٧هـ) والزَّبيدي (١٢٠٥هـ) وجاء عند المحدَثين في المعجم الوسيط، وفي معجمين مدرسيَّين؟!

ومن أجل ماذا؟ من أجل أن تكون عندنا كلمتان بمعنًى واحد، وقد كانتا بمعنيين متباينين في تراثنا اللغويّ، ونحن نشكو من الغنى في المترادفات ونشكو عدم الدقَّة في التعبير، بل نحن في حاجة إلى كلمات تكفل التعبير عن الأفكار اللطيفة والمعاني الدقيقة.

إن طبيعة اللغة نفسها هي التي تفرض على العاملين فيها المنهجَ الذي يلائمها، ويصلح لاستمرارها ورقيّها، وإبقائها مواكبة لمسيرة الحياة. وإن العربيّة تملك ثروة ضخمة من المترادفات، وقد تفجّرت العلوم اليوم وتفرّعت ودقَّت، وأصبحت في حاجة إلى كلمات تساير العلم، وتعبّر عن دقائقه، وفي العربيّة من ذلك ما يُدهش وما يُحقِّق كثيراً مما نحتاج إليه، من ذلك مثلاً أن العربية تضع لكل حركةٍ كلمةً تدلّ عليها، بل لكل جهة من جهات الحركة كلمة تدلّ عليها! أفنجعلها اليوم مترادفات لأنها جميعاً تدلّ على الحركة؟!

أليس للطائر المتحرك نحو اليمين اسم وللمتحرّك نحو الشّمال اسم آخر؟! بل أليست العربيّة أدقّ من ذلك حين تفرّق بين حركتي الرّحى، فتقول لمن يدير يده عن يمينه: إنه يطحن شَزْراً ولمن أدارها عن شماله: إنه يطحن بتًّا! كما رأينا[١٥].

على أن ذلك كله لا يحول دون توجيه الشكر إلى العاملين في الميدان

(١٥) انظر ما سبق في ص١٠ و١١.

اللغويّ، فالذي لا يخطئ هو الذي لا يعمل، وكلّ ابن آدم خطّاء، وما من أحدٍ منا اليوم معصوم... وقد دعا المجمع مشكوراً إلى المشاركة في ندوات تُناقش فيها قرارات المجمع في الألفاظ والأساليب، كما أعلن قبوله النقد والتعليق على قراراته، ودراسة كل ما يرد إليه وإلى لجانه من آراء وملاحظات، وإنّا لنأمل أن يرجع المجمع عن قراره لأن الرجوع إلى الحقِّ خير من التمادي في الباطل.

وينتهي القول بنا جميعاً إلى أن:

- باع الشيءَ: أَعطاه بثمن، وكذلك: شراه أي باعه. ومنه قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ ﴾ [٢٠] أي باعوه بثمنٍ قليل، وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧] أي يبيعها.
- وابتاع الشيءَ: اشتراه.
- وأباع الشيءَ: عرضه للبيع.
- والمَبيع: هو الذي بِيع، والجمع: المبيعات.
- والمُباع: هو الشيء المعروض للبيع، والجمع: المُباعات.
- والبيِّعان: هما البائع والمشتري.
- والبَيوع (كصبور): الجيِّد البيع.
- والبيَّاع: الكثير البيع.
- والبِياعة، بكسر الباء: السِّلعة. والجمع: بياعات.

وهكذا فباع وشرى بمعنًى، وابتاع واشترى بمعنًى.

ولكلٍّ من باع وأباع معنى مختلف، وكذلك لكلٍّ من المَبيع والمُباع. وهو الموافق لما جاء في الموثوق من كتب اللغة ومعجماتها.

* * *

المصادر والمراجع

- أدب الكاتب، ابن قتيبة، تح: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- إصلاح المنطق، ابن السكّيت، تح: أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر.
- الأصمعيّات، تح: أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، ١٣٦٩هـ-١٩٥٠م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون.
- تاج العروس، الزَّبيدي.
- الصحاح، الجوهري.
- القاموس المحيط، الفيروزآبادي.
- كتاب فعلت وأفعلت، الزَّجاج، تح: ماجد حسن الذهبي، الشركة المتحدة للتوزيع.
- كتاب فعلت وأفعلت، السجستاني، تح: خليل إبراهيم العطيّة، طبع بمساعدة جامعة البصرة، ١٩٧٩م.
- لسان العرب، ابن منظور.
- مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، م٨٨ ج٣.

- مختار الصحاح، الرَّازي.
- المعجم المدرسي، زين العابدين التونسي، ط٢، دار الفارابي، دمشق، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- المعجم المدرسي، محمد خير أبو حرب، وزارة التربية، دمشق، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة.

* * *

إكمال مادة لغوية

(٢)*

أ. د. ممدوح خسارة(**)

(حَكَم)

الحُكوُمة – الحاكِم – حَكَّم – المُحَكَّم = التَّحْكيم – الحاكِميَّة
المَحْكوم – المَحْكوميَّة – حَوْكَم – الحَوْكَمةَ – الحَكَامة – حاكَمَ
المُحاحَكمة – التَّحَكُّم – التحكُّميَّة
الاسْتِحكامات – المُسْتحكَمات – الحاكِمة.

ورد في المعاجم العربية المعاصرة(١) نحو واحدٍ وعشرين مَدْخلاً في مادة (حَكَم). ومما يلاحظ هنا أن الاستعمال اللغوي المعاصر أدخل كلمات جديدة لم تُثبِتْها المعاجم اللغوية القديمة ولا المعاصرة، مثل: الحاكِميَّة والحَوْكمه، أو أدخل دلالاتٍ ومعاني جديدة لمداخل قديمة لم

(*) ينظر المقدمة لهذه السلسلة من الأبحاث في الجزء ٨٩/ ٣ من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.
(**)عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.
(١) نعني بالمعاجم العربية المعاصرة مُعْجَمي مجمع القاهرة: المعجم الوسيط، وما صدر من المعجم الكبير.

تكن لها، مثل كلمة (الحُكومة) التي شاعت بمعنى الوزارة أو مجلس الوزراء، ولا يكاد الناس اليوم يفهمون (الحُكومة) إلا بهذه الدلالة المولَّدة. كما يلاحَظ أن عدد هذه المداخل أو الكلمات التي وُلِّدت وَفْق قواعد العربية وأقيستها يبلغ ما يقارب عدد المداخل المعجميَّة القديمة لهذه المادة اللغوية، ولا غنى لنا عنها اليوم في التواصل اللغوي العربي.

وكل المداخل أو الكلمات التي نقترحها إكمالاً لهذه المادة اللغوية لا تخرج عن الدلالات الأصلية الأربع التي قدَّم المعجم الكبير بها للجذر (حكم)، وهي: المنع، القضاء والفصل، الإتقان، الإصلاح والتهذيب.

والكلمات المداخل المقترحة هي:

١) **الحُكُومة**: وردت كلمة الحكومة في المعاجم بمعنى القضاء والفصل في الخصومات، «يقال: يَحْكُم حُكْماً وحُكومةً إذا قضَى». فالحكومَةُ هي الحُكْم. ولكنَّ (الحكومةَ) في الاستعمال اللغوي المعاصر هي: (الهَيْئةُ والسُّلطة التنفيذية العليا في الدَّولة وما يتبعها من إدارات وعاملين، وتُطلق على مجلس الوزراء). والشائع في السياسة أنَّ رئيس الحكومة هو رئيس مجلس الوزراء، أو رئيس الدولة وذلك بحسب نظام كل دَوْلة. وكثيراً ما تطلق كلمة (الوزارة) على مجلس الوزراء مجتمعاً.

لم يستعمل المعجم العربي المعاصر (الحكومة) بهذا المعنى؛ أي الوزارة أو مجلس الوزراء، بل ذكرها كلٌّ من المعجم الكبير والوسيط بالمعنى التراثي لها فقط، أي هي القضاء والفصل في الخصومات. مع أن المعجم الوسيط استعمل كلمة (الحُكُومة) بالمعنى الذي اقترحناه وقدمناه كقوله: «تقوم الحكومةُ ببعض المشروعات فتمولها وتستغلها». ولكنه لم يفرد لها مدخلاً مستقلًّا، وهي ما هي من كثرة الاستعمال والسلامة اللغوية.

٢) الحاكم: أورد المعجم الكبير كلمة الحاكِم بمعنى القاضي ومُنَفِّذ الحُكْم بين الناس، وورد في المعجم الوسيط: «الحاكِم: هو من نُصِّب للحكم بين الناس في الخصومات»[٢].

ولكن كلمة (الحاكِم) لم تعد تعني القاضي في المحاكم فحَسب، بل اكتسبت دلالات جديدة، ونقترح إضافتها إلى ما ورد، وهي:

- الشخص الذي يتولَّى رئاسة بلدٍ أو قيادته، ملكاً كان أو أميراً أو رئيساً أو شيخاً.
- مَن يتولَّى رئاسةَ ولايةٍ أو إقليم في بعض البلاد، مثل: (حاكِم ولاية كذا..).
- من يتولَّى رِئاسة المصرف المركزي في بعض البلاد، وهو قولهم (حاكم المصرف المركزيّ).

وتُجمَع الكلمة على (حُكَّام) ويلحظ أن (الحاكِم) بمعنى القاضي قد غابت في النصوص القانونية، ولا يكاد المشرِّعون يستعملون اليوم إلا كلمة (القاضي)، وربما يعود ذلك إلى شيوع كلمة الحاكم بالمعاني الجديدة التي ذكرناها.

٣) حَكَّم: جاء في المعجم الكبير: «حَكَّم: منَعَ ورَدَّ، وأَطلق يَدَه فيما شاء، وفَوَّض الحكمَ إليه، ومَنعَه مما يريد. وحكَّمَه في ماله: جعل إليه الحكْمَ فيه، وحكَّم القومُ فلاناً بينهم: أَجازوا حكمه بينهم»[٣].

ونرى أن الفعل (حكَّم) اكتسب دلالة جديدة وهي (قوَّم)، فثمة مجلَّات علمية أو دوريَّات متخصِّصة لا تَنْشر البحوث قبل تَقْويمها من خبيرَيْن مختصَّين أو أكثر. وهذا التقويم يعني أن الخبير حُكِّم في البحث وطُلِب إليه أن يحكم في صلوحه للنشر أو عدمه، وبهذا صار معنى (بَحْث مُحَكَّم) هو

(٢) مجمع القاهرة – المعجم الوسيط والمعجم الكبير: حكم.

(٣) مجمع القاهرة – المعجم الكبير: حكم.

(بحث محكومٌ فيه). وهذا الحكم لا يتم إلا بعد تقويمه لمعرفة مدى صحته وسلامته، أي صار يعني أنه (بَحْثٌ مُقوَّم)، وعلى هذا انزاحت دلالة (التحكيم) إلى (التقويم) على سبيل المجاز المرسل بعلاقة المُسَبِّبيَّة، لأن الحكْم على الشيء مُسَبَّب وحاصل من تقويمه.

وإذا اعتُرض على ما ذهبنا إليه، بأن (المحكَّم) صار بمعنى (المحكِّم) قلنا، نعم هو كذلك، لأن العرب جعلتهما كذلك، جاء في تاج العروس: «والمحكِّم كمحدِّث... هو الشيخ المجرَّب المنسوب إلى الحكمة، وغَلِطَ الجوهريَّ في فتح كافه، قال شيخنا: وجوَّز جماعةٌ الوجهَيْن [أي المحكِّم والمحكَّم]، وقالوا: هو كالمجرِّب، فإنه بالكسر للذي جرَّب الأمور، وبالفتح للذي جَرّبَتْهُ الحوادثُ، وكذلك المحكِّمُ حَكَّم الحوادِثَ وجَرَّبها»[٤].

ويلحظ كيف أن التاج قال: (حكَّم الحوادثَ) وهو نظير قولنا: (حَكَّم البَحْثَ)، وهو ما يُخطِّئه بعضهم بحجة أن المحكَّم هو العاقل فحسب، في حين أنَّ المحكَّم قد يكون لغير العاقل أيضاً.

٤) **المُحكَّم**: مادام قد ورد في التاج (حَكَّم الحوادثَ وجَرَّبها) بمعنى حَكَم بينها أو نظر إليها بعين الحكمة على حدِّ عبارته: «المحكِّم هو الشيخ المجرِّب المنسوب إلى الحكمة. وكذلك المحكَّم»[٥] وإذا جاز أنَّ كلمة (حكَّم) اكتسبت دلالة (قوَّم)، فإن ممّا يصح معه أن نُطلق كلمة المحكَّم أو المحكِّم على من يُقوِّم صلاحيَّة أَمْر أو بَحْث أو مقال.

٥) **التَّحكيم**: إذا جاز قبولُ (حكَّم البحثَ) بمعنى قوَّمه فليس ما يمنع من قبول كلمة (التحكيم) بمعنى التَّقْويم، ويكون قولنا: نُشِر البحث بعد

(٤) الزبيدي - تاج العروس: حكم.

(٥) الزبيدي - تاج العروس: حكم.

تحكيمه بمعنى نُشِر بعد تقويمه لمعرفة صلاحيَّته للنشر أو عدمها.

ونخلص مما سبق إلى اقتراح مداخل ثلاثة في مادة حكم هي:

- حَكَّم البحثَ: قَوَّمه لمعرفة صلاحه من عدمه.
- التحكيم: تقويم بحث أو عمل لمعرفة صلاحه من عدمه.
- المحكَّم والمحكِّمُ: من يقوِّم بحثاً أو عملاً.

٦) **الحاكِميَّة**: لم ترد كلمة الحاكمية في المعاجم القديمة، اللهم إلا ما ورَد وصفاً لمقياسٍ (القصَبَة): «ثم أحدثُوا قَصبَةً حاكِميَّة طولها ستة أذرع ورُبُع سدسٍ بالذراع المصري»[٦]، وكأَنهم يعنون بها قصَبَة عامَّة يُحتكَم إليها في القياس، ولعلها نسبةٌ إلى الحاكِم بأمر الله أو غيره.

والحاكِميَّة مصدرٌ صناعيّ من الحاكِم، وهي توليد معاصرٌ بالاشتقاق، ويعنون بها منصبَ الحاكم أو وظيفتَه أو لقبَه الوظيفيّ[٧]، ولكنَّ بعض المذاهب السياسيَّة طوَّرت دلالةَ هذه الكلمة، فصارت تعني: السُّلْطةَ والمشروعيَّةَ العليا التي تحكم أيَّ دولة، أو مَرْجِعيَّةَ الحكم وطريقته»[٨]، قد تكون الحاكميَّة وضعيَّة بشريَّة عند بعضهم كأن يُقال: الحاكميَّة للشعب أو للملك، أو دينيَّة عند بعضهم الآخر كأن يُقال: الحاكِميَّة أو السلطة العليا هي للشرع.

وعلى هذا نقترح أن يُضاف إلى المعجم العربيّ مدخل (الحاكِميَّة) بمعنيَيْن:

الأول: مرجعيَّةُ الحُكْم ومصدره، أو السلطة العليا والسلطة المطلقة.

الثاني: مَنْصبُ الحاكِم أو وظيفتُه أو لقبُه الوظيفيّ.

٧) **المَحْكوم**: هو اسم مفعول من (حُكِم عليه)، وهو صفة في الأصل،

---

(٦) الزبيدي – تاج العروس: قرط.

(٧) أحمد مختار عمر – معجم اللغة العربية المعاصرة: حكم.

(٨) علي نايف الشحود – موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة ٣٦: ٣٥٤...

يوصف بها الشخص الذي أُدين بـذَنْب، وحُكِـمَ عليـه بعقوبـةٍ جـزاءَ خطئـه. ولكنَّ هذه الصفة غلبت عليها الاسمية، أي تحوَّلَـت إلـى الاسـمية فصـارت تُستعمل دون موصوفها كالأسماء تماماً، فصـار (المحكـوم) هـو الشـخص المعاقَـب بسـجن أو غرامـة. فـإذا كانـت كلمـة المحكـوم - صـفةً - تعنـي الشخص المضـطر والمُلـزَم كـأن يكـون مَحكومـاً بالحاجـة أو الضـرورة أو المرض، فإن المحكوم - اسماً- يعني مَن حَكَـم عليـه القاضـي بعقوبـةٍ مـا، فيقال: قَبِل المحكومُ الحكـمَ أو اسـتأنف المحكـومُ الحكـمَ، لـذا يُقتـرح أن تُجعل كلمة (المحكوم) مدخلاً لغويًّا مستقلًّا بالمعنى الذي ذكرناه لتمييزهـا من معنى الوصفية.

٨) **المَحْكُوميَّة**: هي نسبة إلى المحكوم به من عُقوبةٍ على المـذنب، أي ما أَوْجَبه القاضي عليه من الجزاء، وذلك نظير قولهم (المظلوميَّة) بمعنى مـا ظُلِم به فَرْدٌ أو جماعة على امتداد زمنٍ ما، التي استعملها الفخـر الـرازي فـي عبارته: «فالإنسان المقتول ما لم يكن كاملاً في وصف المظلومية لـم يـدخل تحت هذا النص»[٩].

يقترح إضافة هذه الكلمة مدخلاً مسـتقلًّا بمعنـى العقوبـة التـي أوجبهـا القاضي على المذنب، فقولنا: قضى السجين محكوميَّته أَوْضحُ لبيان المـراد من قولنا: قضَى السجينُ حُكْمَه، وقد شاعت لهذه الدلالة.

٩، ١٠) حَوْكمَ والحَوْكَمة:

الفعل (حَـوْكمَ) مُلْحَـق بالربـاعي المجـرَّد بزيـادة حـرفٍ علـى الثلاثـي المجرد حَكَم، وبناؤه (فَوْعَل) الذي جاء عليه نحو (٦٧) سبعة وسـتين فعـلاً في العربية منها (صَوَمَع البناءَ) إذا جعَل له صومعةً، و(هَوْجَل الرجلُ) إذا نام

(٩) فخر الدين الرازي – مفاتيح الغيب – التفسير الكبير ٢٠: ٣٣٥.

نومةً خفيفةً[١٠]، وقد صار المحدَثون يصوغون على هذا البناء أفعالاً من جذور أو كلمات عربية أو معرَّبة كقولهم: (حَوْسَب) اشتقاقاً من حسب أو أخذاً من الحاسوب وقولهم: (قَوْنن) أخْذاً من القانون. لم يُذْكَر هذا الفعل ولا مصدره (حَوْكَمة) في المعاجم العربية القديمة ولا المعاصرة. ويستعمل القانونيون والاقتصاديون هذا الفعل ومصدره بمعنى (التحكيم الاقتصادي أو المالي) عند وقوع منازعات بين شركاتٍ أو مؤسَّسات. وعلى هذا يصبح معنى (حَوْكَم النزاعَ: أحاله على لجنة من الخبراء للحكم والفصل فيه. ويكون معنى (الحَوْكَمة) هو إحالة النزاع أو الخلاف الاقتصادي أو المالي ونحوهما إلى لجنة من الخبراء لبحثه ودراسته والحكم فيه لمصلحة طرفٍ أو بتحميل كلٍّ من الطرفين نسبةً من المسؤولية أو التَّبعة.

ومما يجدر ذكره أن مجمع القاهرة أقرَّ كلمة (الحَوْكَمة) بمعنى وَضْعِ ضوابط ومعايير تحكم تصرُّفات المسؤولين داخل المؤسسات والشركات، مع المتعاملين معها في الداخل أو الخارج[١١].

وبناءً على ما مَرَّ يقترح إضافة المدخلَيْن الآتيَيْن:

- حَوْكم = أ- حَوْكمت الشركتان نزاعهما: أحالتاه على لجنة من الخبراء للحكم فيه أو تسويته.

ب- وَضْع ضوابط ومعايير تحكم تصرفات المسؤولين داخل المؤسسات والشركات، مع المتعاملين معها في الداخل والخارج. وهو ما أقرَّه مجمع القاهرة. على أن مُعْجمي المجمع الوسيط والكبير لم يجعلاها مَدْخلاً فيهما.

---

(١٠) مجمع دمشق، معجم دلالات الأبنية في العربية: ٤١ (في قيد الإعداد).

(١١) مجمع القاهرة – كتاب الألفاظ والأساليب ٤: ٢٩٩.

- الحَوْكَمة: إحالة النزاع المالي أو الاقتصادي على لجنة أو هيئة من الخبراء للحُكْم فيه أو تسويته.

١١) **الحَكَامة**: أوردَت المعاجم الفعل (حَكُم) على بناء (فَعُل)، وذكرت له مصدراً هو الحُكْم، جاء: «حَكُم فلانٌ يَحْكُم حُكْماً: صار حكيماً»[١٢].

ولكنَّ ما هو معروف في علم الصرف أن مصدر (فَعُل) الذي يفيد معنى الصيرورة والمآل يأتي غالباً على بناء (فَعَالة)، من مثل فَصُح فصاحةً وبَلُغ بلاغة وقَبُحُ قباحة[١٣]، وعلى هذا تكون (الحَكامة) أَلْيَقَ وأقيسَ للفعل (حَكُم)، ويصبح قولنا: حَكُم الرجل بمعنى صار حكيماً؛ أي صاحب حِكْمَة، التي من معانيها العِلمُ بحقائق الأشياء والعمل بمقتضاها، والإصابةُ في القول والعمل. والحَكامة مصدرٌ يعني صَيْرورة الأمر إلى الحكمة والصواب.

ونرى أن (الحَكَامة) يمكن أن تُطْلَق على ما يُسَمَّى الآن (الحُكْم الرشيد) الذي يتكرر في تقارير التنمية البشرية والإنسانية، فيصبح قولنا: (الحَكامَةُ من معايير التنمية البشرية وتقدُّم الدول) يعني الحُكْم الرشيد، القائم على تحقيق العَدل والتعليم والحرية ونحوها من متطلبات التقدُّم والحياة الفُضْلى. ومعروف أن من معاني الحكيم العَدْل[١٤]. فالحكَامة يمكن أن تدلَّ على صلاح الحكم، لأن من أصول دلالات مادة (حكم) الصلاح والإتقان، وهذا ما يرمون إليه عند استعمالهم عبارة الحُكْم الرشيد. وهو الحكم الصالِح.

١٢) **حاكَمَ**: لم تورد المعاجم القديمة الفعل (حَاكَم)، ولكن المعاجم

(١٢) مجمع القاهرة – المعجم الكبير – حكم.

(١٣) الحملاوي – شذا العرف في فن الصرف: ٥٧.

(١٤) مجمع القاهرة – المعجم الكبير: حكم.

المعاصرة ذكرته، جاء: «حاكَمَهُ: استْجوَبَه، ودعاه إلى الحاكِم وخاصَمَه إليه»[١٥]. ولكنَّ الاستعمال الشائع الآن هو مثل قولهم: (حاكَمَ المسؤولُ الأمورَ أو المُشْكلات برويَّة)، ويعنون به: تَفَهَّم الأمورَ والمشكلات وناقَشَها ووازَن فيما بينها بتعقُّل وتدبُّر التماساً لمعرفة الأصلح والأصوب وطلباً للحِكمة. ولذا نقترح إضافة المدخل الآتي في مادة (حكم):

- حَاكَم = حَاكَم الأمور أو المسائل: تَفَهَّمها وناقشها بتعقُّل وتدبُّر التماساً للأصوب والأحكم.

١٣) المُحاكَمة: هذه الكلمة هي مصدر الفعل (حاكَمَ) الذي تقدَّم، وقد وردت هذه الكلمة في المعاجم القديمة كما يلي:

- «المُنَاهبة: وهي المحَاكمَة[١٦] بمعنى المُراهنة والمفاخرة».
- «والمفُاتاة والتفاتي: المُحاكمة»[١٧]، والتفاتي هو طَلَبُ الفُتيا.

وفي المعاجم المعاصرة لم تُذكَر (المُحَاكمة) مدخلاً، بل ذُكر فعل هذا المصدر بمعناه القديم وهو: «حاكَمَ المذنبَ: استجوبه فيما جناه... وحاكَمَه إلى الحاكم دعاه وخاصَمَه إليه.. وحاكَمه إلى القرآن: دعاه إلى حُكمه»[١٨].

وإذا كانت المعاجم لم تَذكر هذه الكلمة مدخلاً فلها عذرها في ذلك، لأن المعاجم لا تذكر ما هو قياسيّ وإنما تتركه للقارئ. ولكن كلمة (المُحاكَمة) صار لها معنى جديد هو مصدر الفعل (حَاكَم الأمورَ) بمعنى تفهمها وناقشها للوصول إلى الأصوب والأَحكم. وعلى هذا فقد صار

(١٥)مجمع القاهرة – المعجم الكبير: حكم.

(١٦) ابن منظور – لسان العرب: نحب، نافر.

(١٧) الزبيدي – تاج العروس: فتي.

(١٨) مجمع القاهرة – المعجم الكبير: حكم.

للمحاكمة معنى معاصر هو: إعمال النظر والعقل في المسائل والأمور ومناقشتها والموازنة فيما بينها التماساً للأصوب والأحكم، وهو ما تدعو إليه الحِكْمة. وقد شاعت عبارات كثيرة في تقويم الأشخاص من مثل: (فُلان قويُّ المحاكمة، وفلانٌ ضعيف المُحاكَمة)، يريدون أنه يُحْسِن أو لا يحسن تفهُّم الأمور ومناقشتها لاستنتاج الأصلح والأحكم.

لذا نقترح إضافة المدخل الآتي في مادة (حكم):

- المُحاكَمة: إعمال النظر والعقل في الأمور والمسائل ومناقشتها والموازنة فيما بينها التماساً للأصوب والأصلح والحكمة فيها.

١٤) **التَّحَكُّم**: التحكّم هو مصدر الفعل (تحَكَّم)، ومعناه التصرُّف في الشيء أو الأمر وَفق إرادة الشخص، ومَّما جاء في المعجم: «تحكَّم فلانٌ في كذا: فَعَل ما رآه، ويُقال: تحَكَّم في الأمر»[١٩] وواضحٌ أن الفعل تحكَّم هو مطاوع الفعل (حَكَّم) بمعنى احْتَكم في الأمر أي «تصرَّف فيه بإرادته»[٢٠] وجاء أيضاً: «التحكُّمُ - في استعمال العلميِّين - ضَبْطُ الشيء والسيطرة عليه وتوجيهه على نَحْوٍ معيَّن، ويقال أيضاً: مركز التحكُّم وجهاز التحكُّم»[٢١].

وأرى أن هذا المصدر - تَأسيساً على ما سبق - يمكن أن يُقابَل به في عصرنا المصطلح الأجنبي (control) الذي يُستَعمل في أقسام الامتحانات في كثير من المدارس والجامعات العربية في قولهم، (لجنة الكنترول)، وفي حَقْل الإذاعة والتلفزة.

يُستعمل هذا المصطلح الأجنبي، للدلالة على اللجنة أو المركز

(١٩) مجمع القاهرة – المعجم الكبير: حكم.

(٢٠) المصدر السابق نفسه.

(٢١) المصدر السابق نفسه

المكلَّف بالمراقبة والضبط والتوجيه. وعلى هذا فإنني أقترح إضافة ما يلي إلى مادة (حكم) في المعجم العربي المعاصر:

- التحَكُّم = (لجنة التحكُّم أو مَرْكز التحكُّم): لجنة إدارية أو فنيَّة مهمتها مراقبة العمل وضبطه، يُقال: لجنة تحكُّم الامتحانات، وإن كان الأصل: لجنة تحكُّم في الامتحانات، أو مركز تحكُّم البثّ.

١٥) **التحكُّميَّة**: وهي مصدر صناعيّ من (التَّحكُّم) الذي هو مصدر الفعل (تحَكَّم) «والتحكُّم – في استعمال العلميين – ضَبْطُ الشيء والسيطرة عليه وتوجيهه على نحوٍ معيَّن، ويقال أيضاً: مركز التحكُّم وجهاز التحكُّم»[٢٢].

ونرى أن هذا المصدر الصناعي (التّحَكُّميَّة) يمكن أن يضاف مدخلاً جديداً إلى المعجم للدلالة على ما يؤديه مفهوم المصطلح الأجنبي (روبوتنغ). وكان كثير من المترجمين والكتاب قد أطلقوا اسم (الإنسان الآلي أو الإنسال) ترجمة للمصطلح الأجنبي (روبوت). لكنَّ (الروبوت) هو واحدٌ من إنجازات علم جديد ودقيق هو (نُظُم التحكُّم)، لأن هذا العلم يتيح للعالم أو المهندس والتّقاني إمكان التصرُّف في الآلة كما يشاء من تشغيلٍ أو توجيهٍ سواء أكانت الآلة إنساناً آليًّا أم طائرةً أم قمراً صناعيًّا... والكلمة بهذه الصيغة تشبه مصطلح (المعلوماتيَّة). الذي هو مصدر صناعي أيضاً من (المعلومات) بمعنى تقانة الحواسيب والاتصالات ونحوهما. وعلى ما تقدَّم نقترح أن يضاف مدخل جديد إلى مادة (حكَم) فيقال:

- التحكميَّة: علم أنظمة التحكُّم الآلي أو الذاتي.

١٦، ١٧) **الاستِحْكامات والمُسْتَحْكَمات**: الكلمة الأولى جمع المصدر (استحكام)، والثانية جمع المصدر الميمي أو اسم المكان مُسْتحْكَم، وتُطلَق

(٢٢) مجمع القاهرة – المعجم الكبير: حكم.

اليوم في الميدان العسكري على التحصينات التي يقيمها الجيش مراكز للدفاع أو للانطلاق إلى هُجوم، يقال: (أقمنا على الجبهة استحكامات قويَّة). ويلحظ هنا أن المصدر قد استُعمل للدلالة على المكان، وهذا من أساليب العربية في التعبير، إذ يُطلق المصدر ويراد به مكانه، وهو ضَرْب من ضروب المجاز المرسل، مثال ذلك (المَعاش) هو مصدر عاش، وهو أيضاً «مكان التماس العيش»[٢٣]، و(البَيْت) هو مصدر الفعل بات يبيت[٢٤] بمعنى أقام ليلاً، ونزل بالبيت، وهو أيضاً مكان البَيْت أي المبيت. هذا عن الدلالة الصرفية، أما الدلالة المعجمية اللغوية فإن من معاني (الاستحكام) التَّوثُّق من الشيء، جاء في المعجم «استحكَمَ الأمرُ: وَثُق»[٢٥] «واستحكم الشيءُ والأمرُ: احْتَكَم.... واحتكم الشيءُ تَوثَّق وصار مُحْكَماً»[٢٦]، وتحصين الموقع يجعل الجنديّ واثقاً من قدرته على الدفاع، لأنه يمكِّنه من مراقبة العدوّ والاحتراس منه، وقد أورده معجم اللغة العربية المعاصرة[٢٧].قال «اسْتِحكام: تحصين: أقام الجيش استحكامات حول جبهة القتال». على أن بعض المعاجم المعاصرة أوردت المُستحكَم والمستحكَمات بمعنى (مَوْقِع دفاعيّ حصين)، وهو كما يرى اسم مكان من (اسْتَحكم) ذلك أن الجندي يتوثق فيه من سلامة موقعه.

وعلى ذلك نقترح أن يُضاف إلى المعجم العربي المدخلان الآتيان:

---

(٢٣) مجمع القاهرة – المعجم الوسيط: عاش.

(٢٤) الزبيدي – تاج العروس: بيت.

(٢٥) ابن منظور – لسان العرب: حكم.

(٢٦) قد يكون بعض ما نستكمله من مداخل ممَّا ورد في معاجم معاصرة قيِّمة كمعجم اللغة العربية المعاصرة للدكتور أحمد مختار عمر وفريقه. واقتراحنا إياه إنما يرمي إلى استدراكه في المعاجم المجمعية المُجْمَع على مرجعيتها غالباً.

(٢٧) أحمد مختار عمر وفريقه – معجم اللغة العربية المعاصرة: حكم.

- الاسْتِحكامات: جمع اسْتِحكام، وهي التحصينات العسكرية من خنادق أو متاريس ونحوها.
- المُسْتَحْكَمات: جمع مُسْتَحكَم، وهو الموقع الدفاعيّ المحصَّن.

١٨) **الحاكِمة = (مَواقع حاكِمة)**: لم تورد المعاجم القديمة كلمة (الحاكِمة)، ولكن بعض المعاجم المعاصرة أوردت (الحاكمة) صفةً في تراكيب مثل: السلطة الحاكمة، والأسرة الحاكمة والطبقة الحاكمة[٢٨]، ولكنْ شاع في الاستعمال اللغوي العسكري عبارة (مواقع حاكِمة أو نقاط حاكمة)، وتعني أماكن عالية غالباً مشرفة على مواقع العدوّ، أو مواقع على مُفْتَرقِ طُرَق أو مداخِلِ مُدُن، ويستطيع الجيش فيها تحقيقَ السَّيطرة الناريّة على العدو أو تقييدَ حركته أو إضعاف فعَّالياته، والكلمة اسم فاعل من (حكم) بمعنى مَنَع، جاء في المعجم: وحَكَم فلاناً: مَنَعه عما يريد وردَّه[٢٩]، ولذا يقترح أن يضاف إلى المعجم المدخل الآتي:

- الحاكِمة = (مواقع حاكِمة): مواقع عسكريَّة مهمَّة تحقِّق سيطرةً على مواقع العدو وتمنعه من التقدُّم أو تعيقه.

خلاصة البحث:

ثمة كلمات معاصرة صحيحة مشتقَّة من مادة (حَكَم) خلَتْ منها المعاجم العربية، أو ذَكرت لها دلالاتٍ قديمة اكتسَبْت الآن دلالات جديدة. وضرورةُ التواصل اللغوي، ومطلبُ تحديث معجمنا العربي يقتضيان إيرادها في المعجم العربي المعاصر مَداخِلَ مستقلَّة، إكمالاً لهذه المادة اللغوية التي ذُكر بعضها، ولم يُذْكر بعضها الآخر.

---

(٢٨) أحمد مختار عمر وفريقه – معجم اللغة العربية المعاصرة: حكم.

(٢٩) مجمع القاهرة – المعجم الوسيط: حكم.

وهذه الكلمات المداخل ودلالاتها المستجدة ثماني عشرة كلمة، وهي:

١ - الحكومة: الهيئة أو السلطة التنفيذية العليا في الدولة، وما يتبعها من إدارات وعاملين، وتُطلق على مجلس الوزراء.

٢ - الحاكِم: أ- الشخص الذي يتولَّى رئاسة بلد أو قيادته، ملِكاً كان أو أميراً أو رئيساً أو شيخاً.

ب- من يتولَّى رئاسة إقليم أو ولاية في بلدٍ، (حاكم ولاية كذا).

ج- من يتولَّى رئاسة المصرف المركزي في بعض البلاد، (حاكم المصرف المركزي).

٣- حكَّم: قوَّم بحثاً أو مقالاً أو عملاً لمعرفة مدى صلاحه من عدمه.

٤ - المُحَكَّم: من اختير ليقوِّم بحثاً أو مقالاً أو عملاً.

٥ - المحكَّم والمحكِّم: من يقوِّم بَحثاً أو مقالاً أو عملاً.

٦ - التَّحْكيم: تَقْويم بحثٍ أو مقال أو عملٍ ونحوها.

٧- الحاكِميَّة: أ- مرجعيَّة الحُكْم ومصدره، (الحاكِميَّة للشرع، الحاكِميَّة للشعب).

ب- السُّلطة العليا والسلطة المطلقة.

ج- مَنْصِب الحاكِم ووظيفته.

٨- المَحْكوم: الشَّخص المُعاقَب بسجنٍ أو غرامة.

٩- المَحْكوميَّة: العُقوبة التي أَوْجَبَها القاضي على المُذْنِب، (قضى السجينُ محكوميَّتَه فأُطلق سراحُه).

١٠- حَوْكَمَ: أ- أَحال النِّزاعَ على لجنة من الخُبَراء للحُكْم فيه أو تسويته.

ب- وَضَعَ ضوابط ومعايير تَحْكُم تَصرُّفات المسؤولين داخل المؤسَّسات والشركات، مع المتعاملين معها في الداخل والخارج.

١١- الحَوْكَمة: إحالة النِّزاع الماليّ أو الاقتصاديّ على هيئة أو لجنة من الخبراء للحكم فيه أو تسويته.

١٢- الحَكامة: صَلاحُ حُكْمِ الدولة وقيادتِها، والحُكْم الرشيد، أو القيادة الرشيدة لدولة.

١٣- حاكَمَ = (حاكَمَ الأمور والمسائل): تفهَّمَها وناقشَها بتعقُّل وتدبُّر التماساً للأصوب والأصلح.

١٤- المُحاكَمة: إعمال النَّظر والعقل في الأمور ومناقشتُها والموازنة فيما بينها التماساً للأصوب والأصلح.

١٥- التَّحَكُّم: (لجنة التحكُّم): لجنة إدارية أو فنيَّة - أو مركز - مُهمَّتهما مراقبةُ العمل وضبطُه، يقال: لجنة تحكُّم الامتحانات، لجنة تحكُّم البث.

١٦- التحَكُّميَّة: عِلْم أَنْظِمة التحكُّم الآليّ أو الذاتيّ.

١٧- الاسْتِحكامات: التَّحصْينات العسكرّية من خنادق ومتاريس ونحوها. واحدها (اسْتِحْكام).

١٨- المُسْتَحْكَمات: الموقع الدِّفاعّي المحصَّن. واحدها (مُسْتَحكَم).

١٩- الحاكِمة = (مواقِع حاكِمة): مواقع عسكرية مهمَّة، تحقِّق سيطرةً على مواقع العدو تَمْنع تقدُّمه أو تعيقه.

وغنيٌّ عن الذكر أن هذه اجتهادات ومقترحات أضعها بين يدي المؤسسات اللغوية وصُنَّاع المعاجم العربية للإفادة منها إذا رأوا في ذلك إغْناء للمعجم العربي وتحديثاً.

(اللهم علِّمنا ما يَنْفع وانفَعْ بما علَّمْتنا)

المصادر والمراجع

- البلاغة العربية - عبد الرحمن حبنكة - دار القلم - دمشق، والدار الشامية - بيروت- ط١ - ١٩٩٦.
- تاج العروس - الزبيدي/ معجم.
- شذا العرف في فن الصرف - الحملاوي - تح: نصر الله عبد الرحمن نصر الله - مكتبة الريا.
- كتاب الألفاظ والأساليب - مجمع القاهرة.
- لسان العرب - ابن منظور/ معجم.
- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) - الرازي - دار إحياء التراث العربي، بيروت - ط٣، ١٤٢٠هـ.
- المعجم الكبير - مجمع القاهرة.
- معجم اللغة العربية المعاصرة - د. أحمد مختار عمر وفريقه - عالم الكتب - ط١.
- معجم دلالات الأبنية في العربية - مجمع اللغة العربية بدمشق - في قيد الإعداد.
- المعجم الوسيط - معجم القاهرة.
- موسوعة الردّ على المذاهب الفكرية المعاصرة - جمع وإعداد علي بن نايف الشحود/ عن المكتبة الشاملة.

* * *

آليات الدماغ في اكتساب اللغة وتوليدها

أ.د. لبانة مشـوِّح(*)

المقدّمة:

يتميّز الدماغ البشري عن سائر أدمغة الفقاريات عامة والثدييات خاصة بوجود قشرة حديثة للدماغ واسعة البِنية ومعقدة التركيب، وهذا الأمر يجعله يشكِّل مركزاً لعمليات عقلية رفيعة، فهو مركز الذاكرة، والذكاء، والإدراك التجريدي، وتوليد الأفكار وصياغتها(١)، إلى جانب اضطلاعه بوظائف الاستقبال الحسّي المعروفة.

تشكِّل العلاقة بين اللغة والفكر، وفرضية اضطلاع الدماغ البشري بوظيفة «توليد اللغة» أساس وجوهر اللسانيات التوليدية التحويلية التي أطلقها عالم اللسانيات الأمريكي (نوام تشومسكي) في خمسينيات القرن العشرين(٢). وقد أكّدت البحوث والدراسات التي أجريت في مجال اللسانيات التوليدية والعلوم

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) انظر: هاني رزق، العقل والدماغ البشري، ٧١-٧٤.

(٢) العالم اللغوي نوام تشومسكي، أستاذ علم اللغة واللغات الحديثة في معهد ماساتشوستس للتكنولوجية. وهو من مواليد فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا عام ١٩٢٨، بدأ بدراسة علم اللغة التاريخي على يد أبيه الذي كان عالماً باللغة العبرية، واهتم في مرحلة دراسته الجامعية بالتراث النحوي العربي والعبري، كما درس ما يطلق عليه تجاوزاً اللغات السامية على يد المستشرق فرانز روزنتان. وتَلْمَذَ عند زهاريس.

الجينية والطبية العصبية وجود تلك الصلة الوثيقة بين الدماغ البشري واللغة، توافقت نتائج تلك البحوث مع ما خلصت إليه دراسات قديمة أجراها في القرن التاسع عشر كل من الطبيب (بول بروكا)، ثم في منتصف القرن العشرين (روجير سبيري) من أن الفص الدماغي الأيسر مسؤول عن المنطق والتجريد والتحليل، وبالتالي عن الآلية اللغوية اكتساباً وتعلّماً، في حين أن الفصّ الدماغي الأيمن يختص بالعمليات المرتبطة بالحدس والجمال والتخيّل وتحليل الصور والتذوّق الموسيقي[٣].

هدفنا في هذا البحث أن نشرح الفلسفة التي يقوم عليها النحو التوليدي مبيّنين التيارات اللسانية التي تأثر بها وتميَّز عنها كالعقلانية والبِنيوية والسلوكية، وأن نعرض للمفاهيم الأساسية التي انطلق منها، وعلى الأخص مفهومي الكليّات والجزئيات اللغوية، لنخلص إلى أنها، على عكس ما تبدو، مفاهيم متكاملة متجانسة لا تعارض بينها ولا تنابذ. كما سنبيّن العروة الوثقى بين «الكليّات اللغوية» و «الكفاية اللغوية»، شارحين بعض الآليات الذهنية التي يفرضها الدماغ وتشكّل بالنسبة للتوليديين الأساس في اكتساب اللغة وتوليدها، وانتقالها من الكفاية اللغوية الذهنية إلى الأداء اللغوي الفعلي عبر عمليتي التحليل والتركيب.

التوليدية والبنيوية الشكلانية:

امتازت اللسانيات التوليدية بوقوعها على مفترق طرق التيارات اللسانية

(٣) للتعرّف بتفاصيل النتائج التجريبية التي توصّل إليها سبيري، انظر:

Erdmann, E, Stover, D, (1991), Beyond a World Divided : Human Values in the Brain-, ind Science of Roger Sperry.

وثمّة بحوث ومقاربات تهدف إلى تطوير أساليب تعليم اللغات استندت إلى هذا التقسيم تحديداً، آخذة في الحسبان مدى تطوّر الفص الدماغي الأيمن أو الأيسر عند المتعلّم.

المعاصرة؛ فقد وُلدت التوليدية من رَحِمِ بِنيوية عالم اللسانيات (زيليغ هاريس)، أستاذ (تشومسكي)، وأحد أقطاب المدرسة اللسانية التوزيعية التي كان رائدها عالم اللسانيات الأمريكي (ليونارد بلومفيلد)، والتي قامت على الشكلية والوصفية المقارنة في دراسة التراكيب اللغوية. ولقد شكّلت هذه المدرسة التي تُعرف بالسلوكية behaviourism إحدى الركائز الأساسية للتوليدية.

اتفقت التوليدية مع التوزيعية الشكلانية في أهمية النظر في سياق الكلمة وأماكن توزّعها في الجملة. كما أنها حذت حذوها في تحليل الجملة إلى مكوِّناتها الأساسية. لكنها تجاوزتها بأشواط في أسلوب تحليل الجملة، فعمدت إلى تحليلها إلى مكوِّناتها المباشرة وصياغتها صياغة هندسية، في علاقة شجرية هرمية تتربَّع الجملة فيها على رأس المشجّر التركيبي، ثم تتفرّع إلى عقدٍ ففروع فأغصان، لينتهي مشجّر الجملة البِنيوي عند أصغر الكلمات الدّالة على معنى فيها.

من جهة أخرى، أنكرت التوليدية ما ذهب إليه أتباع التوزيعية الشكلانية من أنَّ اللغة عادة من العادات تكتسَب بالمحاكاة والتجربة والقياس؛ فرأت أنها وليدة عمليات ذهنية، وانصرفت إلى محاولة الكشف عن محرِّكات الكلام الذهنية والنفسية، فاقتربت في هذا الجانب الفلسفي الذهني من أصول النحو العربي. وسنورد في سياق هذا البحث أدلّة على أن اللغة لا تكتسَب بالمحاكاة، بل هي وليدة عمليات دماغية إبداعية تحفِّزها المدخلات التي تمدُّ بها البيئةُ اللغوية الدماغ؛ فهي من اللغة البيئة الحاضنة والتربة الخصبة المغذّية، بدونها لا تورق أغصان المشجّر اللغوي البنيوي براعم وأزاهير،ولا تثمر كلاماً ينبئ عن فكر ويمدّ حبال تواصل.

تلتقي اللسانيات التوليدية والمدرسة التوزيعية الشكلانية في أنها لم تجعل

دراسة المعنى شغلها الشاغل، بيد أنها لم تقصِه في دراستها لقواعد الجملة؛ فقد اتّبع (تشومسكي) منهجاً علائقيًّا relationnel لمكوِّن الجملة الدلالي تجلّى في الفصل التام بين القرينة الإعرابية والقرينة الدلالية؛ فعلامة الرفع في اللغة العربية لا ترتبط بقرينة دلالية معيّنة، وكذا علامة النصب؛ فترى نائب الفاعل مرفوعاً وهو ما يقع عليه الفعل، وكذلك خبر إنّ وأخواتها وهو ليس بفاعل ولا مبتدأ؛ واسم إنّ منصوب وإن لم يكن يحمل الدلالة الظرفية ولا دلالة المفعول، وكذا حال خبر كان وأخواتها. . لقد درس النحو التوليدي التركيب النحوي من وجهة نظر منطقية، آخذاً في الحسبان معايير الدلالة والقصد؛ فأفرِدت للعلاقات الدلالية نظرية خاصة بها هي النظرية الموضوعاتية Théorie thématique التي استمدّ (تشومسكي) جوهرها من (جاكندوف) و(غروبر) (١٩٦٥-١٩٧٦)[٤]؛ فكلمة (الملابس) في جملة (اتّسخت الملابسُ) تُعرَب فاعلاً استناداً إلى القرائن الإعرابية والصرفية، لكنها من الناحية الدلالية لا تحمل السمة الموضوعاتية [+فاعل] [agent+]. كذلك الأمر في حالة نائب الفاعل (العملُ) في (أُنجِز العملُ)، فهو لا ينوب عن الفاعل في الدلالة بل في الإعراب، أي إنه لا يحمل الوظيفة الموضوعاتية [+فاعل] بل [+مفعول]. كما أنّ (الدريئة) في (استهدف الرامي الدريئة) منصوبة، لكنها من الناحية الموضوعاتية الدلالية ليست [+مفعول] بل [+هدف]، إلخ....[٥].

(٤) لمعرفة المزيد حول النظرية المعلوماتية وعمل المعيار الموضوعاتي Θ-critère وأهميته في تفسير بعض الظواهر اللغوية، انظر: Chomsky,N. (1981), Lectures on Government and Binding Theory

(٥) تستمدّ النظرية الموضوعاتية أهميتها، كما سائر النظريات المكوّنة للسانيات التوليدية، من قدرتها التفسيرية للكثير من الظواهر اللغوية. انظر: لبانة مشوِّح، «من المحاكاة اللغوية إلى الاقتراض النظمي»، ص ٤٠٥-٤١١.

الكفاية اللغوية بين الكلِّيات والمتغيِّرات:

طرح (تشومسكي) في خمسينيات القرن الماضي فرضية لسانية جينية عقلانية، التقت بالقواعد الديكارتية في تمييزها الإنسان عن كل من الحيوان والآلة، بما يمتلك من منطق لغوي يعبّر به عن فكره، وبقدرته لغويًّا على الإبداع. كما تأثّرت بآراء الألماني (فان همبولد)(٦) في أن لدى الإنسان ملكة لغوية فطرية تمنحه القدرة على إنتاج عدد لا متناه من الجمل باستعمال عدد محدود من المفردات والقواعد والمبادئ اللغوية. واعتبر أنّ مادّة بحث النظرية العامة للبِنية اللغوية إنما هي تلك الملكة اللغوية المشتركة بين جميع بني البشر على اختلاف لغاتهم وتنوّعها.

من هنا اتّخذت القواعد التوليدية أساساً ومنطلقاً للبحث اللساني وهو ما أسماه (تشومسكي) «النحو الكلّي» أو «القواعد الكليّة» أو «الكليّات اللغوية» أو «الكونيات اللغوية» - وكلّها مصطلحات لمسمًّى واحد - عرّفها بأنّها جملة المبادئ العامة التي تحقِّق اللغات بموجبها المبادئ العامّة التي بُرمِج على أساسها العقل البشري. وبالتالي، فإنَّ «مسلك اللسانيات يتمثّل في البحث عمّا تشترك فيه الألسن»(٧)، والكشف عن تلك القواعد الكلّية يجب أن يكون مطلب الدراسات اللسانية وغايتها القصوى.

تنطلق القواعد التوليدية إذن من مسلّمة مفادها أن كلّ ناطق بلغة يمتلك

---

(٦) فون همبولد W.Von Hunboldt (١٧٦٧-١٨٣٥)، باحث في فقه اللغة درس عدداً كبيراً من اللغات منها لغات الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، واللغة السنسكريتية والصينية واليابانية والمجرية والتترية، وما اصطلح على تسميته باللغات السامية. وهو مؤسس جامعة برلين (١٨١٠). (انظر ميشيل زكريا، الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية، (ص٢٠).

(٧) انظر روبير مارتان، مدخل لفهم اللسانيات.

معرفة ضمنية فطرية بمبادئ لسانية عامة هي القواعد الكليّة التي تزوِّده بمخطّط لغوي تمتثل له القواعد الخاصّة بلغته وتتقيَّد به. هذه المعرفة اللغوية الفطرية أو ما يُسمى «الكفاية اللغوية» تسمح للطفل باكتساب لغته الأم بصورة نهائية، إذ تزوّده بالمعلومات المنطقية اللازمة حول شكل القواعد والمبادئ العامة التي من خلالها يستطيع تصنيف المعطيات اللغوية التي يتلقّفها من محيطه بحسب سماتها المعجمية والدلالية، وتنظيمها، ومن ثَمّ إعادة تركيبها ضمن المشجّر البنيوي العام بحسب الفئة التي تنتمي إليها اللغة. بمعنى آخر، الكفاية اللغوية هي ما يسمح للطفل باكتساب لغته إدراكاً وتفكيكاً وتصنيفاً، ثمّ توليدها وفقاً للمبادئ الكلية والقواعد الخاصة على حدٍّ سواء. كما تسمح له بإعادة تركيب مكوّنات الجملة انطلاقاً من المعطيات والقواعد التي خزّنها الدماغ. وبالتالي فإن اللسانيات التوليدية هي، في آنٍ معاً، نظرية في الاكتساب اللغوي وفي الأداء اللغوي.

لقد أثبتت البحوث اللسانية التي تندرج ضمن الإطار النظري للنحو التوليدي والتي تناولت عدداً كبيراً من اللغات الحيّة، ما ذهب إليه التوليديون من وجود ملكة فطرية لغوية عند البشر، تحكمها مبادئ وقواعد عامة. وقد عزّز اكتشاف الجين Fox P2 تلك الفرضية وأعاد اليوم إلى الواجهة الجدل الدائر حول الأصول الفطرية للغة.

وبما أنّ اللغات تختلف فيما بينها، واللغة الواحدة تختلف فيما بين الجماعات اللغوية، وفيما بين الأفراد ضمن الجماعة الواحدة، فإن «علم التراكيب» عند التوليديين يتألّف من مبادئ عامة وقواعد خاصة. لكن القواعد الكليّة تفرض شروطاً تُقيِّد إلى حدٍّ بعيد تنوّع اللغات من حيث بنيتها التركيبية؛ كما لا بدّ من أن يكون لكلّ لغة قواعدها التي لا تعارض بينها

وبين مبادئ القواعد الكلية التي تشترك بها مع كلّ اللغات الأخرى. ولئن اختلفت اللغات فيما بينها في قواعدها الجزئية، لا بدّ وأن تتكيّف مع القواعد والمبادئ الكونية، كلّ لغة على طريقتها الخاصة وبما يمليه نمطها ومتغيّراتها التي تميّزها عن سواها.

يترتّب إذن على اللساني تحديد النمط المجرّد والمتخيّل للاكتساب اللغوي ولآليات الانتقال من العمليات والآليات الدماغية المجرّدة، إلى اللغة المحسوسة المنطوقة، أي من البنية العميقة التي تحدِّد التأويل الدلالي interprétation sémantique وتشكّل الأساس الذي تُبنى عليه الجملة تدريجيًّا، إلى البنية السطحية التي تحدِّد بصيغتها الخطية[٨] المنطوقة كليّةَ التأويل الصوتي. ويُستدلّ على هذه العمليات التجريدية المفترضة بالظواهر اللغوية، فتُردّ إلى أصولها العميقة وإلى آليات تشكّلها، استناداً إلى كفاية المتكلّم – السامع اللغوية ومعرفته الفطرية بالكليّات اللغوية وبالقواعد الجزئيّة التي استنتجها بفضل تلك الكفاية اللغوية الفطرية، وعبر تحليله لمنظومة لغته الأم.

هكذا انتقلت التوليدية بعلم اللسانيات من مرحلة الملاحظة والتصنيف، أي من المرحلة الوصفية البحتة التي وقفت البنيوية والسلوكية عندها، إلى مرحلة تفسيرية تقوم على الكشف عن النماذج والآليات التي تتحكّم بقدرة المتكلّم – السامع اللغوية.

ولقد أثبتت البحوث اللسانية التي تندرج ضمن الإطار النظري للنحو

(٨) ونعني بالصيغة الخطية ordre linéaire التسلسل الخطي الظاهر للكلمات التي تشكِّل عناصر الجملة، والتي لا تعبّر بالضرورة عن توزّع عناصر الجملة وتموضعها على المشجّر التركيبي في بنيتها العميقة وبنيتها السطحية.

التوليدي والتي تناولت عدداً كبيراً من اللغات الحيّة، ما ذهب إليه التوليديون من وجود بنية كامنة للملكة اللغوية عند البشر، تحكمها مبادئ وقواعد عامة. لكن البحث في المبادئ التي تحكم النحو العام المشترك بين جميع الألسن والذي يمكن وصفه بالملكة الفطرية البيولوجية، لا ينفي، كما سبق أن أشرنا، وجود نحو خاص بكل لغة على حدة، وهو ما اصطلح عليه التوليديون اسم المتغيرات paradigmes التي تفسِّر اختلاف اللغات في أسلوب ومنهج تلك المبادئ والتكيُّف وإيّاها. وبالتالي، وضمن هذا الإطار النظري العام، حدّدت التوليدية هدفاً للدراسات اللسانية هو التقاط تلك الكونيات وتحديد معالمها، والانطلاق منها في تفسير المتغيرات اللغوية، أي التراكيب اللغوية الخاصة بكل لغة على حدة. وغدت المهمّة الرئيسية للدراسات اللسانية اكتشاف المبادئ العامة والمحرِّكات الذهنية للكلام، وإيضاح المتغيِّرات وطريقة تفاعلها مع القواعد الكونية.

الكونيّات اللغوية:

يلتقي (تشومسكي) في فكرة الكليات أو الكونيات اللغوية بالألماني (ماينر) (١٧٨٩) الذي رأى أن الألسن نسخ متنوّعة لأصل واحد ما هو إلا كونية الفكر البشري[٩]، وكذلك (يسبرسن) (١٩٢٤) الذي رأى أن دماغ المتكلّم هو المسؤول عن بناء تراكيبه وصياغة جمله[١٠].

وبحسب (تشومسكي)، لا بدّ من تصنيف الكليّات اللغوية إلى فئتين:

- نظرية الكليّات ذات الصلة بالجوهر التي تؤكّد أن كلّ عنصر من عناصر لغة ما لا بدّ وأن يتبع نظاماً خاصًّا ويُشتقّ منه. ومثال

(٩) انظر: عبد القادر المهيري، مدخل لفهم اللسانيات،المنظمة العربية المتحدة.

(١٠) نوام تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها.

ذلك نظرية (رومان يَكُبسُن) التي تقول بأن كل عنصر صوتي يُنتَج يحمل سمات صوتية كليّة تميِّز العناصر الفيزيائية العامّة لنظامنا النطقيّ.

- نظرية الكليّات ذات الصلة بالشكل، وهي مرتبطة بطبيعة أكثر تجريدية للقواعد اللغوية، في محاولة لفهم آليات الذهن في اكتساب اللغة وفهمها وتوليد الكلام والانتقال به من البنية العميقة إلى البنية السطحية؛ وهذا تحديداً ما اصطلح على تسميته بالقواعد التوليدية التحويلية.

وكمثال على تلك الكونيات اللغوية les universaux linguistiques أن لكلّ فعل فاعلاً؛ وبما أن الفعل هو جوهر الجملة الفعلية وعنصرها الأساسي، فلكلّ جملة فعلية ركن اسمي يقع من الفعل موقع الفاعل وله موقعه على المشجّر البنيوي، سواء كان الفعل حاملاً لعنصر الزمن أم مجرّداً منه(١١)، وسواء كان الفاعل ظاهراً أم مضمراً.

ومن الكونيّات أيضاً أن الجملة عموماً تتألَّف من مكوِّنات معجمية catégories lexicales يشكِّل كلّ منها ركناً نحويًّا syntagmes(١٢)، له موقعه

(١١) يترتّب على ذلك افتراض أن المصدر في اللغة العربية هو محور ركن جملة ، وأن له بالتالي ركناً اسميًّا يقع منه موقع الفاعل على المشجّر البنيوي التركيبي وهو الأمر الذي تنتج عنه علاقات تركيبية لجأنا إليها في تفسير بعض الظواهر اللغوية. (انظر لبانة مشوّح ١٩٩٢).

(١٢) لمصطلح syntagme عدد غير قليل من المقابلات العربية، كالركن المعجمي، والركن التركيبي، والمكوِّن التركيبي، و التركيب التعبيري، والعبارة، إلخ.... وهذا يؤكد وجود ضرورة ملحّة لمعجم لساني يسعى لتوحيد المصطلحات العربية اللسانية.ولقد آثرنا مصطلح (الركن) على (المكوِّن) مقابلاً عربيًّا لمصطلح syntagme لأنَّ (المكوِّن) يُقابل composante، واللغة عموماً تتألف من مكوِّن صوتي composante phonétique ومكوِّن صائتيّ composante phonologique، ومكوِّن صرفي composante morphologique، =

المحدّد على المشجّر البنيوي، وله «رأس معجمي» هو عنصر أساس - وربما يكون العنصر الوحيد - في تكوين الركن، وهو سبب وجوده، ويحمل سمات أساسية تنعكس على مجمل الركّن النحوي ؛ وبالتالي فإنّ كلّ ركن هو انعكاس لسِمات رأسه. وهكذا، فإن (ابن) عنصر اسمي يقع من الركن الاسمي (ابن جارتي) موقع الرأس. و[ابن [جارتي [التي تزعجنا بصوتها]]] ركن اسمي مركّب من عدّة أركان يقع بعضها ضمن البعض الآخر على المشجّر البنيوي. الرأس المعجمي للركن الاسمي هو (ابن) يتّسم بصفة الاسمية التي يستدّل عليها بإشارة [+اسم] وبسمات [+عاقل] [+مذكّر] [+مفرد]، وبالتالي فإن كامل الركن الاسمي (ابن جارتي التي تزعجنا بصوتها) يحمل السمات عينها [+عاقل] [+مذكّر] [+مفرد]. وهكذا، ومهما كبر الركن الاسمي وطال وتعدّدت مكوناته وملحقاته، فإن الدماغ يحلّله بما يتيح فهم الكلام، أو توليده بوضع هذا المركّب في جملة سليمة تُحترم فيها قواعد النحو والصرف المخزّنة في الدماغ وفق ما تمليه الكليّات والجزئيّات اللغوية على حدّ سواء؛ وهذا ما يجعل من غير الممكن على أحد من الناطقين بالعربية مثلاً توليد جمل من مثل[١٣]:

= ومكوّنات معجمية composante lexicale،ومكوّن نحويcomposante syntaxique ، ومكوّن دلالي composante sémantique. وبالتالي فإن (المكوّن اللغوي) هو مجموع العناصر اللغوية والسمات التي تميِّزها والقواعد الناظمة لها في لغة ما. بينما (الركن التركيبي) أو (الركن النحوي) فهو انعكاس للرأس المعجمي على المشجّر التركيبي وحامل لكل سماته.

(١٣) تدلّ إشارة (*) التي تسبق تركيباً ما على عدم جواز هذا التركيب. والتركيب الجائز أو الأصولي grammatical هو التركيب الموافق للأنساق اللغوية، وهو الذي لا تأباه سليقة أهل اللغة. وأمّا التركيب المنحول فهو ذاك الذي ينبو عن أنساق اللغة وتمجّه سليقة الناطقين بها.

(١) * ج[ر.اسمي١[ابن ر.اسمي٢[جارتي ج[التي تزعجني بصوتها]]] لطيفة].

(٢) * ج[لم تلبِّ ر.اسمي١[ابن ر. اسمي٢[جارتي ر.صفة [المسافرة]]] دعوتي].

فالعلاقة الإسنادية وبالتالي العلاقة التطابقية في (١) تقوم بين الركنين الأساسيين الذين تتكون منهما الجملة: الركن الاسمي ر.إ[ابن جارتي التي تزعجني بصوتها] وركن الصفة ر.ص[لطيفة]. وبما أن الركن الاسمي (ر.إ) يحمل سمات رأسه الاسمي (ابن)، فإن اختلال التطابق بينه وبين الخبر من حيث التذكير والتأنيث يجعل سليقة المتكلِّم – السامع ترفض الجملة وتسِمها بأنها غير أصولية (*)، فلا يولِّدها المتكلم، ويرفضها منطق المتلقي.

وينطبق الأمر نفسه على الجملة (٢) التي تخِلّ بقواعد التطابق بين الركن الفعلي (تلبِّ) والركن الاسمي الذي يحمل سمة [+عاقل] ويقع من الجملة موقع الفاعل (ابن جارتي المسافرة).

ومبدأ التطابق هذا ليس حكراً على العربية دون سواها، بل يفترض أنَّه مبدأ عام تشترك فيه كل لغات البشر، يختلف بعضها عن بعضها الآخر في درجة التطابق ونوعه ومكانه؛ فلكل لغة قواعدها الصرفية التي قد توافق أو تخالف لغات أخرى قريبة أو بعيدة عنها؛ فالصفة تطابق الموصوف في الجنس والكمّ في لغات لا تنتمي إلى أسرة لسانية واحدة كالعربية والفرنسية، على حين تتباين لغات تتقارب أصولها في طبيعة هذا التطابق كالإنجليزية والألمانية وكلتاهما تنتميان إلى أسرة اللغات الجرمانية، وكذلك الرومانية والفرنسية وكلتاهما من أصول لاتينية.

مثال آخر على الكونيات اللغوية نجده في مبدأ كلّي مفاده أن كل لغات البشر إعرابية، لكنها تقسم إلى نوعين: لغاتٌ حالات الإعراب فيها «صرفية»، أي إنها ظاهرة على مفرداتها كما هو الحال في اللغة اللاتينية والرومانية

والعربية واللغات الأكادية، وأخرى حالات الإعراب فيها مجرّدة يُستدلّ على وجودها بالتبدّلات الصرفية الشكلية (المورفولوجية) التي تطال مثلاً بناء الضمائر، كما هو الحال في اللغة الفرنسية والإنجليزية، وفي العاميات العربية حيث تتبدّل بنية الضمائر بين حالات الرفع والنصب والجرّ، على حين الأسماء لا تظهر عليها أية علامة إعراب.

ونتج عن هذا المبدأ قاعدة أساسية اصطلح النحو التوليدي على تعيينها «مرشِّح حالات الإعراب» Filtre sur les cas ،وينصّ في صيغة رياضية على الآتي:

(٣) مرشح حالات الإعراب:

كلّ عنصر معجمي (س) موسوم [+اسم] هو عنصر (*)[١٤]، إذا كان (س) غير مُعرَب.

وقد استعين بهذا المرشح لتفسير سلامة أو لحن عدد كبير من التراكيب في لغات متنوعة. في العربية مثلاً، ترفض السليقة اللغوية الجملة التالية بنسختيها (أ) و(ب):

(٤) أ. *تحدَّثَت هندٌ كلاماً مفهوماً

ب. *تحدَّثَت هندٌ كلام مفهوم.

والسبب الظاهري هو أن فعل (تحدّث) لا يتعدّى إلى مفعول به، أي إنه بحسب النظرية الموضوعاتية غير موسوم [+مفعول]. هذا يعني أن (كلام) الموسوم [+اسم] لا يمكن أن يكون منصوباً، كون الفعل لا يصلح عاملاً له؛ كذلك فهو لا يحمل أية حالة إعرابية أخرى لافتقاره إلى أي عامل آخر محتمل. وبالتالي، وبحسب (٣)، فإن (كلام) هو (*س[+اسم]) كونه غير مُعرب وبما أن (٤) تخرق مرشح حالات الإعراب، فإن سليقة المتكلِّم -

(١٤) أي إنه غير سليم ويؤدي إلى جملة لا تنتمي إلى الأنساق اللغوية.

السامع ترفضها. وأمّا (٥)، فهي جملة صحيحة لتوفّر العامل – وهو هنا حرف الجرّ – الذي يمنح الاسم حالة إعرابية:

(٥) تحدّثت هندٌ بكلام مفهوم.

من الكليّات إلى المتغيّرات في النحو التوليدي:

يمكن أن يُفهم مصطلح «النحو» في «النحو التوليدي» بمعناه الواسع أي الطريق، كما يمكن أن يُفهم بالمعنى الأضيق أي قواعد اللغة، فيأتي المعنى جامعاً للطريق التي يسلكها الدماغ في اكتساب اللغة وتوليدها. فإنّ «القواعد التوليدية» تهدف إلى الكشف عن آلية عمل الدماغ في عمليتين مركّبتين معقّدتين، تحقّق الأولى «الاكتساب اللغوي»، على حين تُوفّر الثانية في مرحلة عمرية لاحقة «توليد اللغة»، أداة للتعبير والتواصل.

كذلك يهدف النحو التوليدي إلى تحقيق غرضين متلازمين: أحدهما وصفي والآخر تفسيري. أمّا الهدف الوصفي فيكون بتحديد دقيق لخصائص كل لغة وللآلية التي تتبعها ، بحسب ما يميّزها من خصائص، ومن ثمّ ردّ قواعدها إلى منظومة المبادئ الكلية.

وأمّا تحقيق «الكفاية التفسيرية» فتكون بالكشف عن المبادئ اللغوية العامة أو ما أطلق عليه (تشومسكي) «الكليّلات اللغوية» وصياغة مبادئ واضحة لقواعد النحو الكلي، أي للمبادئ الفطرية الكامنة التي تخضع لها كل اللغات. أي إنَّ تفسير القواعد الخاصة يجري على أساس القواعد الكلية والمتغيرات اللغوية.

تقول اللسانيات التوليدية إذن بوجود مبادئ عامة تنضوي تحتها كل لغات البشر، وأخرى خاصة تميّز كلّ لغة عن سواها من اللغات، وإنّ البحث في المبادئ التي تحكم النحو العام المشترك بين جميع الألسن والذي يمكن وصفه بالملكة الفطرية البيولوجية لا ينفي، كما سبق أن أشرنا،

وجود نحو خاص بكل لغة على حدة، وهو ما اصطلح التوليديون على تسميته «المتغيرات» paradigmes التي تفسِّر اختلاف اللغات في أسلوب ومنهج اتِّباع الكليّات والتكيُّف وإيّاها. وضمن هذا الإطار النظري العام، فقد حدّدت التوليدية هدفاً للدراسات اللسانية هو التقاط تلك الكونيّات وتحديد معالمها، والانطلاق منها في تفسير المتغيرات اللغوية، أي التراكيب اللغوية الخاصة بكل لغة على حدة. وغدت المهمّة الرئيسية للدراسات اللسانية اكتشاف المبادئ العامة والمحرِّكات الذهنية للكلام، وإيضاح المتغيِّرات وطريقة تفاعلها مع القواعد الكونية.

وكمثال على المبادئ الكونية في الصوتيات عدم جواز اجتماع صائتين */VV/ في المقطع الصوتي الواحد، أو في الوحدة التركيبية الواحدة. ولكن لكل لغة طريقتها في تفادي خرق هذه القاعدة من خلال اتِّباعها قواعد صِواتية (الصوتية الوظيفية) règles phonogiques خاصّة بها، وتلك من المتغيِّرات؛ فبعضها لا يقبل البتّة اجتماع صائتين كالعربية، وبعضها الآخر يحتال على اجتماعهما بإنتاج صوت ثالث جديد كما في الفرنسية (Paul) حيث يُلفظ الصائتان a و u / O/ ، وكما هو الحال أيضاً في الإنجليزية؛ أو بإدخال صامت للفصل بينهما إذا كانا ضمن الوحدة التركيبية نفسها كما في الفرنسية (va-t-en) أو (vas-y)، حيث أدخِل الصامتان /t/ و / z/ للفصل بين صائتين في نفس الوحدة التركيبية(١٥).

(١٥) قد تتألّف الوحدة التركيبية unité syntaxique من عنصر معجمي واحد مثل (الكتاب) أو (رأيته)، أو عنصرين أو أكثر فتشكِّل فيما بينها وحدة تركيبية متراصّة لا يمكن الفصل بينهما. مثال: (بيت القصيد) و (لم يرضخ)، ونحوهما. لمعرفة المزيد عن خصائص هذه الوحدة التركيبية في العربية، انظر: لبانة مشوِّح، «دراسة توليدية تحويلية للتركيب المصدري المضاف في اللغة العربية الفصحى»، ص ١٤٤، و١٤٩ الهامش ٨ و٩.

مثال آخر على الكونيّات والمتغيرات اللغوية أن الضمائر في اللغات نوعان متصلة و/ أو منفصلة؛ فإذا حملت سمة [+متصل] كان لزاماً عليها وفق مبدأ كليّ الانتقال بعملية ذهنية من مكانها في البنية العميقة التي ولِدت فيها، لتلتحق بعاملها وتشكّل معه وحدة تركيبية متماسكة غير قابلة للفصل في البنية السطحية. أما المتغيرات، فهي أن هذه الوحدة التركيبية المولَّدة من الضمير وعائده الذي ألحق فيه تكون أحياناً ذات طابع صرفي كما هو حال الضمائر المتصلة في العربية إذ يشكّل الضمير وعائده كلمة واحدة؛ و قد تكون تركيبية بحتة كما هو الحال في الفرنسية والإنجليزية حيث يظهر الضمير منفصلاً عن عامله، إلّا أنهما ملتحمان على المشجّر التركيبي، فلا يقبلان الفصل بأي حال من الأحوال(١٦).

ومن بين المتغيِّرات التي تميّز اللغات بعضها عن البعض الآخر اختلاف مصفوفة العناصر التي تحمل سمة [+متصل] ؛ فقد تقتصر تلك السمة على بعض الضمائر دون سواها وتختلف من لغة إلى أخرى؛ و قد تقتصر على الضمائر وحدها؛ وقد تتعدّاها إلى عناصر معجمية أخرى كأدوات النفي (كما في العربية –لا، لن، لم- والفرنسية –ne–، وفي الإنجليزية will و would ...)، وهذا يختلف من لغة إلى أخرى.

مثال آخر على الكلّيات والجزئيات حالة الإعراب التي، كما أسلفنا، هي مبدأ عام يخضع له كل عنصر معجمي يحمل سمة [+ اسم]؛ لكنّ اللغات تختلف فيما بينها في ظهور حالة الإعراب كعلامة صوتية واضحة، أو في كمونها.

(١٦) انظر: لبانة مشوّح المرجع نفسه.

ومن القواعد الكليّة، كما أسلفنا «مرشح حالات الإعراب» الذي ينصّ على أن كل الأسماء ذات البنية الصرفية (أي ذات البنية المعجمية) لا بدّ وأن تحمل حالة إعراب؛ ومن المتغيِّرات اللغوية أن علامة الإعراب هذه قد تكون صرفية ظاهرة على بنية الكلمة (كما في العربية الفصحى: زيدٌ/ زيداً/ زيدٍ])، أو مجرّدة كما في الفرنسية والعاميات العربية حيث يُستدلّ على وجودها من الخصائص الصرفية للضمائر المتصّلة. ومن المتغيّرات أيضاً أن يقتصر ظهور حالات الإعراب على ضمائر دون أخرى كما هو الحال في الإنجليزية، أو أن تظلّ مجرّدة غير منطوقة على الرغم من وجودها النحوي؛ فعدم ظهورها لا يعني البتة عدم وجودها - وهذا أحد جوانب التجريد في النحو التوليدي، حيث يستدلّ على وجود العناصر المجرّدة والوظيفية بمؤشرات لغوية لا بدّ من الكشف عنها، الأمر الذي يؤدي باللساني إلى تحقيق الهدفين المتوخيين، ألا وهما الوصف والتفسير.

بين الكفاية والأداء

يقوم النحو التوليدي على التمييز بين الكفاية اللغوية، والأداء اللغوي. وأمّا «الكفاية اللغوية» فهي ملكة مشتركة بين جميع بني البشر. إنها معرفة الإنسان الضمنية بالكلّيات اللغوية، وكذلك معرفته الفطرية الضمنية بقواعد لغته، معرفة الإنسان الفطرية الضمنية بقواعد لغته، وقدرته على إنتاج عدد لا محدود من الجمل وفهمهما استناداً إلى عدد محدود من العناصر المعجمية. إنها القدرة الفطرية التي تمكِّن المتكلِّم - السامع من الوصول إلى الأداء اللغوي. هذه المعرفة الفطرية، أي الدماغية، بقواعد اللغة الأم هي التي تجعل الإنسان الناطق بلغة ما قادراً على توليد عدد لا محدود من التراكيب النحوية والجمل التي لم يسمعها من قبل باستعمال عدد محدود من

العناصر اللغوية؛ وأعني بالعناصر اللغوية العناصر المعجمية items lexicaux (الكلمات)، والوحدات الصرفية morphologiques unités، والوحدات التركيبية unités syntaxique. كذلك فإن تلك الكفاية اللغوية تجعل المتكلم- السامع قادراً على فهم جمل بلغته لم يسمعها من قبل؛ وبهذا تكون لغته إبداعية تقوم على الابتكار لا على المحاكاة والتقليد.

كذلك فإن معرفة المتكلّم - السامع بلغته تجعله لا يخطئ الحكم على جملة ما بأنها سليمة، وأخرى بأنها غير أصولية، وإن أدرك معناها، كأن يرفض بحدسه اللغوي الكامن ضمن كفايته اللغوية جملة من مثل: (*جاءت أحمد) أو (* اشتريت جبنة فطيرة).

وللتمييز بين الكفاية والأداء، طرح (تشومسكي) مستويين للغة: البنية العميقة وتكافئ الكفاية اللغوية، والبنية السطحية وهي الأداء اللغوي المكافئ للمستوى المنطوق أو المستوى الصوتي phonologique المرتبط بوظائف الأصوات وعلاقاتها فيما بينها، والمستوى الصرفي morphologique. كذلك هو المستوى الذي يحدِّد التأويل الدلالي، وينتج عن عمليات معقّدة، أو تحويلات تطول البنية العميقة. أمّا الانتقال من البنية العميقة إلى البنية السطحية فيحدث بواسطة جملة من الآليات النحوية التحويلية المجرّدة. وتسعى القواعد التوليدية للكشف عن الآليات الذهنية والقواعد العامة التي تتيح توليد البنية العميقة، وتلك التي تتيح الانتقال من البنية العميقة المجرّدة إلى البنية السطحية المنطوقة.

آليات الدماغ في الاكتساب والتوليد

سبق أن أشرنا إلى أنّ مصطلح «النحو» في «النحو التوليدي» يمكن أن

يُفهم بمعناه الواسع أي الطريق، كما يمكن أن يُفهم بالمعنى الأضيق أي قواعد اللغة، فيأتي المعنى جامعاً للطريق الذي يسلكه الدماغ في اكتساب اللغة وتوليدها؛ فإن «القواعد التوليدية» تهدف إلى الكشف عن آلية عمل الدماغ في عمليتين مركّبتين معقّدتين، تحقّق الأولى «الاكتساب اللغوي»، بينما توفّر الثانية «توليد اللغة»، أداة للتعبير والتواصل.

والنحو التوليدي نحوٌ كليّ له مكوناته الأساسية وهي:

أولاً- المكوّن المعجمي: وهو ما ينتج عن تخزين الدماغ للمعطيات اللغوية وتحليلها وتصنيفها بحسب سماتها.

ثانياً- المكوّن التركيبي: ويشتمل على مكوّن القاعدة والمكوّن التحويلي، ويتضمّن عمليات نحوية مجرّدة، فيشكِّل الواجهة النحوية للغة

ثالثاً- الواجهة الصرفية- الصوتية التي تعكس ما نتج عن العمليات الدماغية المجرّدة، وهو الجملة بصورتها النهائية.

أولاً- المكوّن المعجمي:

يقوم الدماغ البشري عند الطفل باستقبال عدد لا محدود من العناصر اللغوية التي تصدر عن محيطه اللغوي، فيعالج المعطيات اللغوية الواردة إليه بتفكّيكها وتحليلها إلى مكوناتها الأساسية، ثم يفكّك ويحلّل كلّ مكوِّن منها إلى مكوّناته الأساسية الأصغر، ثم هذه إلى عناصرها النحوية والصرفية الأصغر والأدق، وهكذا دواليك إلى أن يصل إلى أصغر مكوّنات الخطاب على الإطلاق. تترافق عملية التفكيك والتحليل هذه بتصنيف كل عنصر من هذه العناصر في الخانة المخصّصة له، استناداً إلى سماته المميزة. الدماغ إذن هو منطلق هذه العمليات الإدراكية اللغوية ومركزها؛ والقشرة الدماغية néocortex هي مركز اللغة في الدماغ. ولا غرابة في ذلك، إذ يتألّف دماغ

الإنسان البالغ من مئة مليار خلية، ويحتوي على تغضّنات dentrites ومشابك عصبية عددها مليون مليار مشبك عصبي synapses، وعلى عدد هائل من الوصلات العصبية connections، ويمكن لكلّ عصبون في القشرة الحديثة لدماغ الإنسان أن يتلقّى آلاف الإشارات (المعلومات) وأن يعالج هذا الكمّ الهائل من المعلومات الواردة والصادرة في الثانية الواحدة(١٧). وتبيِّن آخر الدراسات التجريبية ظهور نشاط كهربائي واضح ينتقل بين الوصلات العصبية حين يسمع الإنسان كلاماً مفهوماً، على حين يختفي هذا النشاط حين يكون الكلام مختلطاً بضوضاء تقف عائقاً أمام الفهم. وهذا يؤكِّد نظرية (تشومسكي) قبل أكثر من نصف قرن.

انطلقت إذن اللسانيات التوليدية من مسلّمة أن الدماغ البشري مبرمج لتلقي ومعالجة الكم الهائل من المعطيات اللغوية التي يوفّرها المحيط اللغوي، فيقوم بتخزينها ثم بتحليلها واستخلاص قواعدها الأساسية، ثم يفكِّكها إلى عناصرها الأساسية، ويخزّنها بحسب سماتها المعجمية المميِّزة الصوتية والدلالية والنحوية والصرفية، والتي تعمل وفق سلسلة من الثنائيات الضدّيّة [+/ -]، مثل [+/ - اسم]، [+/ - فعل]، [+/ - مذكر]، [+/ - مؤنث]، [+/ - متعدٍّ]، [+/ - زمن]، [+/ - مفرد] [+/ - مثنى] [+/ - جمع] [+/ - متكلم] [+/ - مخاطب] [+/ - غائب] [+/ - عاقل] [+/ - أداة] [+/ - هدف] [+/ - مصدر] إلخ....

وهكذا فإن الدماغ يصنّف الأسماء مثلاً ويوزَّعها على الحقول الدلالية وفروعها بحسب السمات الدلالية لكلّ منها، وهو ما يفسّر حسن انتقائها واستخدامها في مكانها المناسب عند توليد جملة ما. فكلمة (درج) مثلاً

(١٧) انظر هاني خليل رزق، العقل والدماغ البشري، ص ٧٢-٧٤.

تحمل شبكة من السمات المعجمية من بينها السمتان الدلاليتان [+ أداة] و[+ مكان] وهو ما يميّزها عن (فأس) الذي يحمل سمة [+أداة] فقط، وهذا الأمر يسمح بتوليد (٣) و (٤)، ويجعل من (٥) (٦) غير سليمتين:

(٣) وضعت القلم في الدرج.

(٤) جلست القطة في الدرج

(٥) * وضعت القلم في الفأس.

(٥) * جلست القطة في الفأس.

لأن الناطقين بلغة ما يتشاركون جميعاً نفس الكفاية اللغوية، ولأنّ منظومتهم الدماغية تغذّيها المعطيات اللغوية عينها، فهذا يجعل المحتوى الدلالي للرسالة المنطوقة في ذهن المرسل يطابق محتواها الدلالي في ذهن المتلقي. أي إن المخاطب لا يمكن أن يفهم من جملة (أدَّب الرجل ابنه) دلالة مغايرة أو مناقضة لتلك التي قصدها الناطق بها.

المرحلة الأولى من الاكتساب اللغوي هي إذن مرحلة تجميعية تحليلية تراكمية، يتلقّف فيها دماغ الطفل معطيات بيئته اللغوية، فيحلّل الجملة إلى مكوناتها الأساسية، ويسِم كل عنصر من العناصر المعجمية بمصفوفة سمات أساسية، ويقوم من ثَم بتصنيفها بناء على تلك السمات[١٨]. وفي مرحلة لاحقة، أي عندما يحتاج المتكلّم لاستعمال اللغة بغرض التعبير والتواصل، يعود الدماغ في عملية عكسية لا تستغرق جزءاً من الثانية إلى

(١٨) بات مثبتاً أن القشرة الحديثة في الدماغ تتألف من ست طبقات من العصبونات، ويمكن لكل عصبون وحده أن يتلقى آلاف المعلومات في الثانية الواحدة، وأن يعالجها ويكامل فيما بينها. لمزيد من المعلومات عن تركيب القشرة الدماغية الحديثة وعمل العصبونات، انظر هاني خليل رزق، المرجع نفسه.

مخزونه اللغوي، فينتقي من «المعجم الذهني» ما يحتاجه من عناصر معجمية ليعيد رصفها، أي وضعها في مصفوفة من العلاقات التركيبية بما يتناسب وسماتها المعجمية والدلالية والصرفية، ليبني تدريجيًّا وبسرعة قياسية جملة مؤلّفة من مكوّنات أساسية تخضع لمبادئ وقوانين لغوية عامة ولقواعد اللغة الخاصة. فإذا تمّت العملية بنجاح، أتت الجملة سليمة، وإلاّ كانت مختلّة من الناحية الصوتية أو الصرفية أو التركيبية أو الدلالية.

من الأدلّة الحسيّة المدعّمة لهذه الفرضية حادثة واقعية لطفلة لم تتجاوز العامين من عمرها ردّت على اتصال هاتفي، فطلب المتصل التحدّث إلى أبيها، ولمّا علم أنه خارج المنزل، طلب منها أن تبلِّغه بأن «محمد دالاتي» اتصل به. وعندما عاد الأب إلى البيت هرعت الطفلة إليه قائلة: «بابا... بده ياك محمد دالاتك». نستنتج من ذلك جملة نقاط نلخِّصها في الآتي:

أولاً- فهمت الطفلة فحوى الرسالة وأدركت مقصدها وقد سمعتها للمرة الأولى؛

ثانياً- لم تكرّر الطفلة حرفيًّا الجملة كما سمعتها، وهذا دليل على أن اللغة ليست محاكاةً ولا تكراراً، بل هي توليد وإبداع؛

ثالثاً- تعامل ذهن الصغيرة مع الياء المتصلة بكلمة دالاتي على أنها ياء التبعية/ الملكية (ياء المتكلّم)، فوضعها في نفس خانة ياء (أمي/ أبي/ لعبتي). ولمّا حان وقت إعادة توليد جملة فيها (دالاتي)، قلب ياء المتكلم كافاً لضرورة إسنادها إلى المخاطب، وكان من الممكن أن يقلبها هاء الغائب لتصبح (دالاته). والأرجح أن الدماغ اختار كاف المخاطب لأن المتكلِّم (الطفلة) يخصّ بكلامه المُخاطب (الأب).

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن معيار السلامة لا يقتصر على تأدية وظيفة

الإفهام، بل يتعدّاه إلى التطابق التّام بين الرسالة التي يرغب المتكلم في توليدها من جهة، والسمات المميزة لمكوّنات هذه الرسالة والقواعد اللغوية العامة والخاصة من جهة أخرى. فمثلاً، يمكن لجملة من نحو (أريد لا أرحل) أن توصل المعنى المطلوب القريب جدًّا من ذاك الذي نفهمه من (لا أريد أن أرحل) أو (أريد ألّا أرحل)، كما يمكننا أن نفهم المراد من جملة (يحبّهم هو الأولاد)، بيد أنها تظلّ جملة غير سليمة. كذلك الأمر في حالة جملةٍ مثل (حاورتُهم الرجال)، فهي وإنْ كانت توصل المعنى، إلا أنها لا تندرج ضمن المنظومة اللغوية للعربية.

ثانياً- المكوّن التركيبي: التوليد والتحويل:

يستند النحو التوليدي في جميع مراحل التطور النظري التي مرّ بها إلى مبادئ أساسية هي التوليد والتحويل. أمّا التوليد فهو قدرة المتكلِّم على إنتاج عدد لا متناه من الجمل بناء على عدد محدّد من القواعد وعلى عدد متناه من العناصر المعجمية؛ وقدرة المتلقي/ السامع على فهم هذه التراكيب وتمييزها عمّا هو سليم(١٩). و أمّا التحويل، فهو العملية النحوية التجريدية التي تنقل السلسلة النحوية من بنيتها العميقة المجرّدة إلى بنيتها الظاهرة.

تفسِّر القواعد التوليدية الكفاية اللغوية بامتلاك الدماغ القدرة على بناء «معجم ذهني» يختزن المعطيات التي يمدّه بها المحيط اللغوي. يقوم الدماغ بتلقّف تلك المعلومات، فيفكّكها إلى مكوّناتها الرئيسية، ثم يقوم بتصنيف كل عنصر من مكوِّناتها في الخانة بحسب الفئة المعجمية التي ينتمي إليها استناداً إلى سماته المعجمية والدلالية والصرفية والنحوية. وفي مرحلة النطق يختار الدماغ من مخزونه اللغوي المعجمي العناصر التي يراها

(١٩) لمعرفة المزيد انظر نظرية تشومسكي في العامل والأثر Chomsky,N. (1981), .Lectures on Govern,ent and Binding Theory, Dordreicht, Holland.

مناسبة للتعبير عن الرسالة المتوخّاة، فيضعها في مصفوفة تركيبية أوّلية هي نواة الجملة، وهي مؤلّفة من الفعل وفاعله، أو المسند والمسند إليه، وتقع هذه المصفوفة ضمن مشجّر بنيوي تفرّعي، تتوزّع على أغصانه مكوّنات الجملة وفق هندسة محدّدة وقوانين عامة صرفية وتركيبية ودلالية(٢٠).

وتتمحور الجملة في البنية العميقة حول عنصر معجمي صرفي هو الفعل، وتسند إليه ملحقاته من فاعل ومفعول بحسب مصفوفته الموضوعاتية أو سماته المميزة؛ ثم يبدأ الدماغ بعملية «التحقّق» vérification أو «المطابقة» بين سمات العناصر اللغوية التي تمّ انتقاؤها من المعجم الذهني، وتلك الواجب توفّرها لتكتمل الرسالة اللغوية المطلوبة. ويترتب على عملية المطابقة هذه إجراء عمليات تحويلية تنتقل فيها العناصر المعنية من فرع إلى آخر على المشجّر التركيبي، وهو انتقال أشبه بانتقال السيّالات العصبية أو الكهربائية. تلك عمليات ذهنية مجرّدة لاإرادية في كل مراحلها، تكتمل باكتمال عمليات المطابقة الذهنية التي تهدف إلى التحقّق من صحّة السمات الصرفية والدلالية والنحوية من حيث مطابقتها للرسالة المتوخّاة من الكلام، وللقواعد اللغوية التي اختزنها دماغ المتكلّم – السامع، لتُنتج الجملة على صورتها النهائية. ينتج ممّا سبق أن موقع الكلمة في الجملة يتغيّر على المشجّر التركيبي بتقدّم عمليات التحقّق من سِماتها والتي تتمّ في المكوّن النحوي، ويستقِرّ بصورته النهائية بانتهاء تلك العمليات الذهنية(٢١).

---

(٢٠) لمزيد من المعلومات عن خصائص المشجّر البنيوي وهندسته وأهميته النظرية والتطبيقية، انظر لبانة مشوّح، «دراسة توليدية تحويلية للتركيب المصدري المضاف في اللغة العربية الفصحى»، ص ١٤١-١٤٤.

(٢١) لمعرفة المزيد انظر Jean-Yves Pollock, Langage et cognition : introduction au programme minimaliste de la grammaire générative, PUF, coll. « Psychologie et sciences de la pensée », 1998.

ومن المبادئ العامة التي تحكم العملية التوليدية التحويلية المبدأ العام القائل بوجود ركن فعلي منفصل في المستوى العميق للجملة عن ركن الزمن والصيغة، فإمّا أن يلتحق الفعل بعنصر الزمن هذا فيكون مضارعاً أو ماضياً، و إمّا أن يبقى خالياً من عنصر الزمن كما هو حال المصادر في العربية. كذلك فإن فرضية وجود انفصال بين عنصر الزمن والفعل في البنية العميقة يتيح في اللغة العربية تفسير ظاهرة الحروف التي تحمل عنصر الزمن كحروف النفي[٢٢]. والتفسير اللساني لهذه الظاهرة بالعبارة التوليدية الحديثة أن الفعل يحتلّ على المشجّر التركيبي موقعاً في مستوى نحوي أعمق من مستوى النطق، ثم يتقدّم من موقع إلى آخر بحسب السمات المميزة التي يحملها في الجملة، ليحتلّ في نهاية المطاف موقع رأس المكوّن الزمني، لكنه في حال النفي ليس وحيداً في هذا الموقع بل إن حروف النفي التي تحمل سمة [+زمن] شأنها شأن الفعل، تتقدّم على المشجّر البنيوي على موقع الزمن الذي يحتلّه الفعل، فتلتحم به تركيبيًّا لا معجميًّا، لأنها تحمل سمة [+متّصل] شأنها في ذلك شأن الضمائر المتصلة، وهذا يفسّر الظاهرة المعروفة في العربية منذ سيبويه، وهي أن الفعل يلتصق بالحروف العاملة فيه ليشكلا كلمة واحدة[٢٣]. ومن تلك الحروف قد، وإنْ، وأدوات النفي.

من الآليات المتّبعة إذن في المستوى التركيبي niveau syntaxique انتقال عنصر أو ركن معجمي من موقعه في البنية العميقة إلى موقع أعلى على المشجّر البنيوي، أو إلى صدر الجملة، كما هو حال اسم الاستفهام في (من قطع دابر الفتنة؟) والذي يحتل الصدارة بعد انتقاله من موقع الفاعل في

(٢٢) انظر: سيبويه، الخصائص، باب الحروف التي لا يليها إلا الفعل، ج٣.

(٢٣) انظر: سيبويه المرجع نفسه، ج٣ ص ١١٠، «هذا باب الحروف التي لا تتقدَّمُ فيها الأسماءُ الفعلَ، ص، و«هذا باب الحروف التي لا يليها بعدها إلا الفعل» ص ١١٤-١١٥.

البنية العميقة إلى الموقع المخصّص للمقيدات اللغوية. وهـذا الانتقـال مـن فرع إلى فرع أعلى على المشجّر ليس عشوائيًّا البتة، بل يخضع لجملـة قيـود ومبادئ تركيبية. إنَّ مصفوفة السمات الواجب تدقيقها والتحقّق من مطابقتها للمطلوب تخضع لعمليـات النسـخ واللصـق فـي عمليـة شـبيهة بالعمليـات الحاسوبية المعروفة من نسخ ولصق. بناءً على ما سبق، فإن جملة مـن نحـو (غداً لن يلومكم أحدٌ) إنّما هي ناتج عدد من العمليات التحويلية التـي يقـوم بها المعالج النحوي الدماغي على بنيتها العميقة:

أحد لن يلوم كم غدا

فينسخ الظرف (غداً) ويقدّمـه علـى المشـجّر ليلحقـه بمكـان الصـدارة المناسب له:

غداً لن أحدٌ يلوم كم (غداً)

وينسخ ضمير المفعول به [+متصل] ويلصقه بالفعل:

غداً لن أحدٌ يلومكم (كم) (غداً)

وينسخ الفعل ويلحقه و الضمير المتصل به بموقع متقدِّم على المشـجّر ومخصّص لعنصر الزمن:

غدا يلومكم لن أحدٌ (يلومكم) (كم) (غدا)

وينسـخ أداة النفـي التـي تحمـل مصـفوفة السـمات الدلاليـة والتركيبيـة والصرفية [+نفي] [+متصل] [+زمن]، فيلحـق (لـن) علـى التـوالي بـالتفرّع الخاص بدلالـة النفـي، ثـم بـآخر خـاص بدلالـة الـزمن، فيلحقهـا بالوحـدة الصرفية التركيبية [فعل+ضم +متصل] التي أُلحِقت قبلها بالزمن، فينتج عـن كل تلك العمليات التحويلية المجرّدة التركيب المرحلي الآتي:

غداً لن يلومكم (لن) أحدٌ (يلومكم) (كم) (غدا)

وما إن تستكمل عمليات النسخ واللصق وتنجز عمليات التحقّق والمطابقة لكل السمات المعجمية الدلالية والتركيبية والصرفية، وكل عنصر يحتلّ موقعه الجديد على المشجّر البنيوي بناء على مصفوفة سماته، ومن أنّ هذه السمات تطابق الغاية التي وجد من أجلها كل عنصر معجمي انتقي من المعجم الذهني، حتى يُحذف كلُّ عنصر منسوخ نهائيًّا من مكانه القديم، وبجزء ضئيل من الثانية، بما يُنتج الجملة في شكلها النهائي:

(غداً لن يلومكم أحدٌ)

وهكذا فإن عمل اللساني لا يقتصر في النحو التوليدي على وضع ثبت للصيغ التي تبنى عليها لغة ما، بل «يتعدّى ذلك إلى تفسير نشأة تلك الصيغ وتأويل تركيبها كي يُهتدى إلى حقيقة الظاهرة اللغوية»(٢٤)، بافتراض عمليات تجريدية تستمدّ قيمتها النظرية من قدرتها على تفسير الظاهرة تفسيراً منطقيًّا عن طريق ربطها مباشرة بقواعد عامة تخضع لها الكفاية اللغوية، والتكهّن بكل المعطيات المرتبطة بالتراكيب ذات الصلة بتلك الظاهرة.

وبعد، فلقد حاولنا أن نبيِّن كيف أن النحو التوليدي يهدف إلى دراسة الكفاية اللغوية وآلية الانتقال من الكفاية إلى الأداء اللغوي اعتماداً على الظواهر اللغوية، فشرحنا مفهومي الكليّات والمتغيّرات، ومفهوم المعجم الذهني والبنية العميقة والبنية السطحية، وأعطينا أمثلة من العربية على القواعد التحويلية النحوية - الصرفية التي تنقل الكلام من بنيته العميقة الأولية إلى صيغته الصوتية الفونولوجية عبر البنية السطحية المجرّدة. وهكذا، فإن النحو التوليدي لا يصف اللغة بل يفسّرها بالكشف عن آلية

(٢٤) انظر عبد الفتاح المسدّي، (٢٠١٠)، مباحث تأسيسية في اللسانيات، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط١.

عملها عبر دراسة قواعد الجملة. وفي معرض شرحنا للكليات، بيّنا كيف تعالج القواعد التوليدية التراكيب والاشتقاقات الصرفية وعلامات الإعراب، والخصائص المعجمية وحتى القواعد الصوتية ووظائف الأصوات (الفونولوجيا) ككل متكامل، وتعُدّ مباحثَ علم المعاني جزءاً لا يتجزّأ من النحو؛ فلا تدرس دواعي الحذف والتقديم والتأخير في علمين متمايزين (المعاني والنحو)، لأن الصلة وثيقة، دون أن يكون هناك تطابق تام، بين الظواهر النحوية كموقع العناصر المعجمية وتراتبيتها في الركن الذي يحتويها (اسميًّا كان أم فعليًّا أم حرفيًّا)، والظواهر الصرفية كعلامات الإعراب والتطابق وطرائق الاشتقاق وصوغ الأبنية، وبين الوظائف الموضوعاتية thématique، أي العلاقات الدلالية، واختلافها بين تركيب وآخر[٢٥]. **كما شرحنا** كيف أن التوليديين لا ينظرون إلى اللغة وجملها على أساس أنها مجموعة من الكلمات المتتالية، بل هي كلمات تتلاصق وتتجاور في أركان أو مكوّنات لكل منها نواة أو «رأس»، وهي تتقدّم على المشجّر التركيبي بعملية ذهنية فطرية، لأغراض نحوية أو دلالية أو أسلوبية. هذه الظواهر التحويلية تحكمها ضوابط نحوية تأخذ بالحسبان خصائص العناصر المكوّنة للجملة وسمات كل منها، كما أن هناك مبادئ عامة تلعب دورها في هذا الانتقال وذاك التجاور، كمبدأ الشفافية transparence الذي يتيح تسرّب خواص من كلمة لأخرى.

* * *

(٢٥) انظر مسعود بوبو، «تدريس النحو والصرف».

المصادر والمراجع

المراجع العربية:

- الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية، ميشيل زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٩٨٢.
- تدريس النحو والصرف، مسعود بوبو، ندوة النحو والصرف، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق ٢٧-٣٠/ ٨/ ١٩٩٤.
- دراسة توليدية تحويلية للتركيب المصدري المضاف في اللغة العربية الفصحى، لبانة مشوِّح، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي- جامعة الكويت، العدد ٤٣، السنة الحادية عشرة، ١٩٩٣.
- العقل والدماغ البشري، هاني خليل رزق، سلسلة اقرأ...كتابك، آفاق معرفة متجدّدة، دار الفكر، دمشق ٢٠١٥.
- القرائن النحوية والعمليات التعريبية، يوحنا اللاطي، مجلة التعريب، العدد ٤٩، ك١ ٢٠١٥.
- الكتاب، أبو بشر محمد قنبر سيبويه، شرح عبد السلام محمد هارون، عالم الكتاب، بيروت.
- لسان العرب، ابن منظور، بيروت، دار الجيل ودار لسان العرب، ١٩٨٨.
- مباحث تأسيسية في اللسانيات، عبد الفتاح المسدّي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، (٢٠١٠).

- مدخل لفهم اللسانيات، روبير مارتان، ترجمة عبد القادر المهيري، المنظمة العربية المتحدة، بيروت، ط١، (٢٠٠٧).
- مدخل لفهم اللسانيات، عبد القادر المهيري، المنظمة العربية المتحدة، بيروت، ط١،(٢٠٠٧).
- المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، نوام تشومسكي، ترجمة د. محمد فتيِّح، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٣.
- من المحاكاة اللغوية إلى الاقتراض النظمي: المبني للمجهول الفاعلي في اللغة العربية، لبانة مشوِّح، مؤتمر الترجمة في الدول العربية – أهميتها ودورها في التواصل الحضاري بين الأمم، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، الجزء الأول (٣٩٥-٤١٩)، اللاذقية، ٢٠٠٦.

المراجع الأجنبية:

- Chomsky,N. (1986), Barriers. Linguistic Inquiry Monograph Thirteen,
- Chomsky,N. (1981), Lectures on Government and Binding Theory, Dordreicht, Holland.
- Chomsky,N. (1957), Syntactic structures, Mouton La Haye.
- Chomsky,N. (1965), Aspects of the theory of syntax, MIT Press, Cambridge, Mass.
- Chomsky,N. (1995), The Minimalist Program, MIT Press, Cambridge, Mass.
- Erdmann,E, Stover,D, (1991), Beyond a World Divided : Human Values in the Brain-,and Science of Roger Sperry, Shambhala Puublications Inc, Colorado, USA.

- Jean-Yves Pollock, Langage et cognition : introduction au programme minimaliste de la grammaire générative, PUF, coll. « Psychologie et sciences de la pensée », 1998. Préface de Noam Chomsky.
- Kayne S. R (1977), Grammaire du Français : Le Cycle Transformationnel, Editions du Seuil, Paris.
- Marcus Tomalin, Linguistics and the Formal Sciences: The Origins of Generative Grammar, Cambridge University Press, 2006.

❊ ❊ ❊

انكِسارُ بِنْيةِ المَتْنِ في لُغةِ القرآن الكريم(*)

أنشأَه بالفارسيّة: أ. د. تقي بورنامْداريان
ترجَمَه إلى العربيّة: أ. د. عيسى علي العاكوب(**)

كُلُّ كلامٍ هو مِن جهةِ الاتّصالِ رِسالةٌ إلى مُخاطَب، إلّا إذا كان المتكلِّمُ بسَببِ اضطرابِهِ الرّوحيّ أو الجِسْميّ لَيْسَ لَدَيْهِ تحكُّمٌ إراديٌّ بكلامِه. وبِناءً على ذلك، كلُّ ضَرْبٍ مِن التّكلُّمِ هو مُحادَثةٌ بينَ طَرَفَيْن؛ أحدُهما مُرْسِلُ الرّسالةِ أو متكلِّمٌ، والآخَرُ مُتلقِّي الرّسالةِ أو مُخاطَبٌ. ولازِمةُ المحادَثةِ بَيْنَ

(*) كثيرًا ما يشيرُ الذّكْرُ الحكيمُ إلى ما يُسمّيه تعالى (تَصْريفَ الأمثالِ) في القرآن، الذي يقصِدُ في هذا الكتاب الإلهيّ إلى أن لا يجادلَ الإنسانُ كثيرًا في قَبولِ الحقائقِ الإلهيّة؛ لأنّها مُقدَّمةٌ في القرآن الكريم بأساليبَ متنوِّعةٍ قادرةٍ على إحداثِ الإقناعِ في النّفس. فقد قال ربُّنا سُبْحانَه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]. ويتناولُ البحثُ المُقدَّمُ هنا ظاهرةَ (التّنوُّع في الوَحْدة) في أساليبِ القرآن الكريم، أو ما يمكنُ تسميتُه في كلامِ البشَر: العُدولَ عن الجاري المُعتاد لِغَرضٍ بلاغيّ. والبحثُ خُلاصةٌ ممتازةٌ في موضوعه. وهو مُقتطَعٌ مِن كتابٍ بالفارسيّة عنوانُه: (در سايهٔ آفتاب – شعر فارسي وساختْ شكنى در شعر مولوى)، بمعنى: (في ظِلال الشَّمْس – الشّعْرُ الفارسيُّ وانكسارُ البِنْيةِ في شعر جلال الدّين الرّوميّ). ومنشئُ البحث، مؤلِّفُ الكتاب، أستاذٌ كبيرٌ الآنَ في جامعة (تربيتِ مدرّس) في طهران، وضَليعٌ بالفارسيّة والعربيّة والإنكليزيّة، وله مصنَّفاتٌ رائعةٌ بالفارسيّة في البلاغة والنّقْد والدّرْس الأدبيّ، واهتمامٌ خاصٌّ بالشّاعِرِ الإنسانيّ العالَميّ جلال الدّين الرّوميّ [المترجم].

(**) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

طَرَفَيْنِ، لَيسَتْ لِزامًا حُضورًا مادّيًّا لِلْمُخاطَب في المحادَثة. وعندَما لا يكونُ المخاطَبُ حاضِرًا، يتكلَّمُ المتكلِّمُ معَ مَخاطَبٍ افتراضيٍّ، ويحدثُ عمَليًّا في هذه الحال أنّ الكلامَ ينتقلُ إلى المخاطَبِ بِطَريقِ الكتابة. ويَعُدُّ باختين (Bakhtin)، المنظِّرُ الرّوسيُّ، كلَّ ضَرْبٍ مِن الاتّصالِ اللّغَويّ ضَرْبًا مِن المحادَثة بِمَعْناها الواسع. والمحادَثةُ، في هذا المفهوم الواسع، لا تُقتصَرُ على الكلامِ المباشِرِ وَجْهًا لِوَجْهٍ بَيْنَ مُرسِلِ الكلامِ ومُتلقّيه، بَلْ كلُّ ضَرْبٍ مِن الكلامِ والكتابة في غِيابِ المخاطَب هو أيضًا ضَرْبٌ مِن المحادَثة. ويعتقِدُ وِدُّسُنْ (Widdowson) أيضًا، مُوافقًا في ذلك قولَ باختين، أنّ الخطابَ الفَرْديَّ في غِيابِ المتكلِّمِ يُشبِهُ أن يكونَ إجاباتٍ مُتواليةً عن أسئلةٍ مُفترضةٍ مِن مُخاطَبٍ افتراضيٍّ.

هَليدي (Halliday) أيضًا، في تأكيدِهِ هذه الرّؤيةَ، يُشيرُ إلى أنّ نَظْمَ الكلامِ وترتيبَه يأخذُ صورتَه بِناءً على الافتراضاتِ القَبْليّةِ لِمُرسِلِ الرّسالة في شأنِ ما يعلَمُهُ مُتلقّي الرّسالة وما لا يَعْلَمُه. فالمحادَثةُ واحِدةٌ مِن الرّكائزِ الأساسيّة لِبِنْيةِ الكلام، سَواءٌ أكان كِتابةً أم تحدُّثًا. وهذا الأصْلُ الأساسيُّ يُراعَى في الكلامِ معَ شخصٍ واحِدٍ، ومعَ شخصَيْنِ أو أكثَر. فالكلامُ كما يقولُ باختين شَبيهٌ بالشَّرارة الكهربائيّة التي يكونُ حُدوثُها مَشْروطًا بوجودِ قُطْبَيْنِ كهربائيَّيْنِ[1].

ووَفْقًا لِما قُلْناهُ، يتحقّقُ كلُّ كلامٍ على أساسِ افتراضِ وجودِ طَرَفَيْنِ: متكلِّم ومُخاطَب، سَواءٌ أكان المتكلِّمُ حاضِرًا أم غائبًا. وعندَما يكونُ المخاطَبُ غائبًا تنتقلُ الرّسالةُ أو الكلامُ إليه بفَضْلِ وَسيطٍ واحِدٍ. ويكونُ هذا الوَسيطُ إمّا إنسانًا تُحمَلُ رسالةُ المتكلِّمِ بوَساطته إلى المخاطَب وتُبلَّغُ

(١) Guy Cook, Discourse and Literature: The interplay of form and mind, Oxford University Press, 1994, p. 48, 50, 51.

شِفاهًا، وإمّا كِتابةً يَفهَمُ المخاطَبُ مِن طريقِها رسالةَ المتكلِّم. وشيءٌ عاديٌّ أنّه عندَما تُفهَمُ الرّسالةُ التي نقلَها وَسيطٌ إنسانيٌّ أو غيرُ إنسانيّ، لا يمكنُ غَضُّ النّظَرِ عن تأثيرِ الوَسيط في الرّسالة، لكنّه لا شأنَ لنا نحنُ هنا بهذه المسألة، التي هي نفسُها واحِدٌ مِن مجالاتِ البحث بينَ عُلَماءِ اللّغة والفلاسفة المعاصرين. كذلك لا حاجةَ لنا إلى مناقشةِ موضوع تأثيرِ عَدَمِ التّحكُّمِ بالكلام في النَّقْلِ الصّحيحِ للرّسالة، عندَما يتكلّمُ المتكلِّمُ في غِياب المخاطَب، ويسمَعُ المخاطَبُ رسالةَ المتكلِّمِ في غيابِهِ أيضًا أو يقرؤها مِن طريقِ وَسيط. ونضَعُ في الاعتبار هنا أيضًا الوَسيطَ في نِطاقِ إنسانٍ أو كتابةٍ، فقط مِن جهة أنّ الكتابةَ هي صُورةٌ مكتوبةٌ لِلْكلام.

وما هو هنا مَحَلُّ تأمُّلِنا هو أنّ وجودَ الوَسيطِ بينَ المتكلِّمِ والمخاطَبِ ينشأ عنه تغييراتٌ في بِنْيةِ المحادَثة وإجرائها لا يمكن أن تحدثَ في المحادَثةِ المباشِرة. وعندَما يكونُ الوَسيطُ بينَ مُرْسِلِ الرّسالةِ ومتلقّيها الكتابةَ ويبقى المتلقّي أمامَ المتْنِ وحيدًا في غياب المرْسِلِ، تُثيرُ مسألةُ التّفهيمِ والتّفاهمِ ومعنَى المَتْنِ أسئلةً كثيرةً، هي نفسُها واحِدٌ مِن المجالاتِ الأساسيّة للبَحْث في فلسفةِ الحَداثة وما بعْدَها ونظريّاتهما، ولَيسَ عَرْضُ هذا مِن شأن هذا البحث، ولا يبدو ضَروريًّا الانشغالُ بذلك في قَصْدِنا المحدود هنا معَ وجودِ كُتُبٍ ومَقالاتٍ أُخَر. لكنّنا ننظُرُ في مسألةِ أنّه، عندَما يكونُ الوَسيطُ بيْنَ مُتلقّي الرّسالةِ ومُرسِلِها إنسانًا آخَرَ، أيُّ تغييرٍ يحدثُ في طريقةِ إيصالِ الرّسالة؟

وإذا ما أشَرْنا إلى مُرْسِلِ الرّسالة بالحَرْفِ «س» وإلى الوَسيط بالحرف «م» وإلى مُتلقّي الرّسالة بالحَرْف «ر»، فسيكونُ لَدَينا الصُّوَرُ الآتيةُ فيما يتعلّقُ بـ (مُرْسِلِ الكلام):

١- يقولُ «س» لِـ «م»: (يا «م») قُلْ لِـ «ر» أن يَحمِلَ الكتابَ لِأَحمد.

٢- يقولُ «س» لِـ «م»: (يا «م») قُلْ لِـ «ر»: (يا «ر») احْمِلِ الكتابَ لِأحمد. الأجزاءُ التي في داخِلِ الأقواس هنا رُبّما لا تظهَرُ، فتَسْتتِرُ داخِلَ الكلام، ويمكنُ المتكلِّمَ والمخاطَبَ أن يُؤدِّياها أو لا يؤدِّياها.

الصُّوَرُ التي يمكنُ الوَسيطَ بطَريقِ بَيانها أن يُوصِلَ رسالةَ المُرْسِل إلى المتلقِّي تأخذُ الحالاتِ الآتية:

١- يقولُ «م» لِـ «ر»: (يا «ر») قال «س»: أن تحمِلَ الكتابَ لِأَحمدَ.

٢- يقولُ «م» لِـ «ر»: (يا «ر») قال «س»: احْمِلِ الكتابَ لِأَحمدَ.

٣- يقولُ «م» لِـ «ر»: (يا «ر») احْمِلِ الكتابَ لِأَحمدَ.

٤- يقولُ «م» لِـ «ر»: (يا «ر») علَيْكَ أن تحمِلَ الكتابَ لِأَحمدَ.

وفي كلِّ واحِدةٍ مِن الصُّوَرِ الأربع التي يستطيعُ الوَسيطُ بها إبلاغَ رسالةِ المرْسِلِ إلى المتلقّي، يمكنُ أن تُضافَ كلماتٌ وعباراتٌ، لكنّ هذه المَزيداتِ هي حَشْوٌ وتُوضَعُ بَيْنَ قوسَيْنِ؛ لِأَنّ إظهارَها أو عَدَمَ إظهارِها لا يُوجِدُ صُورةً خاصّةً. فمِن ذلك مَثَلًا أنّ الوسيطَ يمكنُ أن يقولَ للمُتلقّي: (قال لي «س» أن أقولَ لك...)، ولا تكونَ عبارةُ (أن أقولَ) ضَروريّةً. وهي إن أُدّيَتْ وإن لم تُؤدَّ مُستترةٌ في الكلام. في الصّورتَيْنِ الثّالثةِ والرّابعة، التّعبيرانِ (قال س:) و(قال س أن) حُذِفا مِن البَيْنِ. وهذه الصّورةُ تَظهَرُ عندَما يكونُ المُتلقّي مُنتظِرًا رسالةَ المُرْسِلِ في شأنِ الكتاب، ويكونُ الوَسيطُ مُطَّلِعًا أيضًا على هذا الانتظار.

والآنَ علَينا أن نضَعَ في الحسبانِ عددًا مِن النِّقاط:

١- في الصّورتَيْنِ الأُولَيَيْنِ، المحادَثةُ بيْنَ المُرْسِلِ والوَسيط مُباشِرةٌ، وبيْنَ المُرْسِلِ والمُتلقّي غيرُ مُباشِرةٍ، ومِن خلالِ وَسيط.

٢- في الصُّوَرِ الأربع التّالية، المُحادَثةُ بيْنَ الوَسيطِ والمُتلقّي مُباشِرةٌ، وبيْنَ المُرْسِلِ والمُتلقّي غيرُ مُباشِرة.

٣- في الصُّوَرِ السِّتِّ كُلِّها، العلاقةُ بيْنَ المرْسِلِ والوَسيطِ والمُتلقِّي رُوِيَتْ بوساطة الرّاوي، وتَبَعًا لذلك تكونُ عباراتُ الابتداءِ قبْلَ النّقطتَيْنِ مِثْل: (يقولُ س لِـ م)، مَزيداتٍ مِن الرّاوي، ويكونُ وجُودُها في رِواية الرّاوي لازِمًا. هناك أيضًا كلماتٌ هي زِياداتٌ مِن الوَسيطِ بيْنَ طَرَفَي المُحادَثة.

٤- رسالةُ المُرْسِلِ إلى المتلقّي في النّماذِجِ السِّتّة تكونُ في أصِلِ المُحادَثةِ جُمْلةً أَمْريّةً واحِدة. لكنْ يمكنُ أن تكونَ مشتملةً على عدَدٍ أكبَرَ مِن الجُمَل في وُجُوهِ الخَبَرِ والاستفهامِ والأَمْرِ والتّعجُّبِ وكذا على تَراكيبَ مِن أنواعِ الجُمَل. والوَسيطُ أيضًا يمكنُ أن يَحْكيَ عَيْنَ أقوالِ المُرْسِلِ بغَيْرِ تصرُّفٍ البتّةَ، أو ينقُلَها مَعَ حِفْظِ مَعْناها في أيّةِ صُورةٍ يَشاؤها.

٥- المُرْسِلُ بسَببِ عَدَمِ حُضورِ المُتلقّي، يُوصِّلُ حديثَه إلى المُتلقّي بطريقِ الوَسيط، ويُبلِغُ رسالتَهُ بطَريقِ الوَسيطِ إلى المتلقّي. فإن حَضَرَ المُتلقّي، استطاعَ أن ينقلَ كلامَه مُباشَرةً إلى المتلقّي مِن دونِ أيِّ إشكالٍ ومانِعٍ.

٦- كُلٌّ مِن المُرْسِلِ والمُتلقّي والوَسيطِ يمكنُ أن يكونَ شخصًا واحِدًا أو أكثَرَ مِن شخصٍ واحِد.

٧- إذا ما استمرّتِ المُحادَثةُ، أبلَغَ مُتلقّي الرّسالةِ أيضًا كلامَهُ بطَريقِ الوَسيط إلى المُرْسِلِ الأوّل، الذي في هذه الحالةِ ستكون لَدَيه صُورةُ المُتلقّي. وعاديٌّ أنّ المُحادَثةَ بيْنَ طَرَفَي مُحادَثةٍ تحصُلُ شَفَهيًّا بوُجُودِ فاصِلٍ مكانيٍّ كبيرٍ بيْنَ الطّرَفَيْنِ وبطَريقِ وَسيطٍ، لا يمكنُ أن تَطُولَ.

٨- عندَما يحصُلُ المُتلقِّي بطَريق وَسيطٍ كتابيٍّ على رسالةِ المُرْسِلِ، عندَما يتعذّرُ عليه الوصولُ إلى مُرْسِلِ الرّسالة، تكونُ مُحادثتُهُ مَعَ مَتْنٍ، ومِن طَريقِهِ يعْرِضُ أسئلتَه وإجاباتِه.

الوَحْيُ أيضًا مُحادَثةٌ تحصُلُ بوَسيطٍ. لكنْ في الوَحْي يكونُ مُرْسِلَ الرّسالةِ اللهُ تعالى ويكونُ الوسيطَ الرّسولُ، ويكونُ المُخاطَبَ الرّسولُ وجميعُ النّاسِ أيضًا[٢]. وإنّ الشّخصيّةَ والمَقامَ والموقِعَ الخاصّةَ بالفَرْد، التي يتحلّى بها الوسيطُ في صِلتِهِ بالمرْسِلِ في عمليّة الوَحْي، والمَقامَ والمنزِلةَ اللّذَيْنِ يعلوانِ على مَقامِ البشَر ومنزلتهم لَدَى مُرْسِلِ الرّسالة، ينشَأ عنها أنّ كلامَ الوَحْيِ وطريقةَ بَيانه وبِنيتَه تأخُذُ وَضْعًا خاصًّا واستثنائيًّا تمامًا، بعيدًا تمامًا عن عاداتِنا وتوقُّعاتِنا قياسًا إلى المحادَثةِ بوجودِ وسيطٍ بَيْنَ النّاس. وسَبَبُ ظُهورِ هذه الطّريقةِ البَيانيّةِ الخاصّةِ هي الشّروطُ والموقِعُ الخاصُّ، أو على جِهةِ العُمومِ السِّياقُ أو مُقتضياتُ الأحوالِ التي تحكُمُ المحادَثةَ بِناءً على عقيدة المسلمين، التي يمكنُ أن يُشارَ إليها بأبرزِ مَظاهرِها:

١- مُرْسِلُ الرّسالةِ أو المتكلِّمُ خَلَقَ الموجوداتِ كلَّها، ومِنها الوَسيطُ وكلُّ النّاس. وعِلْمُهُ وقُدرتُه لا نِهايةَ لَهُما، إذ يرى الجميعَ ولا يَراهُ أحَدٌ، وهو العَليمُ بأحوالِ جميع البَشَر في الماضي والحاضِرِ والمستقبَلِ، ويعْلَمُ أسئلتَهم مِن دون أن يعبِّروا عنها بألسنتهم.

---

(٢) في بحثنا، لا تختلفُ كيفيّةُ الوَحْي حينَ يكونُ مُخاطَبُ الحقِّ تعالى الرّسولَ ﷺ مباشرةً، أو بوَساطةِ جبريل. وفي الأحوالِ كلّها، الرّسولُ ﷺ وَسيطٌ بينَ الحقّ والخَلْق، وكلامُ الله يُوصَلُ بِطَريقِه إلى النّاس. وفي شأنِ كيفيّتِهِ وأنواعِه، يُنظَر:

- المَيْبَديّ، أبو الفَضْل رشيدُ الدّين، كَشْفُ الأسرار وعُدّةُ الأبرار، بتحقيق علي أصغر حكمت، انتشارات امير كبير، ١٣٦١هـ.ش، ج٩، ص٤٣-٤٤ [الأصل].

٢- مُرْسِلُ الرّسالةِ في عَيْنِ الوقتِ الذي يكونُ فيه غائبًا عن أبصارِ جميعِ المُتلقِّينَ للرّسالة (النّاس) وحتّى عن بَصَرِ الوَسيطِ (الرّسولِ)، يكونُ موجودًا في كلِّ الأزمانِ وكلِّ الأمكنة، ومُبصِرًا أعمالَ كلِّ مُتلقِّي الرّسالة وأحوالَهم وفِكَرَهم. وبِناءً على هذا، يكون قادرًا على أن يكلِّمَ مُباشَرةً بغيرِ وَسيطٍ كلَّ إنسانٍ، فَرْدًا كان أم مجموعًا. وكلامُه بطَريق وَسيطٍ معَ الآخَرين لَيْسَ سَببُه الفاصِلَ المكانيَّ والبُعْدَ عن المُخاطَبينَ أو غيابَهم عنه، بل مبعثُه أنّ المُخاطَبينَ لا يَقدِرون على سَماعِ كلامِهِ وفَهْمِهِ إلّا بطَريقِ وسيط. وبِناءً على ذلك يَقدِرُ على:

أ- أن يُكلِّمَ الوَسيطَ نفسَه مُباشَرةً في شأنِ أحوالِهِ وفِكَره وأسئلته، ويكونَ مُخاطَبُهُ الوسيطَ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٢ - ٣].

ب- أن يتكلّمَ بِطَريقِ الوَسيطِ مُباشَرَةً معَ الآخَرين. ويَعْني ذلك أنّه لا يقولُ للوَسيط: (قُلْ لِلنّاسِ كذا)، بل يغدو الوسيطُ فقط وسيلةً لِلْإحساسِ برسالتِهِ وإمكانيّةِ سَماعِها مِن الآخرينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧٠].

ج- أن يُوصِلَ رسالتَهُ بطَريقِ الوَسيطِ على نحوٍ غيرِ مُباشِرٍ إلى المُخاطَبين، ويقولَ لِلْوَسيط: قُلْ لَهُم كذا..: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

٣- كلماتُ المُرْسِلِ قابلةٌ لِلسَّماعِ والفَهْم، فقط مِن فَمِ وَسيطٍ واحِدٍ (الرّسول)، والوَسيطُ إبّانَ إدراكِهِ كلماتِ المرْسِلِ يَقَعُ في حالةِ عَدَمِ اطّلاعٍ (بالفارسيّة: دَرْ نا آگاهی) مُؤقّتةٍ، ولا يتحدّثُ إلّا بما وَصَلَ إليه، ولا يكونُ قادرًا على أصْغَرِ تَصرُّفٍ بكلماتِ المُرْسِلِ بطَريقِ حَذْفٍ وإضافةٍ وتغييرٍ وأيِّ تصرُّفٍ آخَرَ.

٤- لا الوَسيطُ، ولا أيُّ شَخْصٍ آخَرَ، قادرٌ على أن يُكلِّمَ اللهَ مُباشَرةً وبطَريقِ اللّسانِ أو الوَسيط. ما يَمُرُّ بخاطِرِ كلِّ مُخاطَبٍ بكلامِ الله، يُبيِّنُه اللهُ [تعالى]، وبطَريقِ الوَسيط يتظهَّرُ بصُورةِ كلامٍ محسوس. وبناءً على هذا، معَ أنّه في الظّاهِرِ كلماتُ الآخَرينَ غيرِ الله أيضًا تَتبيّنُ بِلسانِ الوَسيط، قائِلُ كلِّ تلك الكلماتِ على الحقيقة هو اللهُ أيضًا. ولِهذا السّبَبِ، معَ أنّه في عالَمِ مَتْنِ القرآن يتكلَّمُ اللهُ والرّسولُ والأنبياءُ السّابقونَ والمَلائكةُ وأُناسُ الحاضِرِ والماضي أيضًا [في زمان تنزُّلِ القرآن]، الجميعُ صامتونَ على الحقيقة، والمتكلِّمُ الأوحَدُ هو اللهُ [تعالى].

٥- مُرْسِلُ الرّسالةِ (اللهُ) هو في اعتقادِ المؤمنينَ حاضِرٌ على امتدادِ الزّمانِ ويحضُرُ. ولِهذا السَّببِ، يُمكنُه في أثناءِ الكلامِ في شأن الماضي والحاضِرِ أن يتكلّمَ بضَمير الغائبِ (هو)، أو بضَميرِ المتكلِّمِ (أنا، نحنُ). ويمكنُه أيضًا في شأنه [تعالى] أن يستعمِلَ الفِعْلَ المبْنيَّ لِلْمعلوم أو الفِعْلَ المَبْنيَّ لِلْمجهول، سَواءٌ أكان ذلك بصِيغةِ المجهولِ أم بصِيغةِ المعلوم بمَعْنَى المجهول. وعلى هذا النّحو، عندَما يكونُ اللهُ (أنا) و(نحنُ) و(هو)، يمكنُ كلامَهُ أن يتّضحَ مِن دون أيّ توضيحٍ وإشارةٍ باللّغة إلى (أنا) و(نحنُ)

و(وهو)، ويتغيَّرَ بحُرِّيّة، وسيتغيّرُ يقينًا فِعْلُ الجُمْلةِ أيضًا تَبَعًا لتغيُّرِ المُتكلِّم. وهذا التّغيّرُ الحُرُّ لِلْمُتكلِّم ينطبِقُ أيضًا على مُخاطَبي القُرآن. المُخاطَبُ الأصْليُّ بكُلِّ كلامِ الله هو (الرّسولُ) (عليه الصّلاةُ والسّلامُ)، ثمّ بطَريقِهِ النّاسُ جميعًا. أمّا الحضورُ الدّائمُ لله في الزّمان فينشَأُ عنه أنّ النّاسَ جميعًا مِن الماضي أو الحاضِرِ يتكلّمون معَهُ [تعالى]، كلامًا يُنقَلُ مِن قَوْلِ الله؛ على حين في الظّاهِرِ المتكلِّمُ هم الآخَرون. وعندَما يتكلَّمُ الآخَرونَ، يتولّى اللهُ عَمَلَ الوسيطِ. لِأنّه مِن ناحيةٍ يُبيِّنُ أحوالَهم وأعمالَهم وكلماتِهم في صورةِ راوٍ واحِدٍ وعَليمٍ بكلِّ شيء، ومِن ناحيةٍ أخرى يغدُو هو أيضًا مُخاطَبَهم وطَرَفًا في مُحادَثتهم في صُورةِ شخصيّةٍ حاضِرةٍ على امتدادِ الزّمان. بينَما الوَسيطُ (رسولُ العَصْرِ) هو فقط المُتكلِّمُ الذي يَرْوي سِيَرَ الماضينَ في علاقتِهم به. وبِناءً على هذا، يكونُ رُسُلُ الماضي وأُناسُهُ وكذا الرّسولُ الحاضِرُ (الوَسيطُ) وأُناسُ العَصْر، مُخاطَبي الله [تعالى]، ويكونُ هو أيضًا مُخاطَبَهم. وما أكثَرَ ما يحدُثُ [في القرآن]، مِن دُون أيّ شَرْحٍ وإيضاحٍ وإشارةٍ، أن يتغيَّرَ المُخاطَبونَ أيضًا، وأن يُغيِّرَ المتكلِّمُ وِجْهةَ الكلامِ الموجَّهِ إلى المخاطَبينَ.

وهذا التّغييرُ والتّحوُّلُ الحُرُّ لِلْمُتكلِّمِ والمُخاطَبِ، الذي كثيرًا ما يظهَرُ في القُرآن مِن دونِ أيّةِ إشارةٍ أو إعلامٍ ونجدُه بَيْنَ الفَيْنةِ والأخرى، والذي كثيرًا ما يصحَبُ فيه تغييرُ المُخاطَبِ تغييرَ أساسِ معْنَى الكلام، يجعَلُ صُورةَ بِنْيةِ لُغةِ القُرآن أيضًا مُخالِفةً للمألوفِ المُعتادِ تمامًا، ومنحصِرةً بِفَرْدٍ. التّغييرُ الحُرُّ للمُتكلِّمِ والمُخاطَبِ النّاشئُ عن حُصولِ الكلامِ في شُروطٍ

وسِياقٍ خاصٍّ مُتحكِّم بالكلامِ، يُخَلْخِلُ البناءَ الطّبيعيَّ لِلّغةِ المنتظَرةِ ويُحبِطُ تَوقُّعَ سامِعِ القُرآنِ وقارئِهِ مِن ناحيةٍ، ويقطَعُ التَّسَلْسُلَ المَنْطقيّ لِتأليفِ المَعاني مِن ناحيةٍ أخرى. ونَرَى هذا القَطْعَ حتّى في روايةِ قِصَصِ الأُمَمِ السّابقة. وفي القُرْآنِ، بصَرْفِ النّظَرِ عن أنّ قِصَصَ الأنبياء في كثيرٍ مِن الأحيان تُعْرَضُ في تضاعيفِ الكلام وتُقطَعُ بَعْدَ بَيانِ جُزْءٍ مِنها ثمّ بَعْدَ ذلك مَرّةً أخرى تُذْكَر أجزاءٌ مِنها في السُّورةِ نفسِها أو في سُوَرٍ أُخَر، يأتي عَرْضُ القِصّة في الأعمّ الأغْلَبِ بغَيْرِ مُقدِّمةٍ وغيرَ مُنتظَرٍ.

المَسائلُ المَعْروضةُ في كلِّ سُورةٍ متنوِّعةٌ، وتبدو في الظّاهِرِ مُنقَطِعًا بعضُها عن بعضٍ، على نَحْوِ أنّه لَوْ أزَلْنا مِن البَيْنِ (بِسْمِ اللهِ الرّحمن الرّحيم) التي تفصِلُ سُوَر القرآنِ بعضَها عن بعضٍ لَبَدا القرآنُ كِتابًا مِن قِطْعةٍ واحِدةٍ، نَجدُ فيه فِكَرًا مُتباينةً جدًّا مَصْحوبةً بقِصَصٍ تتكلَّمُ فيها شخصيّاتٌ مختلفةٌ في تضاعيفِ الفِكَر المُتنوِّعة. ومَعَ أنّ القائلَ الأصْليَّ والواحِدَ لِكُلِّ الفِكَر هو اللهُ [تعالى]، تَبْرُزُ في الظّاهر وعلى سَطْحِ عالَمِ المَتْنِ فِكَرٌ ومَطالِبُ على لِسانِ الحقِّ تعالى والأنبياءِ وحَضْرةِ الرّسولِ محمّد (عليه الصّلاةُ والسّلامُ) وشَخْصيّاتٍ أُخَرَ وحتّى أُناسٍ هم المُخاطبونَ الأصليّون، وتتداخَلُ وتتشابَكُ، وهي في عَيْنِ التّفرُّقِ والتّشتُّتِ الظّاهِريّ تنطوي على تَرابطٍ مُسْتَسِرٍّ كامِنٍ.

النَّظْمُ المتشتِّتُ والمخالِفُ لِلْعادةِ ولِلْمنطِقِ المُتعارَفِ في البيان، الذي أَلْقَى ظِلالًا مُستدامةً مِن الفَضاءِ القُدْسيّ على عالَمِ مَتْنِ القُرآن، مُتأثِّرٌ بمجموعةِ الظّروفِ الحاضِرةِ إبّانَ تحقُّقِ الوَحْي، التي لا يمكنُ أن نظفَرَ بنَظيرٍ لَها في أيِّ مَتْنٍ مِن المُتونِ القديمة، إلّا على نطاقٍ محدودٍ في المَثْنويّ المَعْنَويّ وغَزَليّاتِ شَمْس تَبْريز [لِجَلال الدّين الرّوميّ] وغزَليّاتِ حافظٍ [الشّيرازيّ].

...وههنا، ابتغاءَ اطّلاعِ أكبَرَ على عالَمِ مَتْنِ القُرآن ننقُلُ أجزاءً مِن سُورة طه. وقبْلَ ذلك، نُوردُ الآياتِ الأخيرةَ مِن سُورةِ مَرْيَم التي فُصِلَتْ بالبَسْملةِ عن سُورةِ طه، لكي يظهَرَ ترابُطُهما على نَحْوٍ جَليٍّ:

- مِن سُورة: مريم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ [مريم: ٩٦ - ٩٨].

- مِن سُورة: طه:

﴿طه ١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ٢٣ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ

أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰٓ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ١ - ٥٧].

الآياتُ ٩٦-٩٨، وهي آخِرُ الآياتِ مِن سُورة مَرْيَم، يُلاحَظُ فيها الآتي:

في الآية ٩٦، اللهُ يتكلَّمُ علَيهم (المؤمنين، بضَمير جَمْعِ الغائبينَ) معَ النّبيِّ (عليه الصّلاةُ والسّلامُ).

في الآية ٩٧، بغَيْرِ فاصِلٍ يتوجَّهُ الكلامُ إلى النّبيّ (بضَمير المفرَدِ المخاطَب). ويُتكلَّمُ معَ (أنتَ)، في شأن (النّبيّ)، و(نَحْنُ) (اللهُ/ المتكلِّمُ).

في الآية ٩٨، ثانيةً يأتي الكلامُ إليهم (بضَمير جَمْعِ الغائبين)، ويُتكلّمُ معَ الضّمير (أنتَ)، وقَبْلَ أن تنتهيَ الآيةُ يتوجَّهُ الكلامُ مرّتَيْنِ إلى ضمير المفْردِ المخاطَبِ (أنتَ) (النّبيّ)، ويغدو (أنتَ) مُباشَرةً طَرَفًا في الخطاب.

السُّورةُ التي تأتي بعْد [طه] تبدَأُ بخطابٍ مباشِرٍ لِلنّبيّ، ويُتحدّثُ معَ هذا المخاطَبِ مُباشَرةً في شأنِهِ هو و(نَحْنُ). لكنْ بعْدَ ذلك يُغيَّرُ الضّميرُ مِن (نَحْنُ) إلى الضّمير (أنا).

في الآية ٤، يُغيَّرُ الضّميرُ (نَحْنُ) وأفعالُ الجَمْعِ المُناسِبةُ له إلى الضّميرِ (هو) والأفعالِ المُفردةِ المُناسِبةِ له. اللهُ (المُتكلِّمُ) يقولُ عن ذاته بِصيغة الغائبِ المُفرد: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾. تكلُّمُ الشّخصِ الأوّلِ (الله) في شأنه بضميرِ المفْرَد الغائب (هو) يستمرُّ إلى الآية ٨.

مِن الآية ٩ يَرْوي الحقُّ تعالى (المتكلِّمُ) جوانبَ مِن قِصّة موسى لِلنّبيّ بصيغة المفْرَدِ المُخاطَب (أنتَ). لكنّ الرّاوي (الله) يشترِكُ في أَحْداثِ قِصّة موسى في صورةِ شخصيّة واحدة.

في الآية ١١، يُعْلِنُ الرّاوي (الله/ المتكلِّمُ) عن حضورِه في الحكاية بفعلٍ ماضٍ مبنيٍّ للمجهول مُسْنَدٍ في الأصل إلى المفرَدِ الغائب: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾. أمّا في الآياتِ اللّاحقةِ فإنّ الرّاويَ الذي هو الله تعالى يَدخُلُ في الأحداثِ مباشرةً ويتكلَّمُ معَ موسى بصيغة المفرَدِ المُتكلِّم (أنا)، وينقُلُ لنا تعالى في مقام الرّاوي إجاباتِ موسى مُستعمِلًا كلمةَ (قال): ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ ...﴾ [طه: ١٨].

في الآية ١٩، خِلافًا لِما جاء في الآياتِ السّابقة، يذكرُ اللهُ تعالى ذاتَهُ مِثْلَ موسى أيضًا بصيغة المفْرَدِ الغائب (هو): (قالَ [الله تعالى:] ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾).

في الآية ٢١ أيضًا، يتكلَّمُ الله تعالى نفسُهُ بضَميرِ المفرَدِ الغائب: (قالَ

[اللهُ تعالى:] ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾، لكنْ في آخِرِ الآية، يُستبدَل بضَمير المفرَدِ الغائبِ ضميرُ الجَمْعِ المتكلِّم: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾. وفي الآياتِ اللّاحقةِ تستمرُّ المُحادَثةُ على هذا النّحو، ويتكلّمُ اللهُ تعالى بضَمير الجَمْعِ المتكلِّم (نحنُ)، وينقُلُ كلماتِ موسى.

أمّا في الآيَتَيْنِ ٤١ و ٤٢، فيتكلَّمُ تعالى بضمير المفرَدِ المتكلِّم (أنا) معَ موسى وهارونَ أخيه، الذي بطَلَبِ موسى عَمِلَ مُساعِدًا له: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۝٤١ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾، ويستمرّ كلامُ الله تعالى في خطابِ موسى وهارونَ حتّى الآيةِ ٤٧.

الآيةُ ٤٨، بغَيْرِ مقدِّمةٍ ومِن دونِ أن تتكلَّم على مَجيءِ موسى وهارونَ إلى مَقَرِّ فرعون وكيفيّةِ حُضورهما أمامَهُ، تبدَأُ بكلامِ موسى وهارونَ في خطاب فِرْعونَ. حتّى إنّه لم يُقَلْ في الآية: (ذهبَ موسى وهارونُ إلى فرعونَ، وقالا:). وهذا الحَذْفُ لِجُمَلٍ لازمةٍ لِرَبطٍ مُناسِبٍ لِلْفِكَر هو أيضًا مِن جُمْلةِ انكساراتِ الأسلوب في مَتْنِ القُرآنِ، التي تأتي مُخالفةً لِتوقّعاتِ القُرّاءِ وانتظارِهم وعاداتهم الكلاميّة.

ولهذا السّبب، تأتي هذه الصُّوَرُ مِن الحَذْفِ في كُتُبِ التّفسير ممتلئةً بالتّوضيحاتِ القليلة أو الكثيرة بأقلامِ المُفسِّرين. ووُجودُ هذه المواضِعِ الخاليةِ الكثيرةِ بينَ آياتِ القُرآنِ، الذي كثيرًا ما يضطرُّ القارئَ إلى التّوقُّفِ والتّأمُّلِ، هو أيضًا إحدى خاصِّيّاتِ البِنْيةِ البيانيّة لِلْقُرآن، التي سنتحدّثُ عنها في موضعٍ آخَر مِن هذا البَحْث.

وابتداءً مِن الآية ٤٨، تستمِرُّ المُحادَثةُ بَيْنَ موسى وهارونَ وفرعونَ.

الآيةُ ٥٣، ابتداؤها في الظّاهِرِ تتمّةٌ لِمُحادَثاتِ موسى لِفرعون، لكنْ في وَسَطِ الآية ومِن دونِ أيِّ توضيحٍ ومقدِّمةٍ يتغيّرُ المُتكلِّمُ فيتكلّمُ اللهُ تعالى،

وهذه إحدى الصُّوَرِ الغريبة جدًّا لِلْأسلوبِ البَيانيّ القُرآنـيّ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

ومِثْلَما يُلاحَـظُ، الكـلامُ حتّـى قولِـهِ تعـالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾. هـو كلامُ موسى في خِطابِ فرعونَ، حيثُ يتكلَّمُ معَهُ في شأن إلهِهِ؛ أمّا مِـن قولِـه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا ...﴾ فإنّ الفعْلَ يتغيّرُ إلـى فِعْـلِ جَمْـعِ المتكلِّمـينَ (أَخْرَجْنـا)، ويتغيّـرُ المـتكلِّمُ علـى حِـينِ غِـرّةٍ ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾.

ويمكـنُ هنـا أن نُسْـنِدَ الفِعْـلَ (أَخْـرجَ) إلـى الأناسـيِّ ومِـنهم موسـى وفرعونُ، ونجعَلَ المعنَى: أنزلَ اللهُ مِن السّماءِ ماءً لكي نُخرجَ (نَحنُ) أنواعًـا مختلفةً مِن النّباتـات، أي نزرعَهـا. لكـنْ علـى افتـراضِ أنّنـا نقبَـلُ مِثْـلَ هـذا التّأويل، لا شكّ في أنّه في الآياتِ التي تأتي بعْدَ الآية ٥٣، لا يمكنُ المُتكلِّمَ أن يكونَ موسـى، ويقينًـا يكـونُ اللهُ هـو المُـتكلِّمَ، وقـد حـدثَ هـذا التّغييـرُ للمُتكلِّمِ مِن دونِ أيّة قَرينةٍ وأيّ وَسيطٍ، ومِن دونِ أيّة مقدِّمة. وهذا عَيْنُهُ دليلٌ على أنّ هذا التّغييرَ لِلْمُتكلِّمِ مِن المفرَدِ الغائب (موسـى، هـو) إلـى المُـتكلِّمِ (الله، نحنُ) قد بَدَأ مِن النّصف الثّاني لِلْآيـة ٥٣ وبالفِعْـلِ (أخْرَجْنـا). كـذلك استُعْمِلَ في تفسير (جامِع البَيـان) لِلطَّبَـريّ، وفـي تفسـيرِ (كَشْـف الأسـرار) لِلْمَيْبَديّ، التّفسيرُ نفسُه. جاء في تفسير (كَشْف الأسرار) لِلْمَيْبَـدي: «وقولُـه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: مِن ناحيةِ السَّماء، مـاءً (مَطَـرًا). وهنـا تـمَّ جـوابُ مُوسى. ثمّ تغيّر الخطابُ. قال رَبُّ العِزّةِ جَلَّ جَلالُه: (فَأَخْرَجْنا)»[٣].

(٣) المَيْبَديّ، أبوالفَضْل رشيدُ الدّين، كَشْف الأسـرار وعُـدّة الأبـرار، ج٦، ص١٣٢. وانظُـرْ أيضًا: الطّبريّ، أبو جعفر محمّد بن جريـر، جـامِعُ البَيـان عـن تأويـل آي القـرآن، ج١٦، ط٢، القاهرة ١٩٥٤م، ص١٧٤ [الأصل].

في الآيَتَيْنِ ٥٤ و ٥٥، بعْدَ الجُزْءِ الأخير مِن الآية ٥٣، المُتكلِّمُ هو الله أيضًا والنّاسُ هم المخاطَبونَ. وهاتانِ الآيتانِ غيرُ مرتبطتَيْنِ بقِصّة موسى وفرعون.

في الآية ٥٦، يعودُ الحقُّ تعالى مرّةً أخرى إلى قِصّة موسى وفرعونَ ويَعرِضُ لِلْقصّةِ مِن بدايتها.

البحثُ في الأساليبِ البَيانيّةِ القرآنيّة المحبِطةِ لتوقّعِنا وعاداتِنا وانتظارِنا، نحنُ البَشَرَ، في غاية التّنوّعِ والاتّساع. ففي سُورةِ الفاتحة مَثَلًا، النّاسُ هم المتكلِّمونَ والله تعالى هو المخاطَبُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وفي الآياتِ الأخيرة مِن سُورة (الصّافّات)، يشيرُ الحقُّ تعالى، الذي يكلِّمُ النّبيَّ، بإيجازٍ شديدٍ إلى سِيَرِ الأنبياء، وبعْدَ كلماتٍ أُخَر يقولُ في الآياتِ ١٥٩-١٦٣: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾. هذا الكلامُ كما هو ظاهِرٌ كلامُ اللهِ معَ النّبيّ. وفي الآيَتَيْنِ ١٥٩ و١٦٠، يتحدّثُ الحقُّ تعالى (عنهم) معَ النّبيّ. أمّا في الآيةِ اللّاحقةِ ١٦١ فإنّ الضّميرَ (هُمْ) يتحوّلُ إلى (أنتُمْ). وهكذا يبدو أنّ الله يُوجِّهُ الكلامَ إليهم مُباشَرةً، ويُخاطِبُهم بالضّمير (أنتُمْ)، مِن دونِ أنّه بناءً على انتظارِنا تُقالُ هذه الجُمْلةُ هكذا مَثَلًا: (أيُّها النّبيُّ قُلْ لَهُمْ: أنتُمْ و... وفي آخِرِ الآيةِ أيضًا، جاء (هُوَ) في مَحَلِّ (أنا).

أمّا الأمْرُ اللّافتُ للانتباه، فهو أنّه عُقْبَ الآية ١٦٣، تتابَعُ الآياتُ على هذا النّحو: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٦٤ - ١٦٩].

ومِثْلَما يُرى، في الآيات ١٦٤ إلى ١٦٦ نجدُ أنّ اللهَ [تعالى] الذي كان قَبْلُ يتكلَّمُ بصيغةِ الرّاوي المفْرَدِ الغائبِ (هو، الله) معَ النّبيّ في شأنهم

(هم)، يَتحوّلُ مِن دون أيّة إشارةٍ إلى المتكلِّم بضمير الجَمْع (نَحْنُ)، ويتغيّرُ موضوعُ الكلامِ أيضًا، لكنّه لا يمكنُ نِسْبةُ موضوعِ الكلامِ إلى الله سُبْحانَه. وفي هذه الآياتِ، لا يَنْطوي نَسيجُ الكلام على أيّةِ إشارةٍ تجعَلُنا نفهَمُ: مَنِ المُتكلِّمُ، ومَنِ المُخاطَبُ؟ - وهلِ المُتكلِّمُ (نحنُ) في الآيات ١٦٤-١٦٦ واحِدٌ أو أنّهم أشخاصٌ مختلفون.

وبِسَبَبِ هذا الإبهامِ نفسِه، يختلفُ المُفسِّرون أيضًا في تحديد المتكلِّمِ والمخاطَبِ في هذه الأمور، ويَتحدّثونَ بشيءٍ مِن الشّكِّ والتّردُّد. ويُوضِحُ المَيْبَديُّ في شأن هذه الآياتِ قائلًا:

(في قولِه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، يذهَبُ المفسِّرونَ إلى أنّ هذا كلامُ المَلائكة. جاء جِبْريلُ وقال لِلْمُصْطفَى: مَا مِنّا مَلَكٌ إلّا له في السَّماءِ مَقامٌ معلومٌ، يَعبُدُ اللهَ هناكَ. أي إنّنا عَبيدٌ وعابدونَ، ولَسْنا مَعْبودينَ، مِثْلَما يقولُ الكافِرون...)[٤].

ومِثْلَما يُلاحَظُ، وبناءً على تفسيرِ المَيْبَديّ في أوّلِ الآيات التي ذكَرْناها، يغدو المُتكلِّمُ جِبْريلَ، الذي يتحدّثُ معَ النّبيّ في شأنِهِ هو وفي شأنِ الملائكة. وبعْدَ ذلك، يكتُبُ المَيْبَديُّ مُعلِّقًا على الآيات التّالية:

(﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾، قال الكَلْبيُّ: «هُمْ صُفوفُ المَلائكةِ في السّماءِ لِلْعِبادة كصُفوفِ النّاسِ في الأرض ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾...». قال قَتادةُ: «كان الرِّجالُ والنّساءُ يُصَلُّونَ معًا»... ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾. وقِيلَ: «الضّميرُ ها هُنا راجعٌ إلى النّبيّ ﷺ والمؤمنينَ ومَنْ خاطَبَهُم مِن الكُفّار. يعني: لَيْسَ مِنّا ومنكم إلّا مَن لَهُ في الآخِرة مَقامٌ معلومٌ».

(٤) المَيْبَديّ، كَشْف الأسرار وعُدّة الأبرار (سابق)، ج٨، ص٣١٠ [الأصل].

وكذلك قولُهُ: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾، المُرادُ به النّبيُّ ﷺ والمؤمنون. يعني: نحنُ الصّافّونَ لِلهِ في الصّلاة، ونحنُ المسَبِّحونَ المُمَجِّدون المُنزِّهونَ اللهَ عن السّوء. وقِيلَ: ما مِنّا يومَ القيامةِ إلّا مَنْ له مَقامٌ معلومٌ بينَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وجَلّ.

ثمّ أعادَ الكلامَ إلى إِخْبارٍ عن المشركينَ فقال: (وَإِنْ كانُوا...)[٥].

ومِثْلَما يلاحَظُ، يؤوِّلُ الكَلْبيُّ (الصّافّونَ) بصُفوفِ الملائكةِ في السّماء، وبِناءً على هذا، يعودُ الضّميرُ (نحنُ) إلى الملائكة، وهم المتكلِّمونَ، أو إلى جِبْريلَ، الذي يتكلّمُ في شأنِهِ هو والمَلائكة بضَميرِ جَمْعِ المتكلِّمينَ. ويعتقِدُ قَتادةُ أنّ (الصَّافّونَ) في الآيةِ، إشارةٌ إلى الرّجالِ والنّساءِ الذين يُصَلّونَ معًا. وبِناءً على هذا، يعودُ الضّميرُ (نحنُ) إلى الرّجالِ والنّساءِ المصَلِّينَ، وهم المتكلِّمونَ. وقال آخرونَ: الضّميرُ (نحنُ) يعودُ إلى النّبيّ ﷺ والمؤمنينَ، ومُخاطَبوهم هم الكفّار. وبِناءً على هذا: المُتكلِّمُ إمّا أن يكونَ النّبيَّ الذي يتكلّمُ على نفسِه وعلى المؤمنين بضمير جَمْعِ المتكلِّمينَ، وإمّا أن يكونَ المؤمنينَ الذين يتكلّمونَ على أنفسهم وعلى النّبيّ. بعضٌ آخَرُ، عَدَّ الضّميرَ (نحنُ) عائدًا إلى النّبيّ والمؤمنين، لكنّه لم يَعُدَّ الكُفّارَ مُخاطَبينَ. وفي الموضِعَيْنِ المتقدِّمَيْنِ، يَعني قولَ الكَلْبيِّ وقتادة، لم يكنِ المُخاطَبُ معلومًا.

ويكتبُ المَيْبَديُّ، بعْدَ نَقْلِ الأقوالِ في شأن الآياتِ وتوضيحها على نحوِ ما قَدّمْنا، في شأنِ الآية ١٦٧ قائلًا: (ثمّ أعادَ [اللهُ تعالى] الكلامَ إلى إِخْبارٍ عن المشركينَ، فقال: (وإن كانوا). أي: مَرّةً أخرى، يغدو المتكلِّمُ اللهَ والمخاطَبُ النّبيَّ، والموضوعُ هو استمرارٌ لِلْكلامِ السّابق في شأنِ الإخبار عن المشركين.

والأمثلةُ التي ذكَرْناها وأوضَحْناها، ونلتقي في مَتْنِ القرآنِ كلّه بأمثالٍ لَها وبنَماذجَ أُخَرَ متنوّعةٍ، حاكيةٌ عن أنّ القُرآنَ خِلافًا لِلْكُتُبِ المُقدَّسة الأُخَر

(٥) المصدر السّابق نفسُه، ج٨، ص٣١١ [الأصل].

وَحْيٌ خالِصٌ يُوحَى بغَيْرِ تفسيرٍ وتصرُّفٍ مِن أيّ ضَرْبٍ كان، وأنّ النّبيَّ قد حَكَى ما أوحاهُ إليه اللهُ [تعالى] أو بطَريقِ جِبريلَ مِن دونِ أيِّ تغييرٍ وتصرُّفٍ بالمعنَى الحقيقيّ للكلمة.

...ويبدو لِزامًا، تَبَعًا لِما قُلْناه، أن نُبيِّنَ بإيجازٍ السِّياقَ الوَضْعيَّ الحاكمَ لظُهور الوَحْي، وأبرزَ خاصِّيّاتِ البِنْيةِ في الكلامِ المُوحَى به، النّاشئةِ عن حاكميّةِ ذلك السِّياق...

في الصّورة الظّاهرة، القُرآنُ مُحادَثةٌ بينَ مُرْسِلِ الرّسالة ومُتلقِّي الرّسالة بفَضْل وَسيطٍ، لكنّه في هذه المحادَثة كما أشَرْنا قَبْلُ يتحلَّى كلٌّ مِن مُرْسِلِ الرّسالةِ (الله تعالى) والوَسيطِ المبَلِّغ لِلرّسالة (النّبيّ) بمَقامٍ خاصّ وموقعٍ فَريدٍ تمامًا لا يمكنُ أن يتحقّقا في أيّة مُحادَثةٍ بينَ بَشَرَيْنِ. وهذا المَقامُ الخاصُّ والمَوْقِعُ الفريدُ ينشَأُ عنهما أنّ مُتلَقِّي الرّسالةِ، الذين هم وَسيطٌ وهم كلُّ النّاسِ، لهم في هذه المحادَثةِ وَضْعٌ خاصٌّ ومُنحَصِرٌ بِفَرْدٍ أيضًا.

وفي هذه المحادَثةِ، يكونُ كلٌّ مِن ذَوي العلاقةِ بالمحادثة تَبَعًا لِمُقتضَى الحالِ متكلِّمًا ومُخاطَبًا في الوقتِ نفسه. وبناءً على هذا، في عالَمِ مَتْنِ القُرآن يبدو في الظّاهر أنّ الجميعَ يتكلّمونَ، أمّا على الحقيقةِ فإنَّ الجميعَ صامتونَ، واللهَ وَحْدَه يتكلّمُ. ومِن وِجْهةِ النّظَرِ هذه، يمكنُ حُكْمَ ابنِ عَرَبيّ في شأن الحقِّ والخَلْق أن ينطبقَ على الحقّ وعَالَمِ مَتْنِ القُرآن. ففي عالَمِ مَتْنِ القرآنِ أيضًا، الحقُّ عَيْنُ الخَلْقِ والخَلْقُ عَيْنُ الحقّ(٦). وفي مَتْنِ العالَمِ أيضًا، الذي هو القُرآنُ التّكوينيُّ والغَيْرُ المكتوبِ لِلهِ وفيه كلماتُ الله لَيْسَ في صُورةٍ مكتوبةٍ ومَلْفوظةٍ بل هي أعيانُ الموجودات، يكونُ الحقُّ عَيْنَ

(٦) ابن عَرَبيّ، مُحيي الدّين، فُصوصُ الحِكَم، تعليقات أبو العلا عفيفي، الصّفحات ٤٤-٤٥، ٢٥٧-٢٥٨ [الأصل].

الخَلْقِ والخَلْقُ عَيْنَ الحقّ. والخَلْقُ لا يشمَلُ الأَناسِيَّ فقط، بل يشمَلُ أيضًا كلَّ الأشياءِ مِن كلِّ الأنواع. ففي القرآنِ حَتَّى النَّمْلةُ والهُدْهُد يتكلّمانِ.

ولِأنّ اللهَ [تعالى] عَليمٌ بكُلِّ أحوالِ الخَلْق وسَرائرِهم ورَغائبهم، ومِن جُملتهم النّبيُّ [عليه الصّلاةُ والسّلامُ]، يكون كلامُهُ في كثيرٍ مِن الأمور مُناسِبًا لِحالِهم ولِإجاباتِ الأسئلة التي تَعِنُّ لهم وتنبعِثُ في خواطِرِهم. لكنْ لَيْسَ لِزامًا أن يُظهِرَ الحَقُّ تعالى في كلّ مكانٍ أحوالَهم وأسئلَتهم، ثمّ بعْدَ ذلك بمُناسَبة تلك الأسئلةِ أو الأحوال يتكلَّمُ. فالتّكلُّمُ بمُقتضَى حالِ المخاطَبينَ ومَقالِهم عندَما لا يَعْرِضُ ذلك الحالُ والمَقالُ، ينشأ عنه أنّ الصِّلةَ بينَ المَطالِبِ والمعاني تبدو مُبْهَمةً ومُفكَّكةً، ويبدو السَّيْرُ المنطقيُّ لِلْكلامِ مُخالِفًا للمعتاد والمُنتظَر والمُتوقَّع عندَ قارئي القُرآن أو مستمعيه. وعلى هذا النّحو، في كثيرٍ مِن المواضِعِ يُوجَدُ بَينَ المعاني المختلفة لِمَتْنِ القرآن فَضاءٌ خالٍ حتّى في تضاعيفِ سَرْدِ القِصَص، وهو الأمرُ الذي يجعَلُ قارئي القُرآنِ أحيانًا غيرَ قادرين على تخطّي ذلك إلّا بمُساعَدةِ المُفسِّرينَ والمؤوِّلينَ. وهذا الأمرُ، شأنُه شأنُ التّغييرِ المفاجئ للمُتكلِّمينَ والمخاطَبين، مِن الأسبابِ المُهمّةِ لِلْإحساسِ بمُخالَفةِ المعتادِ في مَتْنِ القُرآن، والإبهامِ فيه.

الوَسيطُ (الرّسولُ) في عمليّةِ الوَحْي، مِثْلَما قُلْنا، له وَضْعٌ خاصٌّ. فهو في الظّاهِرِ متكلِّمٌ، وتظهَرُ رسالةُ المُرْسِلِ الغيرِ البادي لِلْعِيانِ على لِسانه، لكنّه على الحقيقة لا يتكلّمُ بكلمةٍ وصَامِتٌ. وبِناءً على ذلك، يمكنُ باعتبارٍ عَدُّهُ صامِتًا - متكلِّمًا، وباعتبارٍ آخَرَ متكلِّمًا - صامِتًا. وهكذا، يتكلَّمُ بِمَتْنِ القُرآنِ إنسانٌ لا يتكلَّمُ. فذلك الذي يتكلَّمُ في الظّاهر هو النّبيُّ ﷺ، وأمّا في الباطِنِ فالمتكلِّمُ هو الله تعالى. الإطارُ الوَضْعيُّ لِلْمُحادَثةِ الذي يشمَلُ مِن بينِ محتوياتِهِ المَقامَ والوَضْعَ والأحوالَ التي عليها طَرَفا المحادَثةِ في

التّرابط الإنسانيّ، ويشمَلُ عالَمَ المَقال، يؤثّرُ أيضًا تـأثيرًا مُباشِـرًا فـي طريقـة البيانِ وبِنْيته. وطبيعيٌّ أنّ إطـارَ وَضْـعِ المُحادَثـة فـي عَمَليّـة الـوَحْي، بسَـببِ ظُروفِ السِّياقِ والوَضْعِ الخاصِّ بالفَرْدِ المتحكِّمِ فيه، يتركُ تأثيرًا بـارزًا جـدًّا وغريبًا جدًّا في لُغةِ الوَحْيِ القُرآنيّ وبِنْيته، نادرًا ما يمكنُ مُلاحظتُهُ فـي أنـواعِ الخِطابِ في الأدب القديم الذي يُركّز على حِيازة المعنَى ومَنْطِقِ اللّغة(٧).

تأثيرُ هذا السِّـياقِ الخـاصِّ لِعَمَليّـةِ الـوَحْي تَبَعًـا لِمـا قُلْنـاهُ، نَـراه أظهَـرَ وأوضَحَ في المظاهِرِ الآتية:

١- القَطْعُ المتواصِلُ للتّرابُطِ المنطقيّ لِلْكلامِ بطَريقِ عَـرْضِ مَعـانٍ جديـدة وغيرِ مرتبطةٍ في الظّاهر بالمعاني السّـابقة، وتَنـاوُلٍ مِـن البدايـة لِمَعـانٍ سابقة فـي مكـانٍ آخَـر، علـى نحـوٍ تخفَـى فيـه عِلّـةُ ذلـك غالِبًـا علـى المخاطَبِ أو القارئ.

٢- تقـديمُ الحكايـاتِ مُراعـاةً لِلْحـالِ الرّوحيّـة لِلْمُخـاطَبين وفَهْمهـم، وقَطْعُها ووَصْلُها بطَريقِ عَرْضِ مَعانٍ ناشئةٍ مِن الحكاية، مِن دُونِ أن يلتزمَ الشّروعُ والقَطْعُ والوَصْـلُ فـي الحكايـات مَنْطِقًـا خاصًّـا لازِمَ الرِّعاية ومُنسجمًا معَ انتظار المخاطَبينَ وعاداتِهم وتوقّعاتِهم.

٣- التّغييرُ والتّبديلُ بغَيْرِ مقدّمةٍ، ومِن دُونِ قرينةٍ للمـتكلِّمِ والمخاطَـب، إلى دَرَجةٍ يكونُ فيها صَعْبًا أحيانًا تحديدُ مَـن يـتكلَّمُ، ومَـن يَسْـمَعُ. وهذا إلى حَدّ بعيد ناشئٌ عن تعدُّدِ المتكلِّمينَ والمخاطَبينَ الفَرْعيِّينَ في عالَمِ مَتْنِ القُرآن، ووجودِ وَسيطٍ بينَ مُرْسِلِ الرّسالةِ ومُتلقِّيها.

---

(٧) في هذا الشّأن، يُنظَر مقدّمةُ الكتابِ الآتي:

- Derrida Jacques, Speech and Phenomena, translated by David B. Allision, Northwestern University Press, 1973, p.p. IX-Xi.

٤- العِلْمُ الذي لا نهايةَ له لِمُرْسِلِ الرّسالة، أو المتكلِّمِ الأصْليّ، ينشَأ عنه أنّه أحيانًا يتكلَّمُ على أسرارٍ وحقائقَ لا يُحيطُ بشيءٍ مِنها عِلْمُ المخاطَبين وخِبرتُهم ومُسْتَوْعَبُ لُغتهم. وهذا الوَضْعُ يجعَلُ الكلامَ رَمْزيًّا ومُوجِدًا حقائقَ لا يتيسّرُ فَهْمُها إلّا مِن طريقِ تأويلِ المتأوّلين وإعمالِ أذهانهم. وفي هذه العَمليّةِ تتصادَمُ رَوابِطُ الدّالِّ والمدلولِ التي هي الأساسُ الأوّل في عِلْمِ العلاماتِ اللّغويّ، وتتّسعُ إمكانيّةُ التّأويلِ واستنباطِ المعاني الكثيرة مِن المَتْن.

والنِّقاطُ التي أتَينا على ذِكْرِها بإجمالٍ، ينشَأ عنها أنّ (البِنْيةَ البَيانيّةَ) في القرآن في صُورة الوَحْي الصِّرْفِ الذي لا تدخُّلَ فيه ولا تصرُّفَ ولا تفسيرَ، تبدو مُوجَزةً ومُبهَمَةً، وقِياسًا إلى السَّمْتِ الطّبيعيّ والمَنْطقيّ لِلْكلام والمُحادثة الذي أَلِفْناهُ واعتَدْناهُ تبدو هذه البِنْيةُ مُشتّتةً غيرَ منطقيّةٍ مُخالِفةً لِلعادة.

ووَراءَ هذا الظّاهِرِ المُشتَّتِ، تُوجَدُ وَحْدةٌ قابلةٌ لِأَن نُحِسَّ بها أكثَرَ مِن أن تكونَ قابلةً لِأَن نُدرِكَها بعُقولِنا. ولا نَرى في أيِّ كتابٍ (هذه الوَحْدةَ المترائيةَ في عَيْنِ التّنوّع)، التي هي مِن جُمْلةِ أسْرارِ الجَمال والخِلابة في القُرآن، خاصّةً في تنوّعِ البِنْيةِ البَيانيّة. وهذه الوَحْدةُ تجعَلُ مَتْنَ القُرآنِ كأنّه بَدَأَ واكتمَلَ في لَحظةٍ واحدة. لِأَنّ هذا المَتْنَ لَيْسَ له بدايةٌ ووَسَطٌ ونهايةٌ. فمِن أيِّ موضعٍ في القُرآن بدَأتَ وقرأتَ، يمكنُ هذا الموضِعَ أن يكونَ نقطةَ ابتداءٍ على مُحيطِ دائرةٍ، ويمكنُ هذه النّقطةَ معَ قِراءةِ القُرآنِ كلّه أن تُعَدَّ نقطةَ انتهاءٍ أيضًا. فكُلُّ موضعٍ في مَتْنِ القُرآن يمكنُ في الوقتِ نفسِه أن يكونَ نقطةَ ابتداءٍ ونقطةَ انتهاء. وكلُّ إنسانٍ يَتْلُو القُرآنَ، الذي عُدّتِ (القِراءةُ) أظهَرَ سَبَبٍ لِتَسميتِهِ بهذا الاسْم، يَحِلُّ مِثْلَ النّبيِّ ﷺ في مَقامِ الوَحْي، ويغدو وَسيطًا يُنقَلُ كلامُ اللهِ بوَساطته إلى الآخَرين. وعلى هذا النّحو، معَ أنّ الوَحْيَ

نَزَلَ أوّلَ مَرّةٍ على النّبيّ ﷺ، يظلُّ يَنزِلُ على امتدادِ التّاريخ، وتتجدّدُ ظُروفُ نزولِهِ، ويُطابِقُ مُقتضَياتِ أحوالِ القارئينَ وأوقاتهم، عندَما يكونُ ممكنًا أن يُقرَأَ القُرآنُ مِن أيِّ موضعٍ وأن تقرأَهُ أنتَ مِن أيِّ موضعٍ. وبسَببِ تنوُّعِهِ وتقطُّعِهِ الظّاهر، يبدو غيرَ مترابطٍ ومتقطّعًا وبغَيْرِ معنى. وهذا التّشتُّتُ الظّاهِرُ على هذا النّحو يُوجِدُ لدى القارئ انطباعًا بأنّه لا يمكنُ أن يجدَ في القُرآنِ كتابًا ذا وَحْدَةٍ معنويّة، بسَبَبِ عَدَم انطباقه على حال القارئ، وبِسَببِ أنّه عليه أن يقرأَه مِن البداية إلى النّهاية مُرتَّبًا لكي يدركَ المعنى، وبسَبَبِ عَدَمِ الإحاطة بالمعنَى كلّه بقِراءةٍ واحدة.

وبحَسَبِ الموضِعِ الذي تَشْرَعُ بقراءته مِن القرآن وتُواصِلُ القراءةَ، تجدُه في كلّ مرّةٍ كتابًا جديدًا؛ ثمّ لِهذا السَّببِ لا يكونُ كتابًا واحِدًا، بل هو آلافُ الكُتُبِ في كتابٍ واحِدٍ، مَهْما قرأتَه لا يكتمل ولا تَصِل فيه إلى نهاية.

البِنْيةُ البَيانيّةُ الغريبةُ والمخالِفةُ لِلْمُعْتاد في القُرآن، ناشئةٌ عن مقتضَياتِ أحوالِ تنزُّلِهِ، أو على نحوٍ أكثَرَ دِقّةً، ناشئةٌ عن سِياقِ الوَضْعِ المنحَصِر بالفَرْد المتحكِّم في تنزُّله، الذي مِن غير الممكنِ تحقُّقُه الكامِلُ في علاقاتِ اللّغة التي يتداولُها البشَر. ولهذا السَّبَبِ، عندَما نَلْمَحُ استفادةً مِن معاني القرآن ومضموناته في صُورةِ تلميحٍ وتَضْمينٍ واضِحٍ وغيرِ واضِحٍ على نطاقٍ واسِعٍ في كلّ الأدَبِ الفارسيّ القديم، لا نرى انعكاسًا لِبَعضِ مَظاهرِ البِنْيةِ القُرآنيّة إلّا في أشعار أكثَرِ شُعَراءِ الفارسيّة إيغالًا في القُرآنِ ومفهوماتِ القُرآن ومَعارِفِهِ، وأقصِدُ هنا أشعارَ جلالِ الدّين الرّوميّ وحافِظِ الشّيرازيّ – وبِنُدْرةٍ – في غَزَليّاتِ فَريدِ الدّين العطّار.

ولا شَكَّ في أنّ الرّوميَّ وكثيرين جدًّا مِن العُلَماء والشّعراء، تَبَعًا لِلإجماع ولِغالِبِ النّصوص، لَيْسَ لديهم أدنى شَكٍّ في أنّ ترتيبَ السُّوَر ومواضِعَ الآياتِ

في السُّوَر إنّما كان بإرادة الله سُبْحانَه، ولم يكن ناشئًا عن أذواقِ جامِعي القُرآن بعْدَ النّبيّ ﷺ، مِثْلَما قال السُّيوطيُّ في شَرْح ذلك: «الإجماعُ والنّصوصُ المُترادفةُ على أنّ ترتيبَ الآياتِ توقيفيٌّ، لا شُبْهةَ في ذلك». وفي كثيرٍ مِن الرّواياتِ والنّصوص التي ذكَرَها السّيوطيُّ، أُشيرَ إلى أنّ مَواضِعَ الآياتِ في سُوَرِ القُرآن حُدِّدت بِناءً على وَحْي جِبْريلَ وبإشارةٍ مِن رَسولِ الله ﷺ، وليسَتْ مِن عَمَلِ جامِعي القُرآن وقَصْدِهم واختيارهم»[٨].

وقد استطاعَتِ البِنْيةُ البَيانيّةُ لِلْقُرآن، واستمرارُ نَضارته وأَلَقِهِ وتجدُّدِه في ثقافةِ الإسلامِ والمجتمع الإسلاميّ، أن تجعَلَه على تطاوُلِ الزّمانِ نَموذَجًا مُؤَمَّلًا ومُمتَنِعًا لِكُلّ الفُصَحاءِ وأربابِ اللَّسَنِ الذين كانوا يفكِّرونَ بِسُلْطانِ كلامِهم على النّفوس وخُلودِهِ عَبْرَ الآماد والأجيال.

* * *

(٨) السُّيوطيّ، جلال الدّين عبدالرّحمن، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، انتشارات امير كبير، ج١، الصّفحات ٢٠٩-٢١٣ و... [الأصل].

مسائل صوتية من كتاب
(القانون في الطبّ) لابن سينا

أ. د. أحمد محمَّد قدّور(*)

١- تمهيد:

شهد الدرس الصوتي قبل ابن سينا (٣٧٥-٤٢٨هـ) تشعبًا كبيرًا، إذ اتّجه بعد نشأته لدى اللغويين إلى مجالات متعدّدة، منها البلاغيّ الخالص أو المتصل بإعجاز القرآن وتفسيره. ومنها المتعلّق مباشرة بتلاوة القرآن وتجويده وتحسين لفظه. ومنها العلمي الذي بعثته الثقافة الجديدة كعلم التعمية واستخراج المعمَّى والطّبّ والموسيقا وأمراض الكلام. ومن المتوقع أن يكون ابن سينا ألمّ بهذه الاتجاهات ووقف على أهمّ مصادرها اللغوية، ولا سيّما المعجمية، والعلمية لدى الكندي (ت٢٦٠هـ) والفارابي (ت ٣٣٩هـ)، وغير ذلك من مصادر الثقافة المتنوّعة التي ضمّت أمشاجًا من الدرس الصوتي على اختلاف غاياته. وجاء في المصادر التي ترجمت لابن سينا ما يشير إلى اتّساع ثقافته العلمية المختلفة، واطلاعه على كتب اللغة وتأليفه فيها. ومن هذا النحو ما روي عن تخطئة أبي منصور الجبّان النحوي له في مجلس الأمير زاعمًا أنه طبيب فيلسوف ولا علم له باللغة. وكان -كما

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

روى البيهقي في تاريخ حكماء الإسلام - بعد ذلك ينظر في كتب اللغة ولا سيّما في كتاب (تهذيب اللغة) لأبي منصور الأزهري (ت ٣٧٠هـ) وغيره مدة ثلاث سنين، وصنّف بعد ذلك رسائل امتحن بها الجبّانَ نفسَه، فأقرّ له بما حصّل من اللغة، وطلب منه أن يؤلِّف رسالة تتصل بأسباب الحروف، فأجابه إلى طلبه، وألّف رسالته الشهيرة المعروفة برسالة أسباب حدوث الحروف، كما صنف كتابًا في اللغة سمّاه (لسان العرب) لم يصنّف مثله، ولم ينقله إلى البياض، وبقي على مسوّدته لا يهتدي أحد إلى ترتيبه[١]. ويرجّح أن يكون تأليفه لرسالة أسباب الحدوث وهو في المرحلة الأخيرة من حياته وقد بلغ ذروة نضجه[٢]، أي بعد تأليفه كتاب القانون في الطب وغيره من المؤلَّفات.

وكان ابن سينا في مرحلة مبكّرة من حياته قد اشتغل بتحصيل العلوم، ثمّ رغب في علم الطبّ، وتأمّل الكتب المصنّفة فيه. وعلم الطبّ ليس من العلوم الصعبة، فلا جرم صار فيه في مدة قليلة عديم المثيل فقيد القرين والنظير كما قال البيهقي[٣]. ولما جاوز اثنتي عشرة سنة من مولده أقبل مرة أخرى على العلوم وأعاد قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة. وأحكم جميع العلوم ووقف عليها بحسب الإمكان الإنساني، وكلّ ما علمه في ذلك فهو كما علمه لم يزدد إلى آخر عمره حتّى فرغ من المنطق والطبيعي

(١) كتاب ابن سينا في دوائر المعارف العربية والعالمية، ص ٢٣، وانظر تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي، ص ٦٣، وانظر: مقدمة الدكتور شاكر الفحام لرسالة أسباب حدوث الحروف بتحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مير علم، ص ٩.

(٢) رسالة أسباب حدوث الحروف، من مقدمة الدكتور شاكر الفحام، ص ٩.

(٣) تاريخ حكماء الإسلام، ص ٥٥، وقارن بعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، ص ٤٣٨.

والرياضي. ثم أقبل على العلم الإلهي وقرأ كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو، وساعده كتاب للفارابي على فهمه بعد أن حفظه من غير فهم. فلما بلغ (أبو علي) ثماني عشرة سنة من عمره فرغ من العلوم كلِّها ولم يتجدّد له بعدها شيء[٤]. لكنّه بعد ذلك بلغ في اللغة طبقة قلّما يتّفق مثلها لغيره. وأنشأ ثلاث قصائد ضمّنها ألفاظًا غريبة، وكتب رسائل على طريقة ابن العميد والصاحب (ابن عبّاد) والصّابي[٥].

ويبدو لي من خلال ما أوجزته من سيرة الشيخ الرئيس أنّ زمانًا ربّما كان طويلًا فصل بين تأليفه للقانون في الطب، وتأليفه رسالة أسباب حدوث الحروف التي ضمّت خلاصة لعلوم شتّى كالفيزياء والطبّ واللّغة، موظّفة للدرس العلمي للأصوات عامّة ولحروف اللغة العربية خاصّة. ومن الضروري أن أشير إلى أنني أولعت بهذه الرسالة منذ زمن ليس باليسير، فجعلتها نصوصًا لدروسي في الدراسات العليا قبل خمس وعشرين سنة وما أزال، ثم أقبلت على استخراج آليات النطق منها في بحث مستقل[٦]. كما عدت إليها دارسًا ومؤرّخًا للدرس العلمي للأصوات عند أشهر الحكماء، وهم الكندي والفارابي وابن سينا. ولكن لا بدّ من التصريح بما حفزني إلى هذا البحث الراهن، ألا وهو إخلال رسالة أسباب حدوث الحروف بالمعلومات (الصوتية) الواردة في كتاب القانون، ولا سيّما ما يتّصل بأعضاء النطق، وآلية إصدار الأصوات، ووجود (لسان المزمار)، الآلة

(٤) تاريخ حكماء الإسلام، ص ٥٥-٥٧، وكذلك عيون الأنباء، ص ٤٣٩.

(٥) تاريخ حكماء الإسلام، ص ٦٣، وكذلك عيون الأنباء، ص ٤٤٣.

(٦) آليات النطق في رسالة أسباب حدوث الحروف لابن سينا، دار الرفاعي ودار القلم العربي بحلب عام ٢٠١٠، وكذلك الدراسة نفسها في كتابي دراسات في علم الأصوات عند العرب، دار الرفاعي ودار القلم العربي في حلب والقاهرة عام ٢٠١٤.

الأولى في التصويت الإنساني. وكان متوقعًا بحسب تحليلنا أن تضمّ رسالته جماع معارفه الصوتية ولا سيما الطبيّة لمسيس الحاجة العلمية إليها. ثم تصرفت بي الحال إلى أن أدرس رسالة الكندي في (اللثغة)، فوجدت أنّ ابن سينا أفاض في هذا الموضوع وزاد على الكندي زياداتٍ مهمّة ينبغي أن تأخذ مكانها بين هذه المسائل التي استخرجتها من كتاب القانون، آملًا أن تجمع مع رسالة أسباب الحدوث فتكون لها ذيلًا أو لَحَقًا لإكمال ما جاء فيها وعرضِهِ على الدارسين.

ويبقى كتاب القانون في الطّبّ هو عمل ابن سينا المتميّز، فقد كان (دائرة) معارف منتظمة اعتمدت على إنجاز الأطباء اليونان، وعلى بعض الأعمال العربية، وعلى خبرته[٧]. ومع أن القانون قد اتّبع جالينوس والمدرسة القديمة فقد قدّم الكثير من الملحوظات التي لم تكن معروفة عند جالينوس. ولذلك حاز سمعة طيبة في أوربا وبقي مستعملًا فيها حتى القرن السابع عشر[٨]. وعن طريق الأندلس ترجم القانون لابن سينا، وكان الأوربيون ينظرون إليه كأنه وحي معصوم، وبقي المرجع الأول للطب في كل الجامعات الأوربية قرونًا كثيرة[٩]. ولذلك تربّع ابن سينا على عرش الشرف الذي لم يتمتع به الأطباء اليونان الأوائل مثل أبقراط وغالين[١٠]. وقد تبيّن لي أنّ هذا الكتاب مثال ناطق على الثقافة الإسلامية المولّدة التي أفادت من الترجمة، لكنّها لم تقف عندها بل أضافت وعدّلت وبعثت في

(٧) كتاب ابن سينا في دوائر المعارف (نقلًا عن الموسوعة البريطانية الحديثة)، ص ١٠٠.

(٨) المرجع السابق (نقلًا عن دائرة المعارف الأمريكية)، ص ١٠٣.

(٩) المرجع السابق، ص ١٦٢.

(١٠) المرجع السابق (نقلًا عن لاروس لاجراند)، ص ١١١. والمشهور باسم جالينوس.

المصادر القديمة حياة جديدة وقدّمتها للعالم بروح إسلامي ولسان عربيّ. على أنّ ذلك التقدير المنصِف لابن سينا لا يعفينا من واجب الدراسة العلمية واللغوية لهذا السِّفر العبقري، واستخراج المخبوء فيه من معطيات هي حقًّا موسوعة معرفية مستقلّة.

ومن المهمّ أن نشير إلى أن الثقافة العربية في أصولها الأولى معارف انحدرت إلى شعوب العرب في جاهليتهم من الشعوب القريبة والشقيقة، وصقلتها حياتهم ومناشط فنونهم وحكمتهم، وتجلى ذلك كلّه في لغتهم. ولذلك لا غرابة في أن تكون كتب اللغة زاخرة بالكثير من المعارف المتنوّعة في خلق الإنسان والحيوان والفرق بينهما، وفي الأرض وعناصرها ومسالكها، وفي النبات والشجر، وفي السماء ونجومها والأنواء وغير ذلك ممّا هو معروف مدوّن في رسائل خاصّة أو كتب جامعة أو معاجم مختلفة. ولذلك لا يمكن أن يتصوّر المرء أنَّ الترجمات تولدت في فراغ علمي. وأكبر دليل على أن الترجمة أفادت من معارف العرب المصطلحات التي بقي معظمها عربيًّا كما هو. على أن المراحل الأولى المتّصلة بالعلوم الدّخيلة ربما شهدت دخولًا لمفردات أجنبية كثيرة قبل أن يولّد من اللغة أو يعرّب فيها ما يكون بديلًا لتلك المفردات. وربّما كان كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي (ت ٣٨٧هـ) مثالًا على تلك الحالة المتقدّمة للعلوم ومصطلحاتها من خلال الترجمة[١١].

وإذا نحّينا جانبًا ما حوته كتب اللغة أو معاجمها من معارف العرب

(١١) مفاتيح العلوم (أبواب المقالة الثانية)، ص ٧٩ وما يليها. وقد دعاها الخوارزمي بعلوم العجم، وهي: الفلسفة والمنطق والطب وعلم العدد والهندسة وعلم النجوم والموسيقا والحيل والكيميا.

الطبّيّة، وما يدلّ على اعتنائهم بالنطق ومحاسنه وعيوبه، وجدنا ما يقدّر بخمسين مصنفًا ابتدأت مع القرن الثاني للهجرة واستمرّت قرونًا عُنِيت كلّها بخلق الإنسان وأسماء أعضائه وجزئيّاتها، مع الدقة والاستقصاء(١٢). وممّا يدلّ على هذا الغنى المعرفي أنّ اللغويين ولا سيما المتقدّمين كالخليل (ت ١٧٥هـ) وتلميذه سيبويه (ت ١٨٠هـ) لم يوردوا كلمة دخيلة واحدة في درسهم الصوتي الذي انبثق من معطيات الثقافة العربية أصيلًا لم ينسج على مثال سابق(١٣). أضف إلى ذلك أنّ ازدهارًا علميًّا واسعًا سبق ابن سينا الذي ولد سنة ٣٧٥ للهجرة وعاش ثلاثًا وخمسين سنة. ولذلك بات اطلاعه على هذه المصادر اللغوية والعلمية مؤكّدًا، ولا سيّما أنه لم يترك شيئًا من علوم عصره إلا تلقّاه من بطون الكتب أو أفواه العلماء المعلّمين.

والذين عنهم نُقلت المعرفة الخاصّة بخلق الإنسان وبهم اقتُدِيَ هم: الخليل (ت ١٧٥هـ)، وتلميذه الليث (ت نحو ١٩٠هـ)، وأبو زيد (ت ٢١٥هـ)، والأصمعي (ت ٢١٦هـ)، وأبو عبيد القاسم ابن سلام (ت ٢٢٤هـ)، وابن السّكّيت (ت ٢٤٤هـ)، وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ)، وابن دريد (ت ٣٢١هـ)، والأزهري (ت ٣٧٠هـ)، وأبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ). إضافة إلى ثابت بن أبي ثابت من رجال القرن الثالث، صاحب كتاب خلق الإنسان. وجاء عن هؤلاء ما يدلّ على معرفة صحيحة إلى حدّ بعيد تناولت أعضاء النطق عند الإنسان(١٤).

---

(١٢) مثال ذلك: إحسان النص، (مصنّفات اللغويين العرب في خلق الإنسان)، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج ٧٣، ج ٢، ص ٢١٩-٢٣٦.

(١٣) دراسات في علم الأصوات عند العرب، ص ١٥٩.

(١٤) المخصص لابن سيدة، ١/ ١٣٨، ١/ ١٤١-١٤٣، وتهذيب اللغة، ٥/ ٣٠٩، ٨/ ٢٣١-٢٣٢، والغريب المصنّف، ١/ ٣١، والتلخيص للعسكري، ص ٥٦-٥٧، وتهذيب =

أما ابن سينا فقد استعمل في رسالته عن أسباب حدوث الحروف عددًا من المصطلحات المتداولة لدى اللغويين ودارسي الأصوات، كما استعمل مصطلحات طبيّة وتشريحيّة تتصل بالغضاريف والعضلات، وبعضها مترجم عن كتب الطبّ اليوناني كما سنشير لاحقًا[١٥]. ويمكن أن تقسم هذه المصطلحات قسمين: أورد في الأول ما يتصل بتشريح الحَنْجَرة واللسان خاصة، وأورد في الثاني ما استعمله في الفصول التالية من الرسالة عامة، ولا سيّما الفصل الرابع الذي يمثل لبّ الرسالة، وهو في الأسباب الجزئيّة لحرف حرف من حروف العرب[١٦].

٣- المسائل المستخرجة من كتاب القانون

ذكر ابن سينا في فصل تشريح الحَنْجَرة واللسان في رسالة أسباب حدوث الحروف معظم ما أورده في كتابه القانون ما خلا فروقًا ضئيلة لوحظت بين الرسالة وكتاب القانون. وقد تتبع محقّقا رسالة أسباب حدوث الحروف هذه الفروق للمقارنة والإيضاح[١٧]. لكنّ ابن سينا لم يعرّف

= الألفاظ للتبريزي، ص ٥٩٢-٥٩٣، واللسان (عن الأزهري) ٤/ ٢١٦، وقارن بكتاب العين (ط. هنداوي) ٣/ ٢٨٧، و ١/ ٣٦٣-٣٦٤. وانظر: ثابت، كتاب خلق الإنسان، ص ١٩١-١٩٢، وكذلك، ص ١٦٤، وكلامه في المخصص، ١/ ١٤١-١٤٢. والمخصص هو الجامع لكل ما تقدّمه من روايات ومصادر. وانظر كذلك: العسكري، التلخيص، ص ٥٧.

(١٥) انظر: رسالة أسباب حدوث الحروف، ص ٦٤-٧١، ١٠٨-١١٣.

(١٦) انظر: السابق، ص ٧٢-٩٢، ١١٤-١٣٢. هذا فضلًا عمّا استعمله اللغويون في الدرس الصوتي كالخليل. انظر: كتابي: دراسات في علم الأصوات عند العرب، ص ١٠٣-١٢١.

(١٧) انظر: رسالة في أسباب حدوث الحروف، ص ٦٤-٧١، وفيها بضع عشرة إحالة إلى القانون أوردها المحقّقان. وانظر كذلك ص ١٠٨. وعرض ابن سينا في القانون في الفصل الحادي عشر لتشريح عضل الحنجرة، وفي الفصل الثاني عشر لتشريح عضل =

الحَنْجرة في رسالته، وباشر بالحديث عن تركيبها، على حين أنّه عرّفها في القانون في مطلع الفصل الخاصّ بتشريح عضل الحنجرة. وقال: «الحنجرة عضوٌ غضروفيٌّ خُلِقَ آلةً للصوت، وهو مؤلّفٌ من غضاريفَ ثلاثة...». لكنّ ابن سينا الذي ذكر الغضاريف الرئيسة في الرسالة وفي القانون، وهي الترسيّ أو الدرقيّ، والطرجهاريّ (والطرجهالي) أو المكبيّ، والذي لا اسم له، أشار إلى الغضروف الذي يدعى الآن بالحلقيّ أو الفتخيّ (Cricoid). يقول: «... بل الجوهرُ الغضروفيُّ منه - أي قصبة الرئة - إلى قُدَّام، والتفَّتْ هذه الغضاريفُ برباطاتٍ يجلّلها غشاءٌ ويجري على جميع ذلك من الباطن غشاءٌ أملسُ إلى اليُبْسِ والصَّلابةِ ما هو. وكذلك أيضًا من ظاهره، وعلى رأسه - أي العضو المتحدّث عنه - الفوقانيّ الذي يلي الفمَ والحنجرةَ، وطرفه الأسفل ينقسم إلى قسمين...»[١٨]. ويرى الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح أن حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠هـ) هو الذي وضع كلمة الحَنْجرة ترجمة لما تدلّ عليه كلمة (Larynx)[١٩]. وسيشير ابن سينا إلى الحَنْجرة ودورها لاحقًا في مواضع من الجزء الثاني من القانون. وذهب الدكتور الحاج صالح إلى أنّ عدم استعمال الخليل وسيبويه للفظ الحنجرة

= الحلقوم، وفي الفصل الثالث عشر لتشريح عضل العظم اللامي، وفي الفصل الرابع عشر لتشريح عضل اللسان، ثم للعنق والرقبة والصدر في فصول أخرى. القانون في الطب، ١/ ٤٣-٤٥ وما يليها.

(١٨) القانون، ١/ ٤٤، و ٢/ ٢٠٨، ورسالة أسباب حدوث الحروف، ص ٦٤، والحاشية رقم (٢). وإبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص ١٤٥-١٤٦، وعبد الرحمن أيوب، أصوات اللغة، ص ٤٨، ومبادئ اللسانيات العامة، ص ٤٩، وتوجيه النص السابق على هذه الشاكلة هو للدكتور أنيس رحمه الله.

(١٩) عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ١/ ٦٢، وترجمة حنين في الفهرست، ص ٣٥٢-٣٥٣.

يرجع إلى اختلاف معاني هذه الكلمة في زمانهم[٢٠]. وربّما كان ذلك صحيحًا، لكنّ حصيلة ما جاء من شروح لغوية للحنجرة في المصادر التي أشرنا إليها سابقًا تدلّ على أنّ أهل اللغة جعلوا الحنجرة جزءًا من الحلقوم. فهي جوف الحلقوم وتؤلّف من طبقين من أطباقه، مما يلي الغلصمة عند مبدأ الحلق. ولذلك لم يجدوا بأسًا في التعبير عنها بأقصى الحلق، لأنهم رأوا أنّها جزء من الحلقوم لا استقلال له. ويستدلّ من روايات كثيرة على أنّ الحلق عند القدامى غير الحلقوم، إذ هو مجرى مشترك للطعام والشراب والنَّفَس، مبدؤه من الغلصمة ومنتهاه أقصى الفم عند اللهاة[٢١]. فأقصى الحلق إذن هو أوّل الحلقوم عند مدخل الحنجرة كما نقدّر.

ومن المسائل التي تكمل درس ابن سينا في الرسالة ما ذكره في القانون أيضًا من أنّ «الفم هو الوعاء الكلِّيُّ لأعضاء الكلام في الإنسان والتصويت في سائر الحيوانات المصوِّتة من النفخ. واللسانُ عضوٌ منه هو من آلات تقليب الممضوغ وتقطيع الصوت وإخراج الحروف وإليه تمييز الذوق»[٢٢].

ويذكر ابن سينا أيضًا القصبة، وهي تقسم أقسامًا تجري في الرئة. أما صلابتها فتكون سببًا لحدوث الصوت أو معينة عليه[٢٣].

وهناك نصّ جامع للأعضاء الفاعلة للصوت يقول ابن سينا فيه: «وحركة النَّفَس المعتدل الطبيعي الخالي من الآفة يتمّ بحركة الحجاب. فإن احتيج إلى زيادة قوة لما ليس يدخل إلا بمشقة أو لِتُقوِّيَ النَّفَسَ ليخرج نفخه، شارك

(٢٠) المرجع نفسه.

(٢١) انظر المصادر الواردة في الحاشية (١٤) من هذا البحث.

(٢٢) القانون، ٢/ ١٧٥، وهو من فصل في تشريح الفم واللسان.

(٢٣) القانون، ٢/ ٢٠٨، وهو من المقالة الأولى في الأصوات وفي النفس.

الحجابَ في هذه المعونة عضلُ الصدر كلُّها حتى أعاليها، أو لا بدَّ فبعضُ السافلة منها فقط. فإن احتيج إلى أن يكون صوتًا لم يكن بدٌّ من استعمال عضل الحَنْجرة. فإن احتيج إلى أن يُقَطَّعَ حروفًا ويؤلَّف منه كلامٌ لم يكن بدٌّ من استعمال عضل اللسان. وربما احتيج فيها إلى استعمال عضل الشفة»(٢٤).

أما الصوت تحديدًا فهو لدى ابن سينا «فاعلُهُ العضلُ الذي عند الحَنْجرة بتقدير الفتح وبدفعِ الهواء المُخْرَج وقَرْعِه. وآلَتُهُ الحَنْجَرةُ والجسمُ الشبيهُ بلسان المزمار، وهي الآلةُ الأولى الحقيقيةُ وسائرُ الآلات بواعثُ ومُعِيناتٌ. وباعثُ مادَّتهِ الحجابُ وعضلُ الصدرِ، ومؤدِّي مادَّتِهِ الرِّئةُ، ومادَّتُهُ الهواءُ الذي يموجُ عند الحَنْجرة»(٢٥).

ويعود ابن سينا إلى الحَنْجرة فيقول: «إنَّها آلةٌ لِتمام الصوت ولِتَحبِسَ النَّفَس، وفي داخلها الجِرمُ الشَّبيهُ بلسانِ المزمارِ من المزمار. وقد ذكرناه وما يقابلُهُ من الحنك وهو مثلُ الزائدة التي تشبهُ رأسَ المزمارِ فيتمُّ به الصوت»(٢٦). أمّا هذا الجرم الشبيه بلسان المزمار فهو «خُلِقَ لأجلِ التصويت. ويُسمَّى لسان المزمار، يتضايقُ عندَهُ طرفُ القَصَبة ثمَّ يتَّسعُ عند الحَنْجرةِ فيبتدئُ من سَعَةٍ إلى ضيقٍ إلى فضاءٍ واسعٍ كما في المزمار. فلا بُدَّ للصوت من تضييق المحبس»(٢٧). ويقول أيضًا: «وهذا الجِرمُ الشبيهُ بلسان المزمار من شأنه أن ينضمَّ وينفتحَ ليكون بذلك قَرْعُ الصَّوت»(٢٨).

على أنّ أهمّ ما في هذه النصوص والمسائل المهمّة جدًّا حديثه عن

(٢٤) القانون، ٢/ ٢١٣، وهو من فصل في كلام كلّي في التنفس.
(٢٥) المصدر نفسه، ٢/ ٢٢٥، وهو من المقالة الثانية في الصوت.
(٢٦) المصدر نفسه، ٢/ ٢٠٩، وهو من المقالة الأولى في الأصوات وفي النفس.
(٢٧) المصدر نفسه.
(٢٨) المصدر نفسه.

لسان المزمار حديثًا دقيقًا لا يترك مجالًا للشكّ في أنّ ابن سينا عرف أهمّ عضو في التصويت وعيّن مكانه. وهو ما دعاه بلسان المزمار. ورأى الدكتور إبراهيم أنيس أنّ ابن سينا قصد بلسان المزمار ما يعرف لدى المحدثين باسم (Rima Glottidis)، وهو الفرجة التي بين الأوتار -أي الوترين- الصوتية. على أنّ ما استنتجه الدكتور أنيس مختلف عن قصد ابن سينا الذي وصف (آلة) هي ما يدعى الآن بالوترين الصوتيين، أي (Vocal Cords). أما الفتحة بين الوترين الصوتيين، أي ما يسمّى بالمزمار (Glottis) فلم تكن مقصودة في كلام ابن سينا. وكذلك لم يلتفت الدكتور أنيس إلى سبق ابن سينا العبقري إلى وصف هذه (الآلة) التي ربّما عُرفت تشريحًا لدى الشعوب القديمة، لكنّها لم توصف هذا الوصفَ الحركيَّ الدقيق الموظّف في شرح المعارف الصوتية. فهذه الآلة خلقت لأجل التصويت، وهو عملها الأصليّ، وهي تنضم وتنفتح ليكون بذلك قرع الصوت. ويؤكّد ابن سينا شكل هذه الآلة، فهي -أي لسان المزمار عنده- جِرْمٌ شبيهٌ بلسان المزمار من المزمار، وهو مثلُ الزَّائدة التي تشابهُ رأسَ المزمار فيتمُّ به الصوت. ولأنَّه في الحَنْجرة فهما معًا آلةٌ لتمامِ الصَّوت وحبسِ النَّفَس(٢٩). ونتابع شيئًا آخر، هو الغضروف الثالث من غضاريف الحنجرة التي وصفها في الرسالة والقانون، أي الذي سمّاه (الذي لا اسم له) أو (عديم الاسم)، وعمله هو إغلاق مجرى الهواء أمام الطعام والشراب. يقول: «والازدرادُ لا يجامعُ النَّفَس، لأن الازدرادَ يُحْوِجُ إلى انطباقِ مجرى قَصَبةِ الرِّئة من فوق لِئلا يدخلها الطعامُ المارُّ فوقَها. ويكونُ انطباقُها بركوبِ الغُضروف المتَّكئ على المجرى. وكذلك الذي لا اسمَ له. وإذا كان الازدرادُ والقيءُ يُحْوِجان إلى

(٢٩) القانون، ٢/ ٢٠٩.

انطباق فمِ هذا المجرى لم يكن أن يكونا عندما يتنفّس»[٣٠]. وذهب الدكتور أنيس إلى أنّ المقصود بالغضروف الذي لا اسم له ما يسمّى الآن بلسان المزمار، كما في معجم شرف للمصطلحات الطبية. أما الغضروف الذي دعاه ابن سينا بالمتكئ على المجرى فهو عنده ظنًّا ما يسمّيه المحدثون (Cuneiform)، أي الغضروف المخروطي أو الإسفيني أو الوتدي[٣١]. ورأى الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح أن حنين بن إسحاق هو الذي ترجم ما يسمى بـ(Glottis) بلسان المزمار، وهي تدلّ على الوترين الصوتيين[٣٢]. وإذا صحّ ما ذكره الحاج صالح عن وضع حنين هذه التسمية فمن المستبعد تمامًا أن ينسب إليه - أي حنين - شيء من هذه الشروح الطبية والصوتية إلا إذا ظهر دليل قطعيّ على ذلك. ولذلك نميل إلى أنَّ الأوصاف والشُّروح هي لابن سينا. وهكذا أضاع المحدثون مصطلح ابن سينا المعبّر عن طبيعة الآلة الصوتية الأولى، أي لسان المزمار، وجعلوه تسمية لعضو سمّاه العرب بالغلصمة. على أنّنا لا ندري لِمَ أعرض ابن سينا عن استعمال الغلصمة بهذه الدلالة ونقل التسمية اليونانية؟ وسنرى لاحقًا أنّه اختار رأيًا ضعيفًا يجعل الغلصمة جزءًا من اللهاة.

(٣٠) المصدر نفسه، وقارن برسالة أسباب حدوث الحروف، ص ٦٥، و ص ١٠٨.

(٣١) أنيس، الأصوات اللغوية، ص ١٤٤، وقارن بعبد الرحمن أيوب، أصوات اللغة، ص ٤٩، وفيصل دبسي، أمراض الحنجرة والعنق، ص ١٤، و(سوبوتا)، أطلس تشريح جسم الإنسان، ص ١٦٠، وذكر الدكتور أيوب أنّ المستشرق الألمانيّ (شاده) ذكر تسمية «المزمار» للفراغ المحصور بين الوترين الصوتيين. انظر: كتابه، ص ٥٤، الحاشية رقم (١). والمحاضرة المشار إليها ألقاها المستشرق المذكور في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية سنة ١٩٣١، ونشرت في السنة نفسها في صحيفة الجامعة المصرية. وعنوان المحاضرة «علم الأصوات عند سيبويه وعندنا».

(٣٢) الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ١/ ٦٢.

على أنّ المسألة بقيت مظلومة من طرفين، الأول هو عدم الاهتمام بما وصفه ابن سينا وتوظيفه في الدرس الصوتي بعده عندنا وعند الأقوام الذين عرفوا كتابه القانون وتجاهلوا أثر كلامه في الجهر والهمس. والثاني هو إضاعة هذه الجهود وتغييبها لدى المحدثين الذين أسهموا في البلبلة الاصطلاحيّة، وضَحَّوا غالبًا بالمصطلحات العربية العريقة، وما تدلّ عليه من مفهومات علمية مبتكرة. ويرى روبنز (Robins) «أنّ علماء اللغة العرب أخفقوا – وهو إخفاق وحيد، لكنه خطير – في عدم تشخيص حركية التمييز بين المجهور والمهموس من الصوامت، على الرغم من أن تقسيمها إلى قسمين يعتبر تقسيمًا مهمًّا. وقد نسبت الصوامت لهذين القسمين بشكل صحيح. وبالنظر إلى هذا الإخفاق فإن التأثير الهندي في المؤلَّفات الصوتية للعرب يكون موضع شكّ على الرغم من أنّه أمر مطروح. وقد كان إنجاز العرب في هذا الفرع من علم اللغة أكثر توفيقًا بكثير من حيث سلامة الوصف من إنجاز اليونان والرومان»[٣٣]. وكان كانتينو وغيره من المحدثين رأوا أن العلماء العرب جهلوا الدور المضبوط للأوتار –الوترين– الصوتية، على أنّهم توصّلوا إلى المقابلة بين الأصوات المجهورة والمهموسة، وتفطَّنوا إلى الفروق بينهما تفطُّنًا دقيقًا بدون معرفة سببها الحقيقيّ[٣٤].

وبقي عمل الحنجرة في أثناء الجهر مجهولًا حتّى توصّل (هولدر Holder) عام ١٦٦٩م إلى وصف انقباض جانبي الحنجرة ومرور النَّفَس في فتحة المزمار وإحداث اهتزازات في الأجسام الغضروفية، وذلك قبل الاتصال بالمؤلَّفات الصوتية للهنود[٣٥]. كما اخترع المغنّي (غارسيا) منظار

(٣٣) (روبنز)، موجز تاريخ علم اللغة، ص ١٧٣.
(٣٤) (كانتينو)، دروس في علم أصوات العربية، ص ٣٤.
(٣٥) (روبنز)، ص ٢٠٠-٢٠١.

الحنجرة عام ١٨٥٤م أو ١٨٥٥م لمراقبة (الحبال) الصوتية. كذلك استعمل الطبيب التشيكي (جرماك) منظار الحنجرة للوقوف على عمل الوترين الصوتيين عام ١٨٦٠م[٣٦]. وذكر الدكتور الحاج صالح أنّ الطبيب الفرنسي (Ferrein) هو الذي وضع تسمية الوترين الحديثة في القرن الثامن عشر تشبيهًا للجهاز المهتزّ بأوتار الكمنجة[٣٧].

ويُستدلّ من كلام ابن سينا على أنّ حركة لسان المزمار (أي الوترين) تحدثُ نتيجةَ تيّار الهواء القادم من الرّئة، وأنّه يعملُ بدفع الهواء المُخْرَج. ولأنَّ الحَنْجرةَ ولسانَ المزمار يشتركان في إحداث الصَّوت نتيجةَ الهواء الذي يموجُ عند الحَنْجرةِ كانت حركتُهما بسببِ حركة الحجاب وعضلِ الصَّدر ودفعِ الرِّئةِ للهواء الذي هو مادةُ الصوت[٣٨]. ومعروف في الدراسات اللسانية أنّ الوترين الصوتيين يتحركّان ويثاران نتيجة تيار الهواء القادم من الرئتين وليس بسبب نبضات عصبية. واقترح (هسون) في نظرية معاكسة رأيًا يذهب إلى أنّ الوترين يهتزّان نتيجة نبضات عصبيّة في العضلة النطقية وليس نتيجة عمل الهواء المطرود من الرئتين. ولكنّ النظرية الأولى ما زالت سائدة حتى تتمّ البرهنة العلمية على صحّة الرأي الآخر[٣٩].

وربّما كان مفيدًا أن نشير إلى أنّ الدارسين العرب المحدثين تلقّفوا

---

(٣٦) (مونان)، تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، ص ٢٠٨، و(بوردن وهاريس)، أساسيات علم الكلام، ص ٤٠١.

(٣٧) الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ١/ ٦٢، الحاشية رقم (٨).

(٣٨) القانون، ٢/ ٢٢٥، وهو من المقالة الثانية في الصوت.

(٣٩) (بوردن وهاريس)، أساسيات علم الكلام، ص ١٤٢، وقارن بمحاضرات (دوسوسير)، ص ٥٨-٥٩.

المصطلح الأجنبي (Vocal Cords) بصيغة الجمع فصار حبالًا وأوتارًا أو أحبالًا[٤٠]. على أنّ بعضهم تنبّه إلى أنّهما وتران فقط فاقتصر على التثنية الواردة في لغتنا والغائبة في اللغات التي نُقل المصطلح منها. وقد ذكر بعض الباحثين من العرب والأجانب أن تسمية (وتر) ليست دقيقة، لأنّ الوترين فعلًا هما كالشفتين، أو هما كالنتوء الرَّفِّيّ الأفقي على جانبي الحنجرة، أو هما رباطان مرنان أو عضلتان متوازيتان، أو هما كالشريطين المتقابلين، إلى غير ذلك[٤١].

وآخر هذه المسائل المتصلة بأعضاء النطق وآلياته والصوت ومادّته، تعريف ابن سينا للَّهَاة. واللَّهاة مذكورةٌ في رسالة أسباب الحدوث في تضاعيف حديثه عن أسباب الحروف من غير تعريف محدّد، ولم ترد في سياق حديثه عن أعضاء النطق إذ اقتصر على الحنجرة واللسان[٤٢]. ويذكر ابن سينا في كتابه القانون أنّ «اللَّهاةَ جوهرٌ لحميٌّ معلَّقٌ أعلى الحَنْجرةِ كالحجاب، ومنفعتُهُ تدريجُ الهواءِ لئلا يقرعَ بِبَرْدِهِ الرئةَ فجأةً، ولِيَمْنعَ الدُّخانَ والغُبار. وليكونَ مَقرعةً للصَّوت يقوى بها أو يعظُمُ كأنَّه بابٌ موصدٌ على مَخْرَجِ الصَّوت بقَدَره. ولذلك يُضِرُّ قطعُها الصَّوتَ»[٤٣]. ثم يذكر ابن سينا أنّ «الغَلْصَمة لحمٌ صفاقيٌّ لاصقٌ بالحَنَكِ تحتَ اللَّهاةِ، مُتَدَلٍّ مُنطَبِقٌ على رأس

(٤٠) كتاب مبادئ اللسانيات العامة، ص ٥٢، الحاشية رقم (٣)، وبقيتها في هامش صفحة ٥٣ منه.

(٤١) محاضرات (دوسوسير)، ص ٥٨، وعبد الرحمن أيوب، أصوات اللغة، ص ٥٣، وإبراهم أنيس، الأصوات اللغوية، ص ١٧، وبسام بركة، علم الأصوات العام، ص ٦٢، ومحمد منصف القماطي، الأصوات ووظائفها، ص ٥٣. وقارن بـ(مالمبرج)، الصوتيات، ص ٦٠، و(بوردن وهاريس)، أساسيات علم الكلام، ص ١٤١، و(دنيس ونشن)، المنظومة الكلامية، ص ٦٥.

(٤٢) رسالة أسباب حدوث الحروف، ص ٧٣.

(٤٣) القانون، ٢/ ١٩٦-١٩٧ من فصل تشريح أعضاء النطق.

القَصَبة. وفوق الغَلْصَمة الفائقُ، وهو عُظَيم (عظم) ذو أربعة أضلاع...»[٤٤]. فالغلصمة إذن جزء من اللهاة ينطبق على رأس القصبة. على أنّ معظم آراء اللغويين لا تؤيّد ذلك. فالغلصمة عندهم مُتَّصَلُ الحلقوم بالحلق: إذا ازدرد - كما يقول ثابت - الآكل لقمته فزلّت عن الحلق دخلت فم الغلصمة. ويقال لها، أي للغلصمة جرو الحنجرة. وفي الغلصمة: الدردمة وهي تحت الحلقوم واللسان مركّب في طرفها. أمّا الحنجرة عند ثابت فهي رأس الغلصمة حيث تحدّد، وحدّته أنّه طرف الحلقوم. وفيها القمع وهو طبق الحلقوم[٤٥]. والقمع والقمعة والزردمة والجرقوة والمطعمة: شيء واحد، كلّهنّ في المذبح أعلى الحلق، أو هي طرف الغلصمة أو طرف الحلقوم[٤٦]. والغلصمة - كما في التهذيب - أصل اللسان[٤٧]. أما القردحة والقردوحة فهي كالجوزة تظهر في حلق الغلام إذا أيفع، وربّما كانت هي الحرقدة كذلك[٤٨]. ويدعى الجزء البارز منها الآن بتفّاحة آدم.

ويتّضح ممّا تقدّم، وهو خلاصة لمصادر لغويّة كثيرة، أن الغلصمة هي التي تدعى الآن لسان المزمار (Epiglotius) لاتصالها بالحنجرة واللسان. أمّا استنتاج أن الغلصمة هي اللهاة فضعيف، لأن اللهاة كما جاء في المصادر المتقدمة ترتبط بالفم لا بالحلق، وهي غالبًا اللحمة المسترخية على الحلق،

---

(٤٤) المصدر نفسه.

(٤٥) ثابت، خلق الإنسان، ص ١٩١-١٩٢، وكذلك ص ١٦٤ منه. وكلامه في المخصص لابن سيدة، ١/ ١٤١-١٤٢.

(٤٦) المخصص، ١/ ١٤١-١٤٢، وثابت، خلق الإنسان، ص ١٩٢، والتلخيص للعسكري، ص ٥٧.

(٤٧) تهذيب اللغة، ١/ ٢٣٢.

(٤٨) المخصص، ١/ ١٤٢.

وفيها اللغنون وهي نواحي اللهاة المشرفة على الحلق. أو هي ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم. وهي غير الغلصمة، لأن الغلصمة هي العجرة التي على ملتقى اللهاة يدخل فيها الطعام إلى المريّ(٤٩). وجاء في بعض أشعارهم التفرقة بين اللها والغلاصم كما استشهد بذلك الدكتور محمد شرف في معجمه(٥٠). ويؤنس بتحديد اللهاة وموضعها ما جاء لدى الخليل الرائد لعلوم اللغة عند العرب، إذ وصف خروج حروف القاف والكاف والجيم من بين عكدة (أصل) اللسان وبين اللهاة في أقصى الفم(٥١). ولأمر ما لم يذكر سيبويه اللهاة حين وصف مخارج الأصوات في باب الإدغام، إذ عبَّر عنها بالحنك الأعلى، ممّا يدلّ على أن موضعها في الحنك وليس في الحلق أو متصل اللسان(٥٢). وقد تقدّم الحديث عن الحلق الذي مبدؤه من الغلصمة ومنتهاه أقصى الفم(٥٣). وليس لدينا تفسير مقنع لما ذهب إليه ابن سينا إلا تقيّده بالمعلومات الطبية المترجمة وإن خالفت مصطلحاتها ما هو معروف في اللغة وشائع في الدرس الصوتي قبله. ومن المفيد أن نشير إلى أنّ الدكتور إبراهيم أنيس عرض لعدد من مصطلحات ابن سينا كالغضروف الذي لا اسم له والغضروف الترسي أو الدرقي والغضروف الطرجهاري، وكأنّ ابن سينا هو

(٤٩) المخصص، ١/ ١٣٨، والعسكري، التلخيص، ص ٥٦.

(٥٠) عبد الرحمن أيوب، أصوات اللغة، ص ٧١، الحاشية رقم (٢).

(٥١) كتاب العين، ١/ ٥٢. (ط. السامرائي ومخزومي).

(٥٢) الكتاب، ٤/ ٤٣٣.

(٥٣) ثابت، ص ١٩١-١٩٢، والمخصص، ١/ ١٤٢. وربما كان المقصود بكلام ابن سينا العضلة العريضة المتداخلة مع أطراف اللهاة وتستند إلى العظام الصدغية. و(بوردن وهاريس)، أساسيات الكلام، ص ١٧٥.

الذي وضعها ترجمة عن الإغريقية[٥٤]. على أنّ الأمر محتاج إلى تحقّق من المصادر التي نقل منها ابن سينا بعد ازدهار حركة الترجمة في القرن الثالث لكي تظهر الفروق بين النّقل والإضافة.

وهناك مجموعة أخرى من النصوص المستخرجة من كتاب القانون تتصل مباشرة بأمراض الكلام وعيوب النطق، وهو موضوع قديم عرض له اللغويون والأدباء والحكماء. ومنهم الكندي (ت ٢٦٠هـ) صاحب الرسالة المعنونة (رسالة في اللثغة)، وربّما كانت أول رسالة متخصّصة في هذا المجال[٥٥]. غير أنّ هذا الموضوع متشعّب، إذ درست فيه عيوب الكلام من جهة البلاغة، ودرست فيه أعراض النطق الخَلقية، كما درست فيه أشياء تتعلّق باللَّحن -أي الخطأ في الكلام- واللكنة الأعجمية. لكنّ الدرس اللساني الحديث اقتصر على أمراض الكلام وجعلها فرعًا من اللسانيات التطبيقية. وربما وسّع هذا الدرس الموضوع واتصاله بالطبّ فسمّاه اللسانيات السريريّة[٥٦].

أمّا ابن سينا فقد خصَّص فصلًا سمّاه (فصل في الخلل في الكلام)، جمع فيه الكثير من مسائل هذا الموضوع. ويتضح من كلامه أنّ أعراض الكلام المرضية ترجع إلى خلل خلقي (أي فيزيولوجي) أو خلل نفسي مبعثه الأعصاب أو آفته في الدماغ. إلا أن ابن سينا عرض للموضوع أيضًا في أثناء حديثه عن الصوت وأعضاء النطق وتطرّق إلى أوصاف معروفة

(٥٤) الأصوات اللغوية، ص ١٤٣-١٤٥.

(٥٥) الكندي، رسالة في اللثغة، تحقيق محمد حسّان الطيّان، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الثالث من المجلد الستين لعام ١٩٨٥.

(٥٦) مبادئ اللسانيات العامة، ص ٢٩-٣٠. و(لويز كمينكر)، اللسانيات السريرية، ترجمة محيي الدين حميدي.

كالتمتمة، والحُبسة. وكذلك وصف بعض طرق العلاج. ويقول في فصل الخلل في الكلام: «قد ذكرنا بعضَ ما يجبُ أن يُقالَ في بابِ استرخاء اللسان – فصل في استرخاء اللسان وثقله والخلل الداخل في الكلام[٥٧] – وأمّا الآنَ فنقول: إن الخَرَسَ وغيرَهُ من آفات الكلام قد يكون من آفةٍ في الدماغ وفي مخرج العَصَبِ الجائي إلى اللسان المحرّك له. وقد يكون في نَفْسِ الشعبة. وقد يكون في العضلِ أنفسِها. وذلك الخَلَلُ إمّا تشنّجٌ وإمّا تمدّدٌ أو تصلّبٌ أو استرخاءٌ أو قِصَرُ رباطٍ أو تعقُّدٌ عن جراحةٍ اندملت أو وَرَمٍ صَلُبَ. وقد يكون ذلك كما تعلمُ من رطوبةٍ في الأكثر. وقد يكون من يُبُوسة. وقد تكون الآفةُ في الكلامِ من جهة أورامٍ وقروحٍ تعرِضُ للِّسانِ ونواحيه. وقد يعرض بعد السّرسام لاندفاع العَضَلِ من الدِّماغ إلى الأعصاب. وفي الحُمَّيات الحارَّة لشدَّة تجفيفها. ويكون اللسان مع ذلك ضامرًا متشنِّجًا. وهو قليلًا ما يكون. وهذه من الآفات العَرَضيَّة الغير الأصليّة...»[٥٨]. ويفصّل ابن سينا في الأعراض التي تعتري اللسان من جهات متعدّدة بعضها خلقي، وبعضها عرضي. ويرى أنّ «أفضل الألسنةِ في الاقتدار على جَودة الكلام المعتدل في طوله وعرضه، المستدقُّ عند أسَلَتِه. وإذا كان اللِّسانُ عظيمًا عريضًا جدًّا أو صغيرًا كالمتشنِّجِ لم يكن صاحبُهُ قديرًا على الكلام. وقد يحدثُ في اللِّسان أمراضٌ تُحْدِثُ آفةً في حركته، إمّا بأن تبطُلَ أو تضعُفَ أو تتغيَّر. وقد يكون المرضُ سوءَ مزاج. وقد يكونُ آتيًا من عِظَمٍ أو صِغَرٍ أو فَسَادِ شكلٍ أو فَسَادِ وَضعٍ فلا يَنسبطُ أو لا ينقبض»[٥٩].

(٥٧) القانون، ٢/ ١٧٦-١٧٧.

(٥٨) المصدر نفسه، ٢/ ١٨٠.

(٥٩) المصدر نفسه، ٢/ ١٧٥.

ثمّ يقول: «وقد يُستدَلُّ على اللِّسان -في تشخيص المرض- من حال حركته عند الكلام ومن حال ضُمورِهِ وخِفَّتِهِ ومن حال غِلَظِهِ حتى يَنْعَضّ كلَّ وقت وتثقُلَ حركتُهُ عندَ الكلام فيدلّ على امتلاءٍ من دمٍ أو رطوبة»(٦٠).

ويتطرق ابن سينا إلى ألقاب متداولة تصف أعراض الكلام المرضية، وقد سبق للكندي أن ذكرها في رسالته، كما ذكرها اللغويون. يقول: «وقد يبلغُ الاسترخاءُ باللسانِ إلى أن يَعْدَمَ الكلامُ أو يتعسَّر أو يتغيَّر. ومنه الفأفاءُ والتَّمتامُ. ومن الصِّبيان من تطولُ به مُدَّةُ العجزِ عن الكلام. ومن المتعتع في كلامه مَنْ إذا عَرَضَ له مرضٌ حارٌّ انطلق لسانُهُ لذوبانِ الرُّطوبةِ المتعتعة للِّسان المحتبسةِ في أصول عصبه. ولمثل هذا ما يكونُ الصَّبيُّ ألثغَ، فإذا شبَّ واعتدلت رطوبته عاد فصيحًا»(٦١). ويقترح ابن سينا علاجًا لمثل هذه الحالة المتقدّمة، ويقول: «إذا أبطأ الصبيُّ بالكلام وجب أن يُدام تحريكُ لسانِهِ ودَلْكُهُ وتسييلُ اللُّعاباتِ منه. وينفعُ في ذلك خُصوصًا إذا استُعمل في دلكه العسلُ... وممّا يحرِّكُ لسانَهم - أي الصِّبيان - ويطلِقُهُ إجبارُهم على الكلام»(٦٢). ويتابع ابن سينا حديثه عن آفات اللسان ولا سيما العصبية ويقول: «ولمَّا كانت عَصَبةُ اللِّسان متَّصلةً بعدَّةِ أعصابٍ لم يخلُ أن تكونَ تلك الأعصابُ مواتيةً لها في الحركة لا تُعاوِقُها وتواتيها، فيكون حالُ أصحّاءِ الكلام. وإما أن تعاوِقَها ولا تواتِيَها بسهولةٍ فيكونُ التمتمةُ ونحوُ ذلك. وربَّما وقعت التمتمةُ من الحُبْسةِ بسبب أنَّ العَصَبة تستقي القوةَ من عصبٍ آخرَ فيتحبَّسُ إلى أن يَتَّجه»(٦٣).

---

(٦٠) المصدر نفسه، ٢/ ١٧٦.

(٦١) المصدر نفسه، ٢/ ١٧٧، وقارن برسالة في اللثغة للكندي، ص ٥٢٨-٥٣٠، والمخصص، ١/ ٢٥٢-٢٦٠.

(٦٢) القانون، ٢/ ١٧٧.

(٦٣) القانون، ٢/ ١٧٦.

ونعود إلى الفصل الذي جعله للخلل في الكلام خاصة. إذ انتقل بعد الحديث عن آفات اللسان إلى آفات الحَنْجرة وما يتبعها، وقال: «...وقد تكونُ الآفةُ في الكلامِ لسببٍ في عَضَلِ الحَنْجرة إذا كان فيها تمدُّدٌ أو استرخاء. فرُبَّما كان الإنسانُ يتعذَّرُ عليه التَّصويتُ في أوَّلِ الأمر، إلا أنَّه يَعْنُفُ في تحريكِ عَضَلِ صدرِهِ وحَنْجَرتِهِ تعنيفًا لا تحتملُه تلك العضلة فتعصى. فإذا يَبِسَ في أوَّلِ كلمةٍ ولفظةٍ استرسل بعد ذلك. ومثلُ هذا الإنسانُ يَجِبُ ألا يستعدَّ للكلام بنَفَسٍ عظيمٍ وتحريكٍ للصَّدر عظيم، بل يَشرعُ فيه بالهُوَيْنَى، فإنه إذا اعتادَ ذلك سَهُلَ عليه الكلامُ واعتادَ السُّهولةَ فيه...»[٦٤]. وقد يؤدي عرض ما يصيب عضل الحَنْجرة إلى توقُّفٍ للتَّنفُّس. ويقول: «وأنت تعلمُ أنَّ العَضَلَ المحرّكةَ للأعضاءِ لتحريكِ الجاذبِ إليها للهواء، وهي عَضَلُ الحَنْجَرة - كما نذكر حالها في باب التنفس - إذا عَجَزَت عن تحريكها أو فعلها لِيَبْسٍ استولى على هذه العضل التي في داخل الحَنْجرة وما يليها، أو لاسترخاءٍ أو لتشنُّج، أو لآفةٍ أخرى لم يمكن الحيوانُ أن يتنفَّس وإن كان المجرى غيرَ مسدود»[٦٥].

وأوضح ابن سينا أنّ الآفة قد تعرض إمّا من عضل الحَنْجَرة وهو فاعل الصوت، وإمّا من باعث مادّته - أي الصوت - وهو الهواء. يقول: «... وإذا كان كذلك فالآفةُ تعرضُ إمّا من الأسباب الفاعلة (عَضَل الحَنْجرة) وإمّا بسببِ الباعث للمادَّة - وهو الحجابُ وعَضَلُ الصَّدر ومؤدِّي مادته الرِّئة ومادَّتُهُ الهواء - وآفتُهُ إمَّا بطلانٌ وإما نقصانٌ. وإمَّا تغيُّرُ بُحُوحةٍ أو حِدَّةٌ أو ثِقَلٌ أو خُشُونةٌ أو ارتعاشٌ أو غيرُ ذلك»[٦٦]. ويعرض ابن سينا إلى المصاب

(٦٤) المصدر نفسه، ٢/ ١٧٩.

(٦٥) المصدر نفسه، ٢/ ١٩٨.

(٦٦) المصدر نفسه، ٢/ ٢٢٥.

بالخنّاق، ويقول: «ويكون كلامُهُ من الضَّعف الذي يُقال: إنَّ فلانًا يتكلّم من مِنْخَرَيْه، وهو بالحقيقة بخلافِ ذلك. فإنَّ الذي يُنْسَبُ إلى هذا في عادةِ النَّاسِ إنَّما هو مسدود المِنْخَرَيْن، فهو بالحقيقةِ لا يتكلَّمُ من المنخرين»(٦٧).

وآخر هذه النصوص الخاصة بالدرس الصوتي وأمراض الكلام ما عرض له ابن سينا من صفات الصوت عامة. منها ما يسبّبه عرض يصيب الحنجرة من وجع أو ضربة أو سقطة مع اشتراك الأعصاب والعضلات والدماغ، أو تسبّبه أعضاء الغذاء وأعضاء التنفس أو المحيط بهما من البطن والصدر أو من الحنك. يقول: «فإنّ تغيُّرَه - أي العضو - إلى رطوبةٍ أو إلى يُبوسةٍ وخشونةٍ قد تُغيِّرُ الصوتَ. ومن هذا القبيلِ قطعُ اللَّهاة واللَّوزتَيْن، فإن صاحبها إذا صوَّتَ أحسَّ كالدَّغدغةِ القويَّةِ المُلْجئةِ إلى التَّنحنح. وربّما انسدَّت حلوقهم عند كلِّ صياح. وأما من جهة المؤدِّي فإنَّ الصوتَ يتغيَّرُ بشدَّةِ حرِّ الرئةِ أو بَرْدِها أو رطوبتِها أو سَيلانِ القَيْحِ إليها من الأورامِ أو سيلانِ النَّوازلِ إليها أو يُبُوسَتِها. فالحرارةُ تُعظِّمُ الصَّوتَ، والبرودةُ تخدِّرُهُ وتُصغِّرُه. واليُبُوسةُ تُخشِّنُهُ وتُشبِّهُهُ بأصواتِ الكراكي. والرُّطوبةُ تُبحُّهُ. والمَلاسةُ تُعدِّلُ الصوتَ وتملِّسُه. وإذا امتلأت الرئةُ رطوبةً ولم تكنِ القصبةُ نقيَّةً لم يمكنِ الإنسانُ أن يصوِّتَ صوتًا عاليًا ولا صافيًا، لأنّ ذلك بقدر صفاء الرئة والحَنْجرة وضِدِّ صفائها...»(٦٨). والنصُّ يطول بذكر حالات وآفات تصيب الصوت. وهناك أسباب أخرى لتغيّر الصوت وبحّته. يقول: «وقد يُبَحُّ الصوتُ لِسَعَةِ آلاتِ التَّصويتِ فيحدثُ بها إعياءٌ أو تَوَرُّمٌ وتوتُّر. وأردؤه ما كانَ على الطَّعام. وقد يُبَحُّ للبردِ الخشنِ وللحرِّ المُفْرِطِ بما يُيْبِسان

(٦٧) المصدر نفسه، ٢/ ٢٠٠.

(٦٨) المصدر نفسه، ٢/ ٢٢٥.

المِزاج. كذلك السهر والأغذية الخشنة. ويبحّ لكثرة الصياح...»[٦٩]. ويتابع الحكيم حديثه عن حالات مشابهة ويصف علاجها. ثم يخصص فصلًا لبحّة الصوت وخشونته، وفصلًا للصوت الخشن وعلاجه، وفصلًا في الصوت القصير، وفصلًا في الصوت الغليظ، وفصلًا في الصوت الدقيق، وفصلًا في الصوت المظلم الكدر، وفصلًا في الصوت المرتعش[٧٠].

وهكذا تظهر أهمّيّة هذه النصوص التي ضمّت مسائل متعدّدة تفضي إلى الدلالة على التطور العلمي المتشعّب في الدرس الصوتي واتصاله بالطبّ، وتوسّعه في أمراض الكلام .كذلك يستدلّ من هذه النصوص المهمة على مبلغ الاهتمام بالوظيفة الكلامية لأعضاء التنفس عند الإنسان وما يجاورها أو يتصل بها من عضلات وأعصاب. ولا شكّ في أنّ المجموعة الأولى من هذه النصوص فيها ما يكمل درس ابن سينا في رسالة أسباب الحدوث بديهة. أما نصوص المجموعة الثانية فتؤدّي مهمة جليلة لدرس أمراض الكلام كما تقدّم. ومع أنّ الكندي سبق إلى هذا الموضوع في رسالته عن اللثغة، فإن الفرق كبير بين ما أتى به من جهة، وما عرض له الحكيم ابن سينا في النصوص السابقة وغيرها مما ضاق عنها المقام لتوغّلها في الاختصاص الطبي من جهة أخرى. على أنّ الكندي له فضل السبق في عرضه للموضوع المذكور وتخصيصه برسالة مستقلة. وأما فضل ابن سينا على الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة فإعلانٌ متجدِّدٌ بالعبقريّة على مدى القرون.

* * *

(٦٩) المصدر نفسه.

(٧٠) المقالة الثانية وهي بتمامها في الصوت، وفيها فصول القانون، ٢/ ٢٢٥-٢٢٨.

المصادر والمراجع

- ابن سينا في دوائر المعارف العربية والعالمية، أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق ١٩٨٤م.
- أساسيات علم الكلام، بوردن وهاريس، ترجمة محيي الدين حميدي، دار الشرق العربي، بيروت وحلب، د. ت.
- أصوات اللغة، عبد الرحمن أيوب، مكتبة الشباب، القاهرة، ط. أولى ١٩٦٣م.
- الأصوات اللغوية، أنيس، إبراهيم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط. رابعة ١٩٧١م.
- الأصوات ووظائفها، محمد المنصف القماطي، دار الوليد، طرابلس (الغرب) ٢٠١٠م.
- أطلس تشريح جسم الإنسان، سوبوتا، ترجمة محمد توفيق الرخاوي، مؤسسة الأهرام، القاهرة، د. ت.
- آليات النطق في رسالة أسباب حدوث الحروف، أحمد محمّد قدور، دار الرفاعي ودار القلم العربي بحلب، ٢٠١٠م.
- أمراض الحنجرة والعنق، فيصل دبسي، جامعة حلب ١٩٨١-١٩٨٢م.
- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر ٢٠٠٧م.
- تاريخ حكماء الإسلام، البيهقي، نشر وتحقيق محمد كرد علي، مراجعة أحمد محمد قدّور، ط. ثانية، دار البيّنة بدمشق ٢٠١٢م.

- تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، جورج مونان، ترجمة بدر الدين القاسم، وزارة التعليم العالي، نشر جامعة حلب ١٩٨١م.
- التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، أبو هلال العسكري، بتحقيق عزة حسن، دار طلاس بدمشق، ط. ثانية ١٩٩٦م.
- دراسات في علم الأصوات عند العرب، دار الرفاعي ودار القلم العربي بحلب والقاهرة، ٢٠١٤م.
- دروس في علم أصوات العربية، كانتينو، ترجمة صالح القرمادي، الجامعة التونسية، ١٩٦٦م.
- رسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، تحقيق محمد حسّان الطيّان ويحيى مير علم، تقديم ومراجعة الدكتور شاكر الفحّام والأستاذ أحمد راتب النفّاخ، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٣م.
- رسالة في اللثغة، الكندي، تحقيق محمد حسّان الطيّان، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (٦٠)، الجزء الثالث لعام ١٩٨٥م.
- الصوتيات، برتيل مالمبرج، ترجمة محمد حلمي هليّل، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٤م.
- علم الأصوات العام، بسام بركة، مركز الإنماء القومي، بيروت، د. ت.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، شرح وتحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.
- الغريب المصنّف، أبو عبيد (القاسم بن سلام)، تحقيق محمد المختار العبيدي، بيت الحكمة (قرطاج)، ١٩٨٩م.
- القانون في الطب، مصوّرة عن طبعة بولاق، دار صادر، بيروت.

- كتاب العين (مرتب على حروف المعجم)، ترتيب وتحقيق عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.
- كتاب العين، الفراهيدي (الخليل بن أحمد)، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهجرة، قُم، إيران، ١٤٠٥هـ.
- كتاب الفهرست، ابن النديم، تحقيق رضا تجدّد، طهران ١٩٧١م.
- كتاب تهذيب الألفاظ لابن السكيت التبريزي، تحقيق فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠٠٥م.
- كتاب تهذيب اللغة، الأزهري، الجزء الأوّل، حقّقه وقدّم له عبد السلام هارون، راجعه محمّد علي النّجّار، الدار المصرية للتّأليف والترجمة، ١٩٦٤م.
- كتاب تهذيب اللغة، الأزهري، الجزء الخامس بتحقيق عبد الله درويش، ومحمد علي النّجّار، وتقديم عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- كتاب خلق الإنسان، ثابت بن أبي ثابت، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، وزارة الإعلام بالكويت، ط. ثانية ١٩٨٥م.
- الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، د. ت.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت.
- اللسانيات السريرية، لويز كمينكز، ترجمة محيي الدين حميدي، جامعة الملك سعود ٢٠١١م.
- مبادئ اللسانيات العامة، جامعة حلب، ٢٠٠٦م.
- محاضرات في الألسنية العامة، دوسوسير، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، دار نعمان للثقافة، جونية (لبنان) ١٩٨٤م.

- المخصص، ابن سيدة، قرأه وضبطه وشرحه محمّد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ٢٠١٢م.
- مصنفات اللغويين العرب في خلق الإنسان، إحسان النص، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (٧٣)، الجزء الثاني لعام ١٩٩٨م.
- مفاتيح العلوم، الخوارزمي، إدارة الطباعة المنيرية بمصر ١٣٤٢هـ.
- المنظومة الكلامية، دنيس وبنشن، ترجمة محيي الدين حميدي، ومراجعة أحمد أبو حاقة، معهد الإنماء العربي، بيروت وطرابلس الغرب ١٩٩١م.
- موجز تاريخ علم اللغة، روبنز، ترجمة أحمد عوض، عالم المعرفة، العدد ٢٢٧، تشرين الثاني ١٩٩٧، الكويت.

* * *

الحوار في النقائض
لاميّتا جرير والفرزدق أنموذجًا

د. سمر الديوب(*)

ملخص:

يعدّ الحوار مبحثاً جديداً نسبيًّا، وتثير علاقته بالشعر أسئلة متعددة تتعلّق بعلاقته بالحِجَاج والمناظرة والبرهان من جهة، وتتعلق بالخطابات الموجودة في النصّ الشعري من جهة أخرى كالخطاب الوصفيّ، والخطاب الشعريّ المسرود.

وقد حضر الحوار بقوة في النقائض في العصر الأموي، ويسعى البحث إلى دراسة فاعليّة الحوار من وجهة نظر تداولية، منطلقين من فكرة أن أي نصّ شعريّ ينطوي على حوار في مستوى من مستوياته.

ولتحقيق هذه الغاية ينتظم البحث في المحاور الآتية:

- الحوار وسؤال الجنس الأدبيّ.
- طبيعة الحوار وأشكاله في النقائض.
- بِنية الحوار وأنماطه.
- التبادلات في الحوار ووظائفها.

(*) أستاذة في قسم اللغة العربية - جامعة البعث.

١- هدف البحث وأسئلته ومنهجيته:

يعدّ البحث في الحوار بحثاً جديداً نسبيًّا. وهو مكوِّن سردي، قلّ من انتبه إلى فاعليّته ووظيفته وطبيعته في الشعر. ونهدف من هذه الدراسة إلى البحث في فاعلية الحوار في الشعر وأنواعه وركائزه انطلاقاً مما استجدّ في الدراسات النقدية الغربية المتعلقة بالسرد التخييلي، والدخول إلى النص الشعري القديم من باب مختلف، للكشف عن تعقّد النَّظم الشعري القديم بغية الكشف عن الحوار، وعلاقته بالحِجاج ذي التوجه المنطقيّ، وبالبرهان والإقناع.

كما نسعى إلى دراسة أنواع الحوار بين الطرفين المتناقضين، ووظائفه لدى كل من الشاعرين، والكشف عن الآليات الحجاجية التي لجأ إليها كلّ من الشاعرين المتخاصمين لتأكيد كلامه، وتفنيد كلام خصمه. كما نسعى إلى البحث في القوانين التداولية التي تحكم النقائض بوصفها نصوصاً فنيّة قائمة على الإيحاء والتخييل من جهة، والتناظرية من جهة أخرى.

ويثير البحث جملة أسئلة، منها: ما منزلة الحوار في النص الشعري؟ وما علاقته بالوصف والسرد في شعر بُنِي بناء يجنح إلى السردية؟ وهل يقبل الشعر الحوار؟ وما علاقة الحوار بجنس الشعر؟ وإذا كان النص الشعريّ فعلاً كلاميًّا غير مباشر متعلقاً بالأطراف المتخاطبة فما حدوده في النص الشعريّ؟

ويأخذ المنهج التداوليّ بعين الاعتبار السياق العام، والمقام في العملية التواصليّة. فالحوار القائم على الحجاج مبحث تداوليّ، ويوضح هذا المنهج توالد النصوص في العملية الحواريّة في النقائض، ويبحث في العوامل التي تجعل الخطاب في النقائض رسالة تواصليّة فاعلة.

ويؤلِّف النص الشعريّ حَيّزاً واسعاً من الفضاء التواصليّ الأدبي، ويمتدّ إلى فضاءات تواصلية أخرى، فيقدِّم حجة، ويستجيب للدرس التداوليّ.

وتومئ النقائض إلى فكرة التفاعل وتبادل الأدوار، وأولُ أساس للحوار وجودُ لغة مشتركة بين الأطراف المتحاورة، ويعد هذا الأمر عتبة إفهاميّة تسعى إلى خلق فضاء لغويّ مشترك يهدف إلى تنبيه المتلقّين على استعمال الشاعر ألفاظه.

ولم يعرف الشعر العربيّ القديم الفكر الحواري، وإن عُرفت بعض أشكاله في القصائد. فيرى الفكرُ الحواريّ الأفكارَ موضع جدل، ويقوم على الرأي والرأي الآخر. فما طبيعة الفكر الحواريّ في النقائض؟ وما علاقته بجنس الشعر.

٢- الحوار: دلالة واصطلاحاً:

يعني الحوار الأقوال المتبادلة بين طرفين أو أكثر، ويرتبط بمعنى المحادثة. ويشير المعنى اللغوي إلى الجواب، والردّ، والمخاطبة[١].

أما اصطلاحاً Dialogue فهو وسيلة سردية، وضرب من الخطابة، وتخاطب يطلب الإقناع فيما يتعلق بقضية أو فعل. ويقوم على الحجاج الجدليّ من زاوية فلسفية، وقد اصطُلح في الدراسات الحديثة على ما يسمّى البلاغة الجديدة. فثمة بلاغة الحوار، وتتناول مكونات الحوار، وآليات اشتغاله، وبلاغةُ الحوار جزء من البلاغة العامة للإقناع، وهي فرع من البلاغة العامة[٢].

---

(١) تحاور القوم: تراجعوا الكلام بينهم، وهم يتراوحون ويتحاورون. تاج العروس، مادة حور.
ويرد الحوار بمعنى الردّ وتراجع الحديث، وهو الجواب، والمحاورة: المجاوبة، ومراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، والمَحْوَرة من المحاورة كالمشورة من المشاورة. ابن منظور، مادة حور.
ويعني الكلام السابق أن المعاجم تشترك في معنى الجواب أو المخاطبة. فالحوار: الجواب والردّ والاستدارة الموجودة في معنى حور بين المتكلمين.

(٢) نستبعد في دراسة الحوار ما يتصل بالتناص من حوار بين النصوص. وللتوسع في =

وينقل الحوارُ الأقوالَ المتبادلة، فثمة تبادل الافتتاح، وتبادل الختام، والتبادل الأوسط، لكن النقائض لم تشتمل على هذه التبادلات مجتمعة ظاهريًّا، فقد بدأت القصيدتان بالوصف، لكننا نوسع دائرة الحوار ليغدو حواراً مباشراً بين طرفين، وحواراً غير مباشر يمكن أن يُضمَر في الوصف، والنظم الجانح إلى السرد.

ويعني الحوار عقداً بين طرفين على قبول المحادثة التي تتركّب من وحدات مختلفة، يرتبط بعضها ببعض وفق قواعد تنظيم معينة. فإذا صادر أحد الطرفين حقّ الآخر في المعرفة فثمة خروج جزئيّ من دائرة الحوار.

وتقوم العتبة الحواريّة على وجود أرضيّة مشتركة بين المتخاطبين تسمح نظريًّا بإنجاز حوار ناجح، وثمة عتبات حجاجيّة؛ إذ يحتاج الحوار إلى آليات إقناعية يستخدمها المتحاورون لتمرير آرائهم(٣).

= مصطلح الحوار انظر: فاتح عبد السلام: ١٩٩٩، الحوار القصصي (تقنياته وعلاقاته السردية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت. محمد نجيب العمامي: ١٩٩٩، الحوار في ألف ليلة وليلة لنجيب محفوظ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة (موارد) العدد ٤. محمد سعيد حسين مرعي: ٢٠٠٧، الحوار في الشعر العربي القديم: شعر امرئ القيس أنموذجاً، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مجلد ١٤، عدد ٣، نيسان. صالح محمد أحمد السهيمي: ٢٠٠٩، الحوار في شعر الهذليين: دراسة وصفية تحليلية، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة أم القرى.

(٣) يشكل الحوار عنصراً بالغ الأهمية في الخطاب. وقد فرّق د. طه عبد الرحمن بين مراتبه، فجعله حواراً ومحاورة وتحاوراً. انظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص٥٧.

والمحاورة: المراجعة، مراجعة الكلام والمنطق، لسان العرب، حور.

والمحاورة أعمُّ من المناظرة، فإذا وجد في الحوار محاجّة، ومجادلة، أو خصومة ونزاع كان هنالك مناظرة، فالمناظرة مراجعة الكلام بين طرفين، كل طرف يقصد تثبيت قوله، وإبطال قول الآخر، فالمناظرة فرع من الحوار. =

ويكون الحجاج منطقيًّا، أما الحوار فقد يكون استهوائيًّا يطغى عليه الميل النفسي أكثر من الاحتكام للعقل والعرف، ويعني ذلك أن الحوار قائم على الحجاج لكن لا يشترط فيه أن يكون منطقيًّا. إنه تعبير فني وفكري في آن، وأداة تعبيريّة للكشف عن الأفكار.

والحوار الشعري لا يكون بين طرفين فقط شأن الحوار في النثر، بل يولي الأهميّة الكبرى للمتلقي بوصفه شخصية افتراضية يوجَّه الحوار إليها. فالخطاب الشعري قد يكون وصفيًّا، وقد يكون حواريًّا، وقد يجنح إلى السردية، وثمة فرق بين الحوار والحوارية (Dialogisme) وهو المصطلح الجديد المتولد من الحوار(٤).

وثمة مصطلحات ترد مع الحوار كالتخاطب والتفاعل والمحادثة، وتتفاوت دلاليًّا مع الحوار، وتلتقي في أنها جميعاً تنتمي إلى حقل التواصل، فأيّ تفاعل بين طرفين يقتضي فعلاً، وردّ فعل تحقيقاً لغاية إقناعية، أو حجاجية، أو إخبارية(٥).

= أما التحاور، فتحاور القوم: تبادلوا الحديث وتجادلوا، لسان العرب، مادة حور، فالتحاور وسيلة لحل النزاع والتجادل والتفاهم عن طريق الحوار.

(٤) تحدّث (باختين Bakhtine) عن الحوارية حين حاول وضع قوانين للسرد في تحليل الرواية، ووصف بنياتها الفنية التي تتفاعل في الأثر الأدبي، وربط الخطاب بالحوارية؛ إذ تأخذ المعارف لديه شكل حوار. فالحوار بين النصوص موجود، ويرى باختين أن ثمة علاقة دلالية تنجم عن التواصل اللفظي هي نتاج تفاعل لغوي بالحوار الصامت أو المسموع، فانطلق من التعددية الفكرية والصوتية واللغوية والأسلوبية. انظر: تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين، المبدأ الحواري، ص١٢١-١٢٢.

والفكرة الأهم في الحوارية حوار الخطابات، وهو خطاب الآخرين داخل لعبة الآخرين، يفيد في تكسير التعبير عن نيّات الكاتب، وهو خطاب ثنائي الصوت على حد تعبير باختين. انظر: ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص٨١-٨٢.

(٥) يتشكل التفاعل التواصلي من مفهومي التفاعل Interaction والتواصل Communication =

وقد آثرنا دراسة الحوار في النقائض؛ لأن التفاعل والتواصل متصاحبان فيها، فتومئ ألفاظ النقائض إلى فكرة التفاعل وتبادل الأدوار، وأول أساس للحوار وجود أرضية مشتركة بين الطرفين المتحاورين، وهو أمر يقدِّم عتبة إفهاميّة تسعى إلى خلق فضاء لغوي مشترك. وقد اتفق الطرفان المتناقضان على الحوار، وعلى الأرضية المشتركة، كما أن النقائض تمثل نصًّا شعريًّا قائماً على التخييل، ومركباً من جملة حوارات متراكبة، فثمّة حوار بين الشاعرين المتناقضين، وحوار بين الشاعر والمتلقي، وحوار بين الشاعر وقبيلة الآخر، ففيها أقوال مباشرة وغير مباشرة تندرج في خطاب مرويّ أو موصوف، ويثير هذا الكلام سؤالاً عن علاقة الحوار بالجنس الأدبي.

٣- النقائض والحوار وسؤال الجنس الأدبي:

يعود ازدهار النقائض في العصر الأموي إلى عوامل اجتماعيّة وعقلية(٦)

= فالتفاعل مشاركة طرفي الحوار في الكلام حول مضامين إنسانية معينة، والتواصل تبادل كلاميٌّ بين متكلِّم ينتج ملفوظاً إلى مخاطَب يلتمس الاستماع إلى الجواب صريحاً، أو مضمراً. فالتواصل حالة بين متكلّمين يسهم كل منهما في عملية الحوار التي تضم مكونات لسانية لغوية، وخارج لسانية. انظر للتوسع: محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، ص١٥.

(٦) نما الجانب العقلي في العصر الأموي، وظهرت أنواع مختلفة من الملاهي، وازدهر الغناء في مكة والمدينة، وظهرت النقائض في قبائل العراق، وكان الناس يجتمعون حول المتناقضَين، ويهللون، ويصفقون لأحدهما، فتحولت النقائض من غاية الهجاء إلى سدّ حاجة الجماعة في البصرة إلى ضرب من اللهو. الأغاني: ١٠/ ١٥٢.

ويعود فنّ النقائض إلى العصر الجاهلي، لكنه كان في صورة بسيطة، ثم تطورت في صدر الإسلام وقد أصبحت النقائض في العصر الأموي فنًّا مستقلًّا وقائماً في ذاته، تقوم على العصبية القبلية، والفخر والهجاء؛ لإلهاء الناس وتسليتهم، ولم تقم على أساس الخلاف الحقيقي بين الطرفين المتناقضين، واشتهرت في قبائل العراق، وتحوّلت من غاية الهجاء إلى غاية جديدة هي توفير مادّة للّهو في البصرة.

وقد نما العقل العربي، وتمرّن على الحوار والجدل والمناظرة، فتناظر شعراء النقائض في تاريخ القبائل ومثالبها ومفاخرها، وجمع كل من الطرفين أدلته، وأدلة خصمه؛ لكي يفنّدها، فظهرت مناظرات شعرية أساسها الحوار. ويتعين على ذلك أن النقائض ليست هجاء خالصاً، إن الحوار وسيلة لإثبات غرض الهجاء في النقائض، والنقائض مناظرة فنية بالشعر، تستضيء بقدرة العقل على الجدل، والحوار، وتوليد المعاني(٧).

ونجد ظلالاً للحوار في الأدب الجاهليّ في المنافرات والمفاخرات القائمة على العصبية القبليّة، وقد تكون النقائض تطوراً للمنافرات والمفاخرات الجاهلية، وترتبط المنافرة والمفاخرة بالشعر والخطابة، ففيهما يفخر كلّ من الطرفين بنفسه وقبيلته، ويحتكم إلى شخص ثالث ليفصل بينهما. وتقوم النقائض على مبدأ الخطاب والخطاب المضادّ؛ لذا لا تنفصل عن الحوار والحجاج والجدل. كما ترتبط بالمناظرة القائمة أساساً على صناعة الحجة(٨).

وتقوم المناظرة على التبادل الخطابيّ بين الطرفين، وهي شكل من أشكال الخطاب الحجاجي، ويفترض أنها تحتاج إلى طرفين، وموضوع، وأخلاقيات، ووظائف. فتلتقي النقائض المناظرة في الهدف والوظيفة،

---

(٧) ظل جرير والفرزدق يتهاجيان نحو خمسة وأربعين عاماً في عشيرتيهما من جهة، وفي قيس وتميم من جهة أخرى.

وجرير والفرزدق من تميم. انظر أخبارهما في: الأغاني: ٨/ ٣، الشعر والشعراء: ١/ ٤٣٥، ابن سلام، ص٣١٥.

(٨) يرى عبد الله العشي أن صناعة الحجة هي العنصر المنتج لخطاب المناظرة من خلال إنتاجها المتتالي في النص، والقيام بتنويعها من موقف إلى آخر، ومراوغة الآخر بتقديمها المتعدد والمختلف.

عبد الله العشي، زحام الخطابات – مدخل تصنيفي لأشكال الخطابات الواصفة، ص٤١.

وترتبط من ناحية جذورها بالمنافرات والمفاخرات الجاهليّة، وقد تكون مرتبطة بالنقائض الجاهلية، والنقائض في صدر الإسلام.

ويعدّ الحوار أساساً في النقائض، وينظر النقاد إليه على أنه دخل إلى جنس الشعر مع أنه أصيل فيه[٩] والاتصال بين الأنواع والأجناس واسع وكبير، ويختلف الحوار في الشعر عن الحوار في الرواية والمسرح، فالكلمة في الحوار الروائي تُقرأ، وتُنطق في الحوار المسرحي، وتُحلّق بالخيال في الحوار الشعري، ويرتقي الحوار الشعريّ عن لغة الحوار اليومي التي نجدها في الرواية، أو المسرحية، ويطوِّر الحوار الحدث (الدرامي) في القصيدة، فيقدّم به الشاعر أفكاره، ويبرهن عن مقدمته المنطقية كاشفاً عن شخصيته وشخصية الآخر المختلف.

والحوار أكثر حيويّة من الأسلوب السردي، أو الوصفي، وتقوم النقائض على الحوار في حين أن الشعر القديم ليس مبنيًّا بناءً حواريًّا، لكن كل قصيدة تنطوي على حوار في مستوى ما؛ لأن الشاعر لا ينكفئ على ذاته، بل يتوجه إلى متلقّ قد يكون ضمنيًّا، أو مفترضاً. ويمكن القول إنّ الشعر المنكفئ إلى الذات يمثِّل نوعاً من الحوار هو الحوار الداخليّ، فكل قصيدة تتضمن حواراً في مستوى ما.

ولا تقوم النقائض على الحوار فقط؛ لأن ذلك يخرجها من دائرة الشعر، فالنقائض جنس شعري يرسم صورة فرد ومجتمع معاً، وهو أمر يكسب النص خصوصية، ويُكسب الحوار أهمية بوصفه أداة فنية من جهة، ووظيفة اجتماعية مثقلة بالدلالات من جهة أخرى. فالحوار عنصر خطابيّ،

(٩) ترى (أوركيوني) Orecchioni أننا كي نتمكن من الحديث بصفة دقيقة عن الحوار لا يتعين فقط افتراض حضور شخصين على الأقل يتبادلان الأدوار..... بل يتعين عليهما تحديد أقوالهما بنفسيهما. عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص٥٨.

ومكوّن حِكائيّ، وهو حدث في حدّ ذاته ينفتح على الأحداث الماضية والراهنة والمستقبلية.

ويلتحم الخطاب الحواري بالخطابين السرديّ والوصفيّ في النقائض، وهو مندرج في خطة شعريّة عامة، وسياق خاص يجنح إلى السردية.

وتكاد الدراسات النقدية تخلو من دراسة تطبيقية خاصة بالحوار في الشعر التراثيّ، وسنهتم بالحوار في ذاته، وفي علاقته بالنسيج الشعريّ، وطبيعته، ونحدّد أنماطه، وركائزه.

- القصيدتان:

قال الفرزدق(١٠):

إنّ الذي سمكَ السماءَ بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعزُّ وأطولُ

بيتاً بناهُ لنا المليكُ وما بنى ... حَكَمُ السماءِ فإنه لا يُنقَلُ

بيتاً زرارةُ محتبٍ بفِنائه ... ومجاشعٌ وأبو الفوارس نهشلُ

يلِجون بيتَ مجاشعٍ وإذا احتبَوا ... بزوا كأنهم الجبالُ المثَّلُ

لا يحتبي بفِناء بيتكَ مثلُهم ... أبداً إذا عُدَّ الفعالُ الأفضلُ

من عزِّهم جحرت كليبٌ بيتها ... زَرْباً كأنهم لديه القُمَّلُ

ضربت عليكَ العنكبوتُ بنسجِها ... وقضى عليك به الكتابُ المنزَلُ

---

(١٠) جرير والفرزدق، نقائضهما، ج١/ ١٨٢ وما بعدها وقد اجتزأنا أبياتاً من النصين لطولهما، وسنورد أبياتاً أخرى في متن البحث حسب الحاجة. والفرزدق من مجاشع الدّارميّة التي تنتهي إلى تميم، وتعدّ تميم أكبر القبائل المضريّة. انظر أخباره في: الأغاني: ١٩/ ٢ وما بعدها.

أما جرير فهو جرير بن عطيّة بن الخَطَفى اليربوعي، وهو تميمي أيضاً، وكان صديقاً للفرزدق. انظر أخباره في: الأغاني: ٨/ ٣ وما بعدها.

أيــن الــذين بهــم تســامي دارمــاً ... أم مَـنْ إلـى سَـلَفي طُهيّـةَ تجعـلُ
يمشـون فـي حلـقِ الحديـد كمـا ... جرْبُ الجِمالِ بها الكُحَيْلُ المشعَلُ
يحمي إذا اختُرِطَ السيوفُ نساءنا ... ضـربٌ تخـرُّ لـه السـواعدُ أرعـلُ
ومعصَّــبٍ بالتــاجِ يخفــق فوقــه ... خِرَقُ الملوكِ لـه خميسٌ جحفـلُ
ملـك تسـوق لـه الرمـاح أكفُّنـا ... منــه نعــلٌ صــدورَهنَّ ونُنهَــلُ
وإذا دعــوت بنــي فُقَــيمٍ جــاءني ... مَجْرٌ له العـددُ الـذي لا يُعْـدَلُ[11]
الأكثــرون إذا يُعــدّ حصــاهمُ ... والأكرمــــون إذا يُعَــــدُّ الأولُ
إن الزحــام لغيــركم فتحيّنــوا ... وِردَ العشـيِّ إليـه يخلـو المنهـلُ
أحلامنــا تــزن الجبــال رزانــةً ... وتخالنــا جنًّــا إذا مــا نجهــلُ
يـا بـن المراغـةِ أيـن خالـك إننـي ... خالي حُبيشٌ ذو الفعـالِ الأفضـلُ
إنــا لنضــربُ رأس كــلِّ قبيلــةٍ ... وأبــوك خلــف أتانــه يتقمّــلُ
إن التــي فُقِئــت بهــا أبصــاركم ... وهـي التـي دمغـت أبـاك الفيصـلُ

فردّ جرير:

أعــددتُ للشــعراء ســمّاً ناقعــاً ... فســقيتُ آخــرَهم بكــأس الأول
لما وضعتُ على الفرزدقِ ميسَمي ... وضغا البغيثُ جدعتُ أنفَ الأخطلِ
أخزى الذي سمك السماءَ مجاشعاً ... وبنى بناءك في الحضيض الأسفلِ
إنـي بنـى لـي فـي المكـارم أوّلـي ... ونفخْتَ كيـرَك فـي الزمـان الأوّلِ
أعيتــك مــأثرةُ القيــون مجاشــعٍ ... فـانظر لعلـك تـدّعي مـن نهشـلِ
إني انصـببتُ مـن السـماء علـيكم ... حتى اختطفتك يا فرزدقُ مـن عـلِ
أحلامُنــا تــزن الجبــالَ رزانــةً ... ويفــوقُ جاهلُنــا فعــالَ الجُهَّــلِ

(١١) الكثير من كل شيء.

فارجع إلى حَكَمي قريشٍ إنهم أهلُ النبوّةِ والكتابِ المنزلِ
كان الفرزدقُ إذ يعوذ بخاله مثلَ الذليل يعوذ تحت القَرْمَل
وقضت لنا مضرٌ عليك بفضلنا وقضت ربيعةُ بالقضاء الفيصلِ
إن الذي سمك السماء بنى لنا عزاً علاكَ فما له من منقلِ
أبلغ بني وقبانَ أن حلومهم خفّت فلا يزنون حبّة خردلِ
أزرى بحِلمِكم الفياشُ فأنتم مثلُ الفراشِ غشينَ نارَ المصطلي
ألهى أباك عن المكارم والعلا ليُّ الكتائفِ وارتفاعُ المرجلِ
أبلغ هديّتي الفرزدق إنها ثقلٌ يُزادُ على حسيرٍ مُثقَلِ
أنّا نقيمُ صغا الرؤوسِ ونختلي رأسَ المتوَّجِ بالحسامِ المِقصَلِ

٤- طبيعة الحوار وأشكاله في القصيدتين في إطار علاقته بالفضاء النصي

لا نجد أثراً للحوار في بداية القصيدتين؛ لأن لكلا الشاعرين هدفاً يسعى إلى الوصول إليه، فيبدأ كلٌّ منهما بالوصف المندرج في نظم يجنح إلى السرديّة، ويكون مطلع الكلام عادة وضعَ أسس العالم المتخيّل في القصيدة، فللبداية وظيفة. فقد بدأ الفرزدق بقوله:

إن الذي سمكَ السماءَ بنى لنا بيتاً دعائمه أعزُّ وأطولُ
بيتاً بناهُ لنا المليكُ وما بنى حَكَمُ السماءِ فإنه لا يُنقَلُ
بيتاً زرارةُ محتبٍ بفنائه ومجاشعٌ وأبو الفوارس نهشلُ
يلجون بيتَ مجاشعٍ وإذا احتبَوا برزوا كأنهم الجبالُ المثَّلُ

وبدأ جرير بقوله:

لمن الديارُ كأنها لم تُحلَلِ بين الكِناسِ وبين طلحِ الأعزلِ

ولقد أرى بك والجديدُ إلى بِلى موتَ الهوى وشفاءَ عينِ المجتلي
نظرت إليك بمثلِ عيني مغزَلٍ قطعت حِبالَتها بأعلى يَليَلِ
يا أم ناجيةَ السلامُ عليكم قبل الرَّواحِ وقبلَ لومِ العذَّلِ

يبدأ الفرزدق بوصف عِزِّ بيتِه، والرجال العظام الذين انتظم مجدُه بهم، فثمة حوار ضمني، وهو أن بيت أهله من صنعة الله، لا يدانيه بيت غيره في العز والعظمة، فهو يعاجزه ضمنيًّا، وقد ذكر الأعلام زرارة، ومجاشع، ونهشل إشارة إلى عظمتهم، فقد بنى الله بيتهم من العز والعظمة. وحين يصف الشاعر في مقام الفخر يستتر الآخر تحت الـ«نحن» الظاهرة، ويوجّه خطاباً غير مباشر له بالفخر بـ«نحن» فالوصف - بناءً على ذلك - حوار ضمنيّ بين الشاعر وخصمه، وحجة تقود إلى نتيجة؛ إذ يبدأ كلامه بحديثه عن قومه، من هم؟ وما قيمتهم؟ وتأتي الإجابة عن هذه الأسئلة بالوصف المندرج في الشعر المبنيّ على السرد، فغاب الحوار ظاهريًّا فقط، لكن تغييبه لا غيابه ضرورة للبدء بالشعر، وهي سمة من سمات الكتابة الواقعية؛ إذ يلجأ المبدع إلى التعريف بالشخصيات قبل الحوار، فغيَّب الحوار في المطلع، ثم بدا قويًّا حيناً، باهتاً حيناً آخر ذلك أن علاقته بالطرف الآخر متوترة، ويجب أن يحقق السبق الفني بالطرق كلّها.

أما جرير فبدأ بالطلل ووصف الديار، والوصف حجة ضمنية، فالطلل اندثر، وقد تركه الأبناء للحيوان حين غادروه، فصار المكان أطلالاً في ردّ ضمني على الفرزدق، فتحطمت جدران البيت، وقد حدّد مكانه بين الكناس وطلح الأعزل؛ للإيهام بالواقعية في حين أنه رحل على مطيّ كأنها قطا فلاة:

يسقينَ بالأُدمى فراخَ تنوفةٍ زغباً حواجبهنَّ حُمْرَ الحوصلِ

ويوجَّه الوصف توجيهاً حجاجيًّا؛ إذ إن ورود اللون الأحمر يحيل على ثورة جرير الفنيّة على الفرزدق، فيُغيَّب الحوار قصداً في المطلع الطللي،

ويمكن أن ننظر إلى الحوار على أنه حوار مستتر بالوصف هنا، فقد بدأ هجومه بطريقة رمزية في الطلل؛ لينتقل بعد ذلك إلى المباشرة:

أعددتُ للشعراء سمًّا ناقعاً فسقيتُ آخرَهم بكأس الأول

أخزى الذي سمك السماءَ مجاشعاً وبنى بناءك في الحضيض الأسفلِ

فهي قفزة مفاجئة على مستوى الحوار، فقد بدأ بحوار مستتر بالوصف في المطلع، وانتقل إلى لهجة شديدة العداء، فارتفع مستوى الحوار، وتستمر وتيرته العالية في نص جرير، ويتنوع بين مباشر، وغير مباشر، وإسناديّ، وهو يترصد كل فكرة جاء بها الفرزدق، ويهدمها؛ ليبني على أنقاضها فكرة مضادة، فهو نصّ مضادّ للنصّ السابق مع أنه ناجم عنه، ومتولد منه، وقد أنهى كلّ من الطرفين بحوار منقول:

قالت وقد عَرَفت جريراً أمُّه: مهلاً جريرُ إليَّ جئتَ تغفَّلُ

جرير:

أبلغْ هديّتي الفرزدق إنها ثقلٌ يزادُ على حسيرٍ مثقَلِ

إنّا نقيمُ صغا الرؤوسِ ونختلي رأسَ المتوَّجِ بالحسامِ المقصَلِ

وبذلك بدأت القصيدتان بالوصف الموجَّه توجيهاً حواريًّا، ودارتا حول حوار بأشكال مختلفة، وانتهتا بحوار منقول، وهي مواطن استراتيجية تظهر أن الحوار كاد يستبدّ بالنصين معاً. وقد اشتد ظهوره في المواضع المرتبطة بتشابك الأحداث والنقاط التي يدور حولها الصراع، وهو صراع ذو طابع اجتماعيّ، قبليّ، سياسيّ.

ومن أشكال الحوار ما يتم تعرُّفُهُ بالخطاب الإسناديّ، وهو الحوار المنقول[١٢] وهو حوار مضمّن في حوار الشاعر، ويدل هذا الأمر على كثافة

(١٢) يعني الحوار المنقول العبارات والجمل التي تصحب الخطاب المباشر، وتسنده إلى =

حضور الحوار في النصّين وعلى أن غيابه غياب شكلي، وهو حوار من طرف واحد إلى متلقّ آخر هو الشاعر الآخر، والمتلقّون بعامة؛ إذ تتطلب النقائض جدالاً، ومحاكمة عقلية، وقلب فخر الخصم إلى هجاء: «قالت وقد عرفت جريراً أمه... مهلاً جرير إلي جئت تغفَّل» ويوهم هذا الحوار أن الشخصيّة هي من نطقت به في حين أن الشاعر هو من أوجد الشخصية، وحمّلها حواراً يوافق فكره.

وتأتي الجملة الاعتراضية السابقة لتُمثَّل في أفعال التواصل، فهي تسند القول لأمّ جرير، ولهذه الجملة أكثر من وظيفة، فهي من جهة إخبارية، تصف طريقة القول، وحال أم جرير في أثنائه، ومن جهة أخرى تحمل وظيفة تقويمية، فقد عرفت جريراً أمُّه، وهي معرفة مبنية على حكم قيمة، ومن جهة ثالثة تميز المخاطبين، وتؤكد أن الحوار بين الشاعرين ليس مستقلًّا عن الأحداث الواقعية التي تؤكّده، وتدعمه.

ولا يعني نهوض النصّين على الحوار أن ثمة تغييباً للتغاير الخطابي بين الحوار والوصف والشعر؛ لذا نلاحظ اختلافاً في مستويات القصيدة، ونحن ننتقل بين الخطاب الوصفيّ، والخطاب الحواريّ، والخطاب الشعريّ المسرود. على أن الحوار من صميم التجربة الشعرية، فليس هنالك نصّ شعريّ خال من الحوار في أبسط مستوياته، نجد أنه مندمج في النص الشعري، وليس ناتئاً، وهو حوار من طرف واحد؛ لأن الردّ يأتي في النصّ الثاني «النقيضة».

إن ثمة استرسالاً بين الشعر المسرود والوصف والحوار في النقائض خلاف الحوار في النثر الذي يقطع الاسترسال بين السرد والحوار. وبذلك يختلف الحوار في الشعر عن الحوار في السرد ذلك أنه مندمج في النص الشعري.

= هذه الشخصية أو تلك. انظر:

Gérald Prince, Le discoursattributif et le récit, in Poétique 35, septembre 1978, p.305.

ويُمسرِح الحوار النصّين، وينفي من الشعر سمة الذاتية المطلقة، أو الغنائية، فالذاتيّ في الشعر يمتزج بالموضوعي.

ومن طبيعة الحوار في النقائض أنه لم يتمكن من الوصول إلى السجال، فلم ينشأ من الحوار حوار آخر إلا في النقيضة، وهو حوار قصير، محدود بسبب قيد الوزن والقافية.

وللحوار مناسبات، لكن في النقائض له مناسبة واحدة هي الحط من قيمة الخصم، وقلب فخره هجاء لغاية فنية:

الفرزدق:

فادفعْ بكفِّك -إن أردت بناءنا- ثهلانَ ذا الهضباتِ هل يتحلحلُ
وأنا ابنُ حنظلةَ الأغرُّ وإنني فـي آلِ ضبَّةَ لَلمعمُّ المُخْوَلُ
فرعانِ قد بلغ السماءَ ذراهما وإليهما من كلِّ خوفٍ يُعقَلُ
يا بن المراغة أين خالك إنني خالي حُبيشٌ ذو الفعالِ الأفضل

جرير:

إني إلى جبلَي تميمٍ معقلي ومحلُّ بيتي في اليفاعِ الأطولِ
أبنوطهيّةَ يعدلون فوارسي وبنو خَضافِ وذاك ما لم يُعْدَلِ
كان الفرزدقُ إذ يعوذ بخاله مثلَ الذليلِ يعوذ تحت القَرملِ
وافخر بضبّةَ إن أمك منهم ليس ابنُ ضبّةَ بالمُعَمِّ المُخوَلِ

يلتحم الحوار على مستوى الخطاب بالوصف والشعر المسرود، فقد بدأ الفرزدق بحوار مباشر، أتبعه بوصف قصدي، ثم بحوار نفسه، وأنهى بحوار جرير، وبدأ جرير بمركزية الذات؛ لإزاحة الآخر، وأتبعه بحوار الذات، وهو حوار يرتدّ إلى الخارج، ثم وصف الفرزدق، وأنهى بحواره.

وقد استغنى الشاعران هنا عن الخطاب الإسنادي؛ ليُظهرا أنّ ما يريدان

قوله أهم من القائل نفسه، ويبدو كل من الشاعرين قد لجأ إلى الخطاب المباشر لنقل الحوار المهم من وجهة نظره، فيحاور الفرزدق جريراً في حدث رفعة نسبه ومجده، ويواجهه بأصل خاله، وهي أمور مهمّة لديه في حين أن جريراً يحاور الفرزدق في نسبه لأمه، وهو يهدم فخره بها، ويحوله إلى هجاء، فثمة عقدة نقص لدى جرير بسبب فقر نسبه؛ لذا كان هجاؤه لاذعاً، ومركّزاً على فخر غير صادق بنسبه، وهدم فخر الفرزدق.

وتعدّ مخاطبة الآخر، أو الحديث عنه نوعاً من التضمين، وهو لعبة بين القول واللا قول، أي لعبة على الحدود[١٣] وتقوم الأبيات السابقة على علاقتين: تخاطبيّة، واستدلاليّة، وترتبط بذلك بالمناظرة التي تقوم على الحجاج، وصنع الحجّة بمختلف المواقف، كما تقوم المناظرة على التبادل الخطابي بين الطرفين، ومن آدابها أن يتداول المتناظران الحوار، وأن يمهل أحدهما الآخر حتى يستوفي مسألته[١٤].

ويتحول جرير المستمع إلى متكلم، ويتحول الفرزدق المتكلم إلى مستمع، فحدّدت أبيات الفرزدق موقفه من جرير، وأدّت وظيفة إخبارية، ومصدر الأخبار هو نفسه، وأول أساس للحوار وجود أرضية مشتركة يتفقان على الحوار حولها، وقد أوجدت العتبة الإفهامية فضاءً لغويًّا مشتركاً، ويتمّ الحوار بين طرفين بنصين، فلولا النصّ الأول لما وجد النصّ الثاني، ويتحكّم كلّ طرف بالحوار حين يتكلم، ولا يقاطعه الآخر.

وقد لجأ الطرفان إلى تقنية حواريّة تتمثل في الإفهام بالشرح[١٥] فلكي

---

(١٣) Dominique Manguenc,Pragmatique pour le discourslittéraire,p :82

(١٤) للتوسع انظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص٧٤.

(١٥) يرى حسان الباهي أن التفاعلات الحوارية بين الأفراد تبنى في جزء منها على التشارح الذي يعدّ من المعايير الأساسية لحصول التواصل. الحوار ومنهجية التفكير النقدي، ص١١٨.

يوضِّح جرير يستعين بالتمثيل، فيورد مثالاً، فالفرزدق حين يعوذ بخاله كالذليل المحتمي بشجر القرمل الضعيف، فيورد مثالاً يختمه بقاعدة، ويؤثّر الشرحُ والتمثيل في المتلقي، ويقرّب المعنى إليه، ويشكّل حجة لدى الشاعر المتكلم يقيمها على مخاطبه. وبذلك تتكافأ العلاقة بين المتحاورَين، فيقابل أحدهما الحجّة بالحجّة رغبة في إقناع المتلقي(١٦).

ويلجأ جرير والفرزدق إلى الخطاب التوجيهيّ الضاغط(١٧) على الطرف الآخر بهدف إحداث تأثير فيه. يقول الفرزدق:

فادفعْ بكفِّك -إن أردت بناءنا- ثهلانَ ذا الهضباتِ هل يتحلحلُ

ويرد جرير:

وافخر بضبّةَ إن أمك منهم ليس ابنُ ضبّةَ بالمُعَمِّ المُخوَلِ

وإضافة إلى الحوار المباشر ثمة خطاب غير مباشر، فثمة درجات للخطاب الحواريّ في النصّين:

وابنُ المراغةِ يدّعي من دارمٍ والعبدُ غيرَ أبيه قد يتنحّلُ

---

(١٦) يهدف الحوار إلى الإقناع، وقد ارتبط الإقناع منذ أرسطو بفن الخطابة، وعُدّت الخطابة مقابلاً للشعر أو الشعرية. فالخطابة -حسب أرسطو- تتطلب الإقناع الممكن في حين أن الشعر يطهّر من انفعالات الخوف والرحمة. أرسطوطاليس، الخطابة، ص٩.

لكن النقاد فيما بعد تدرجوا في الفصل، ووجدوا أن الحجاج يكون حيثما كانت اللغة. يقول التوحيدي: «من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه، والحجج لا تؤخذ إلا منه، أعني أن العلماء والحكماء والفقهاء والنحويين واللغويين يقولون: قال الشاعر، وهذا كثير في الشعر، فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجة، والشعر هو الحجة.." الإمتاع والمؤانسة، ج١/ ١٣٦».

(١٧) يعدّ الخطاب ذو الاستراتيجية التوجيهية ضغطاً وتدخلاً ولو بدرجات متفاوتة على المرسل إليه لفعل مستقبلي معين. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب- مقاربة لغوية تداولية، ص٣٢٢.

حسبُ الفرزدق أن تُسبَّ مجاشعٌ ويعــدَّ شــعرَ مــرقِّشٍ ومهلهــلِ

يعتمد الحوار غير المباشر على ضمير الغائب الذي يوهم بخطاب موضوعي، لكنها موضوعية زائفة، فالآخر حاضر بقوة مقابل الأنا المتمردة، والثائرة.

لقد جمعا الخطاب المباشر وغير المباشر، فتحققت درجات للحوار في النصين، فقد لجأ كلّ منهما إلى الخطاب المباشر؛ ليؤدي وظيفة إقناعية، وبذلك ردم كلّ منهما الثغرة بين الوصف، والحوار، والشعر المسرود. فالحوار المباشر أكثر الأساليب الحوارية محاكاة، خصّا به الأمور المهمة، وأسندا الأمور الأقل قيمة إلى الخطاب البعيد عن المحاكاة، وهو الخطاب غير المباشر؛ ذلك أنه خطاب ذو طاقة إخبارية ضعيفة، تمكّن من التكثيف وتجنب النصّ الإثقال بالمعلومات التاريخية حول تاريخ القبيلتين(*)، كما تجنبه طغيان الحوار المباشر عليه.

لقد خاطب جرير في الخطاب غير المباشر مجاشعاً كلها، وخاطب الفرزدق في الخطاب المباشر في حين خصص الفرزدق جريراً بوصفه ابن المراغة في خطابه غير المباشر؛ لينوع في طرق الحوار معه، والنيل منه.

وقد أكثر كلّ منهما من الإشارة إلى أحداث ذات صلة بتاريخ القبيلتين، فسردا إشارات تتصل بالواقع بقدر ضئيل، وبخيالهما بقدر كبير.

وقد كان للحوار أنماط وبنية خاصة وَسَما النصّين بسمات خاصة.

٥-بنية الخطاب الحواري وأنماطه

٥-١- أنماط الحوار:

يجب أن تكون كل جملة حوارية تطوراً جديداً للحدث، أو للشخصية، وليس الهدف من الحوار نقل الخبر فقط، بل إبلاغه والتأثير في المتلقين،

(*) الفرزذق وجرير من قبيلة واحدة = المجلة.

وهم: الشاعر المناقض، وعصبته، والمتلقي النموذجيّ، والمستمع، ويهدف إلى دفع الشاعر الآخر إلى الجواب، ويجب أن يكون جوابه مستنداً إلى تعرّفه قصدَ الشاعر الأول. وثمة رغبة لدى كلا الشاعرين في الاستعلاء، أو الارتقاء بمنزلته، وهي رغبة تفوق قدرته على ضبط خطابه، وتهذيبه.

وقد رصدنا ثلاثة أنماط للحوار في النصّين هي:

٥-١-١- حوار الصدام والنزاع الشخصي: يجعل كلٌّ من جرير والفرزدق من الطرف الآخر هدفاً ينال منه ماديًّا ومعنويًّا:

قال الفرزدق:

إنا لنضربُ رأس كلِّ قبيلةٍ وأبوك خلف أتانه يتقمّلُ

قال جرير:

إني انصببتُ من السماء عليكم حتى اختطفتك يا فرزدقُ من علِ

يقدّم الفرزدق فكرتين متضادتين، فالفرزدق وقومه يسعون إلى المجد في حين يلتهي جرير وقومه برعاية الحمير، والأمور التافهة، فيجعل من الطرف الآخر هدفاً له، وفي الوقت نفسه يعلن جرير سخطه على الفرزدق وقومه، فيبدي رغبته الشديدة في النيل منه، والقضاء عليه فنيًّا، وهذا الصدام ذو طابع شخصيّ يقوم على إثارة انفعالات الطرف الآخر.

٥-١-٢- الحوار التناظري: يبنى على احترام المتناظرَين قواعد الحوار:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعزُّ وأطولُ

يلجون بيتَ مجاشعٍ وإذا احتبوا برزوا كأنهم الجبالُ المثَّلُ

أخزى الذي سمك السماءَ مجاشعاً وبنى بناءك في الحضيض الأسفلِ

إني بنى لي في المكارم أوّلي ونفخْتَ كيرَك في الزمان الأوّلِ

ينتظر كل طرف أن ينتهي الطرف الآخر، فيبدأ بدفع الحجج التي اعتمد

الطرف السابق عليها، فقد فخر الفرزدق ببيت الشرف والمجد الذي ينتمي إليه، لكن جريراً ينقض هذا الشرف، ويبني لنفسه صورة إيجابية لا تستند إلى أساس حقيقيّ، ويبني للفرزدق صورة متدنية معيراً إياه بمهنة الحدادة(١٨).

إن ثمة تبادلاً للمواقف بين المتكلّم والسامع، فيتولد النصّ الثاني من الأولّ، ولا تسعى هذه المناظرة إلى الاتفاق، بل إلى إثارة انفعال الطرف الآخر، فلا يقبل أحد الطرفين الحجج المضادّة، وقد قدّم جرير دليل خطابه التناظريّ بالاستعارة «إني انصببت من السماء عليكم» وهي أشدّ تأثيراً من التشبيه، ففيها قول مضمر، وتخاطب ذهن المتلقي، فالتشبيه دعوى تحتاج إلى برهان، ويأتي البرهان في المشبه به.

٥-١-٣- الحوار الإقناعي: يقوم على إيراد الدّليل، وعلى الاختلاف بين الرأيين المتحاورين، فكلّ منهما يحاول التدليل على وجهة نظره بهدف إقناع الآخر بها:

إني ارتفعتُ عليكَ كلَّ ثنيّةٍ وعلوتُ فوق بني كليبٍ من علُ
هلا سألتِ بني غُدانةَ ما رأوا حيث الأتانُ إلى عمودكَ تُرحَلُ
ولقد تركتُ مجاشعاً وكأنهم فَقْعٌ بمَدرَجَةِ الخميسِ الجحفَلِ
إني إلى جبَلي تميمٍ معقِلي ومحلُّ بيتي في اليفاعِ الأطولِ

يرتب جرير أفكار خصمه، ويردّ عليها، ويحوّل المتلقي إلى شريك في البحث، ويقدّم تساؤلاً جدليًّا حواريًّا مفتوحاً على أكثر من إجابة، ويقدّم بالطريقة

(١٨) الحدادة وسائر الصناعات إنما يقوم بها العبيد، وكان العربي يأنف من العمل والتلهي بكسب العيش دون البطولة، وهذا ينفي عن الفرزدق صفة الملوكية. انظر: إيليا حاوي، فن الهجاء وتطوره عند العرب، ص٣٢١.

وحجة جرير أن مجاشعاً مشهورون بالحدادة، وهي مما يعيّر به المرء في تلك المرحلة؛ لأن العمل والمهن للعبيد.

الإقناعية منطق خصمه الساذج مقابل منطقه، فيأتي الفرزدق بدليل يقوم على تعييره برعي الأتان، ويأتي جرير بدليل يقوم على نسبته إلى أعلى نسب في الفخر القبلي؛ إذ يعود إلى الوراء كثيراً؛ لأن أصله القريب لا يقوم مقام فخر له.

٥-٢- مبادئ الحوار في النقائض:

تنهض النقائض على أربعة مبادئ:

٥-٢-١- مبدأ المشاركة: ولولا المشاركة لما كان هنالك حوار، فالهدف محدد قبل الشروع بالنظم، فيشترك كلا الشاعرين في الهدف، لا الرأي، ويدخلان في حوار جدليّ، وتناظريّ، وصداميّ من غير اتفاق.

٥-٢-٢- مبدأ التنازع: لا يقتنع أي من الطرفين بحجج الآخر ومناظرته، ويؤدي ذلك إلى حدوث التنازع، فيفرض كلّ طرف رأيه، ويرفض رأي الآخر، فثمة رأي، ورأي مضاد، ولا يلتقيان.

٥-٢-٣- التقابل أو التكامل: تعني العلاقة التقابلية التساوي في أثناء تبادل الحوار، وأخذ الكلمة بالتناوب من غير أن يخضع أحدهما للآخر، وتكون سلوكات الطرفين متوازية[١٩].

٥-٢-٤- المضمون والعلاقة: يعَدُّ الشاعران جانبين للعلاقة الحوارية، يتبادلان المواقع بين مرسل ومتلقّ، وتؤدّي المنزلة الاجتماعية والقبلية وظيفة في الخطاب، ويسهم المضمون الحواريّ في تغيير ما يظن المخاطب؛ لأن المرسل يعتمد على الحجج، ويقوم الحجاج على البرهنة، وإقامة الحجّة، والإقناع.

(١٩) يتفق الطرفان قبل الدخول في العلاقة الحوارية، فثمة تقابل، وتكامل، وتراض بين الطرفين، فيقتضي البعد الحواري «الآخر بالضرورة إذ لا يمكن أن نفهم دون أن نبين الدلالة، ولا يمكن أن نبين الدلالة دون أن نجادل وهكذا دواليك» عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر، ص٢٠٠.

وينهض الخطاب الحواريّ على جملة ركائز تؤدي وظائف في إطار العملية الحوارية.

٥-٣- ركائز الخطاب الحواري وبنيته:

ينهض الحوار بين الطرفين على التركيز على اسم العلم صريحاً أو ضميراً، فقد ورد اسم الفرزدق في لامية جرير إحدى عشرة مرة في اثنين وسبعين بيتاً في حين ورد اسم جرير ست مرات في مئة وأربعة أبيات.

ويبدو جرير متوتراً؛ لأن العبء الفنيّ عليه أكبر، فيجب أن يلتزم البحر والروي وأفكار القصيدة الأولى، ويجب أن يفخر، ويهجو، ويقلب فخر الفرزدق إلى هجاء، وقد ظهر توتره في حواره، وإلحاحه على ذكر اسم الفرزدق. أما الفرزدق فقد ذكر الأنساب باسم العلم:

بيتـــاً زرارةُ محتـــبٍ بفنائـــه ومجاشعٌ وأبو الفوارس نهشلُ

من عزِّهم جحرت كليبٌ بيتها زَرْبـــاً كـــأنهم لديـــه القُمَّـــلُ

فركّز على انتسابه إلى مجاشع، ونهشل بن دارم، وحنظلة بن مالك بن يزيد، وهجا جريراً باسم قبيلته كليب، ولا يتعلق اسم العلم بالشخص فقط، فخصّص الاسم؛ ليدلّ عليه، ويميزه من غيره، فكانت هوية المتكلم بالـ«أنا/ نحن» وكانت هوية المخاطب بالضمائر المتصلة، والمستترة «فاسأل، فادفع» وجعل هوية المخاطب بإفراده من العامّة، فمتلقي الحوار مخصوص، وحدّد سلسلة نسبه الطويل في حين اقتصر على كليب في حديثه عن نسب جرير، وقدمها بمجاز إسناد، فقد جحرت كليب كلها زرباً، وبدت كلها بمن فيها، وما فيها قد دخلت حفرة صغيرة جدًّا، وتؤدي الصورة الكاريكاتوريّة وظيفة تثبيت الفكرة في ذهن المتلقي أكثر من تقديمها بطريقة مباشرة.

أما جرير فقد نقض ما جاء به الفرزدق، وحوّل خصمه إلى صورة تثير السخرية:

أزرى بحِلمِكـــم الفيـــاشُ فـــأنتم مثلُ الفراشِ غشينَ نارَ المصـطلي[٢٠]

هدم جريـر أنـتم، ونقـض اسـم العلـم لـدى الفـرزدق، وذكـره بالاسـم الصريح؛ ليركز عليه دون سواه، وبالضمير المحيل عليه.

وحوى خطاب الفرزدق الكثير من الأخبـار بـاللفظ القليـل، وذكـر مـن أسماء الشعراء ما يؤكد شعريته، وقدّم أخباراً تاريخيـة، ومعيشـية تسـتند إلـى أساس واقعيّ بهدف الإبقاء على الفوارق الاجتماعية بينه وبين جريـر، فبـالغ في الفخر والهجاء معاً. ولجأ كلا الطرفين إلى الاسـتفهام فـي حـواره، وفـي الاستفهام تعظيم للذات، وتحقير للآخر:

أيــن الــذين بهــم تســامي دارمــاً أم مَـنْ إلـى سَـلَفي طُهيّـةَ تجعـلُ

أيـن الـذين عـددتُ أن لا يُـدرِكوا بمِجـرِّ جِعـثِنَ يـا بـن ذات الـدّمَّلِ

وقد قام الاستفهام في الحوار – وهو استفهام يُراد بـه النفـي، فـلا أحـد يصل إلى مرتبته – على تقديم الرأي السلبيّ لدى الفرزدق عن جريـر مقابـل تعظيم الذات وإعطاء الحق لنفسـه فـي التوجيـه، والتقـويم، وادعـاء امـتلاك الكفاية المعرفية في الحكم على صـفات جريـر، وكـذلك فعـل جريـر، فقـد أرادا إبقاء الفوارق الاجتماعيّة؛ لإثبات الاختلاف في المكانة، ويتعـين علـى ذلك أن اللجوء إلى الاستفهام في الحوار، وتحميلـه هـذا المعنـى قـد جعـل شرطاً من شروط المناظرة مختلًّا، وهـو أن يكـون المتنـاظران مـن المكانـة نفسها، ويفترض بالشاعر المناقض أن يمتلـك كفايـة حواريـة تداوليـة تفـوق كفاية المتكلم الأول التداولية، فلجأ جرير إلى الاستفهام ناعتاً إياه بـابن ذات الدمّل، فاجتمع الاستفهام، والنسبة إلى صفة قبيحة لدى الأم، فنقلـت معنـى الاستفهام، وزادت من توتّر الفرزدق؛ لأنـه آلمـه فـي هجائـه مـن جهـة أمـه؛

(٢٠) الفياش: الافتخار والتكبر.

لـذلك تبلـغ المحـاورة الشـعريّة فـي النقـائض المرتبـة الثالثـة مـن مراتـب الحوارية، وهي التحـاور؛ إذ تسـتدعي هـذه المرتبـة أن تـزدوج فيهـا الـذات المتكلمة، فتقوم بـدورين: ذات متكلمـة، وأخـرى مسـتمعة، وقبـل أن تنقـل الذات المتكلمة الخبر إلى الآخرين تقـوم بتصـور رد فعـل المخاطـب تجـاه كلامها، فتصوغ على إثر ذلك خطابها(٢١).

ولا يريد الشاعران جواباً عن سـؤالهما؛ لأنهمـا يريـدان سـؤالاً مسـكتاً، وكذلك يأتي ورود فعل الأمر بوفرة هادفاً إلى الإهانة والتذليل:

إن الزحـــام لغيـــركم فتحيّنـــوا ... وِردَ العشـيِّ إليـه يخلـو المنهـلُ
فـــادفع بكفِّـــك إن أردتَ بناءنـــا ... ثهلانَ ذا الهضباتِ هل يتحلحـلُ؟

أعيتـك مـأثرةُ القيـون مجاشـعٍ ... فـانظر لعلـك تـدّعي مـن نهشـلِ
وامـدح سـراةَ بنـي فُقَـيمٍ إنهـم ... قتلـوا أبـاك وثـأرُه لـم يُقتَـلِ

ويقترن الأمر بالتوبيخ إضافة إلى الإهانة والتذليل، ويتوقف الحوار بعـد الأمر؛ لأن الطّرف الثاني لا يستطيع أن يرد مباشرة.

وقد كثرت الصّيغ الشرطية لدى الطرفين، ولا سيما لدى الفرزدق:

وإذا دعـوتُ بنـي فُقَـيمٍ جـاءني ... مَجْـرٌ لـه العـددُ الـذي لا يُعْـدَلُ
الأكثـــرون إذا يُعـــدّ حصـــاهمُ ... والأكرمـــــون إذا يُعَـــــدُّ الأولُ

وتفتح الصيغ الشرطية أفق الدلالة الاحتماليـة مـع أن جـواب الشـرط قـد تضمن رأي الفرزدق الخاص، وحين يسمع المتلقي الشرط يدرك أن ما يقولـه الفرزدق قناعة حتميّة لديه، فقومه الأكثرون والأكرمـون إذا عُـدَّ الكـرام، لكـن

---

(٢١) يرى طه عبد الرحمن أن هذه المرتبة تنبني على قصد نقل الخبر، والتـأثير فـي الغيـر مـع تصور رد فعل الآخر تجاه القـول، وهـي أعلـى مراتـب التفاعـل الحـواري. فـي أصـول الحوار وتجديد علم الكلام، ص٥٨ وما بعدها.

الصيغ الشرطيّة تفتح باب الاحتمال، وتنطوي على دلالات حواريّة مهمة. وتدل الصيغ الحواريّة لدى الفرزدق على رغبته في احترام رأي المتلقي العام الذي يريد له الاقتناع متى ما سلّم بمقدماته، فيسعى إلى توسيع دائرة البحث في أصله ومجده، ويشرك الآخرين في توليد الأفكار والاستنتاج.

فالشرط ناجم عن فكر حواريّ، ويقترن بالحذف والإيجاز في الحوار هنا، فالشعر مقام تكثيف، لا إسهاب، وقد أورد الفرزدق بعض الإشارات التاريخية في حواره، فعدد الشخصيات التي ارتفع شرفه بها، وأوجز حين تحدث عن حمايتهم النساء:

يحمي إذا اختُرِطَ السيوفُ نساءَنا ضربٌ تخرُّ له السواعدُ أرعلُ

ويشير إلى يوم بزاخة:

ملكان يوم بُزاخةٍ قتلوهما وكلاهما تاجٌ عليه مكلّلُ

ويعير جرير الفرزدق ببعض الحوادث التاريخية بإشارات وامضة:

قُتِل الزبيرُ وأنت عاقدُ حَبوةٍ تباً لحبوتك التي لم تُحلَلِ

ويعدّ الحذف من التقنيات المهمة في بنية الخطاب الحواري، يسهم في تشكيل لغة الحوار، ويحيل على مدة زمنية غير متناسبة مع الخبر «يوم بزاخة، وخبر قتل الزبير» ويحرك فضول المتلقي للتأويل، ويؤدي وظيفة إيديولوجيّة تعبر عن قضايا سابقة مهمة، فيصعّد الحدث.

ويعدّ التوكيد ركيزة مهمة في الحوار؛ إذ يثبت كلّ طرف موقفه مدعّماً بالبرهان:

إن التي فُقِئت بها أبصاركم وهي التي دمغت أباك الفيصلُ

إن الذي سمك السماء بنى لنا عزًّا علاكَ فما له من منقلِ

إنه نمط جديد من الفخر لدى الفرزدق هو الفخر بشعره، فقصيدته ضربة

قاضية دمغت أبا جرير، ويستخدم التوكيد لإقناع الآخر أنه قد تفوق فنيًّا على خصمه، وقد سمّيت هذه القصيدة الدامغة. وأسهم التوكيد لدى الطرفين في تقوية الحجاج، فقد جعل جرير عزّه يفوق ما قدمه الفرزدق من أدلة.

ويدلّ الدخول في الحوار بطريقة القطع على العلاقة المبتورة بين الطرفين، فكل شاعر مشغول بما يخدم مقاصده أكثر من اهتمامه بمحاكاة واقع، وتأتي الحوارات المهمة بين الطرفين في موقع تبادل أوسط[٢٢]، فلا همّ لهما سوى النيل من الآخر.

٦-التبادلات في الحوار:

٦-١- التبادلات التعليمية:

ثمة تبادل للمعلومات لدى الشاعرين، ونجد مثل هذه الأقوال المتبادلة في حديث الفرزدق عن الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، وفي توسعه في الحديث عنها، وعن أعمالها البطولية في التاريخ:

يمشون في حلقِ الحديد كما مشت جرْبُ الجِمالِ بها الكُحَيْلُ المشعَلُ

والمانعون إذا النساءُ ترادفت حذر السباءِ جمالها لا تُرحَلُ

قدّم الفرزدق معلومات تخص الذات الجمعية مقابل ذكر إشارة لذل كليب، وبادله جرير المعلومات، فقد فخر بشعره الذي قضى به على فحول الشعراء:

ولقد وسمتُك يا بعيث بميسمي وضغا الفرزدقُ تحت حدّ الكلكلِ

ثم يبادله المعلومات حول مهنة الحدادة التي امتهنتها قبيلة الفرزدق موضحاً أنها تلهي عن السعي إلى المجد والفروسية، معدّداً مآخذه التاريخيّة

(٢٢) التبادل الأوسط هو الأقوال المتبادلة الصريحة التي وردت في نص القصيدة، واندرجت في منتصفها؛ لأن كلًّا من القصيدتين بدأ بداية وصفية، وانتهى بخطاب إسنادي. ويظهر التبادل في التفاعل القولي، ويعدّ كل حوار تفاعلاً قوليًّا، وليس العكس صحيحاً.

على الفرزدق وقومه.

وجعل كلٌّ منهما في هذه التبادلات القولية الآخرَ في منزلة اجتماعيّة أدنى منه، واختص بإثارة السؤال المسكت، وبدا المتحاوران متساويين في المعرفة، فافتعل كل منهما السؤال؛ ليلج باب الشرح، والوصف، والتعليم.

وللتبادلات التعليميّة أهميّتها في النصّين؛ لأن كلّ طرف نطق بما يوافق رؤاه، وأخذ موقع المجيب، فنقل المعلومة إلى من يجهلها بما يوافق رؤيته ورؤياه.

٦-٢- التبادلات الجدلية:

يعدّ النصان نصًّا ونصًّا مضادًّا، ويقوم الجدل على التضاد، فالهدف إقناع الطرف الثاني مع اتفاق مسبق على عدم الاتفاق. والحجاج عمل الذات وهي تحاور طرفاً آخر حتى وإن كان هنالك اتفاق على عدم الاتفاق، فهو فعل قوليّ، وتتوالى بذلك الأقوال، والأقوال المضادة. فقد فخر الفرزدق بقصيدته التي كسرت دماغ أبي جرير، فردّ جرير بقدرته على إسكات عدد كبير من الشعراء، وإخماد ذكرهم:

أعددتُ للشعراء سمًّا ناقعاً فسقيتُ آخرَهم بكأس الأول

لما وضعتُ على الفرزدقِ ميسَمي وضغا البغيثُ جدعتُ أنفَ الأخطلِ

وتتوالى التبادلات القولية على وفق حجة وحجة مضادة، فيقتضي التفوق الفني اللجوء إلى الحيل كلها.

٦-٣- التبادلات السجالية:

لا ينتقل الحوار إلى سجال في النقائض؛ لأنّ كلًّا من الشاعرين يفسح المقام للشاعر الآخر لينهي كلامه، فيردّ عليه، ونجد أن التبادلات السجالية في أن كل طرف يفهم ما يقوله الطرف الآخر سواء أكان تلميحاً أم تصريحاً، لكنه لا يسعى إلى الاتفاق، فهو يبدأ بالخلاف، وينتهي بالخلاف، ولو حدث خلاف ذلك لانهدمت الركيزة التي بُنيت النقائض عليها.

ويجمع السّجال بين طرفين لهما مصالح وغايات متعارضة تعارضاً لا يفيد معه حجاج، ويمكن أن نرى التبادلات السّجالية في عموم النقائض، لا في نصين فقط، فهي تدور حول الفكرة وضدّها. ومهما كانت طبيعة التبادلات بين النّصّين فقد أدت وظائف مختلفة.

٧- وظائف الحوار في النصين:

٧-١- وظيفة مَسْرَحَةِ الأحداث:

جعل الحوار النصّين على اختلاف أنواعه مشاهد متراتبة، وهي مشاهد ذات طبيعة حركيّة، فتضفي المَسْرَحةُ الحركةَ على المشهد، وتقرّبه من الواقع، فلكل من الشاعرين، وأهلهما، وقبيلتيهما رتب اجتماعية، وأدوار يؤدونها، وأسلوب تخاطب خاص. لكنّ هذه الحوارات المقدّمة لا تنقل الواقع، بل توهم بنقله، فقد تنوعت أساليب الأقوال المتبادلة، واختير بعضها اختياراً قصديًّا، فهما مجبران على الحوار، واختيار العناصر الأشد تأثيراً في الطرف الثاني؛ لذلك مسرَحَ الحوارُ النقائض، وجعلها نصوصاً تنبض بالحركة.

لقد عبّر الحوار عن الحركتين الحسية، والذهنية، وأسهم في إبراز الصراع الداخلي، وخلق حالاً من التأزم بين الأطراف المتحاورة.

٧-٢- وظيفة بناء الشخصيات:

توضّحت بالحوار بعض المعالم الداخلية لشخصيتيهما، وشخصيات من يرتبط بهما تبعاً لوجهة نظر كلّ منهما، ويتقاطع ذلك مع الوصف، وبناء شخصية الغائب.

فالحوار بين جرير والفرزدق، لكن ليس المخاطَب وحده موضوع الحوار، وبالحوار تمّ رفع الحجاب عن المشاعر الحقيقية لكلّ من الشاعرين، فكلّ منهما يتكلّم، ويتلقى، ويسهم هذا الأمر في رسم انفعالاته.

٧-٣- الوظيفة الحجاجية:

الحوارات كلها في النصين حجة تقود إلى نتيجة تفوق أحد الطرفين المتخاصمين فنيًّا على الآخر.

٧-٤- وظيفة بناء الفضاء:

النصّان حوارات متبادلة، يدوران حول أمكنة خاصة، وفي مكان عام هو سوق المِرْبَد حيث يتحلق المتلقون، يستمعون، ويهلّلون، وينتصرون لأحد الشاعرين، وللمكان العام وظيفة في جعل كلّ طرف يقدّم أشد الحوارات إيلاماً للطرف الآخر.

أما الأمكنة الخاصة فهي قبيلتا الشاعرين، وما تفرع منهما، فقد ارتقى جرير بفخره إلى يربوع، وكان لها أيام في الجاهلية، أما الفرزدق فقد استند فخره إلى أصل ثابت، فكان لهذه الأمكنة سبب في رد الفعل العنيف عند جرير.

ويُردّ حضور القبائل بقوة إلى أن الشخصيّتين المتحاورتين منتميتان إلى القبيلتين، وقام حوارهما على أساس قبليّ، وهما طرفا نزاع فنيّ يحتّم على كل منهما محاورة الآخر لقطع الطريق أمامه. فالقبيلة بزمنيها: الحاضر، والماضي سبب توتر جرير، وفخر الفرزدق. واكتسبت كليب بزمنيها: الماضي، والحاضر رمزين متضادّين: فهي رمز قهر جرير من جهة، ورمز وعي بضرورة الثبات والبحث عن ارتقاء إلى نسب أفضل من جهة أخرى.

٧-٥- الوظيفة الفكرية:

تتجاوز الحوارات المتلقي المباشر إلى المتلقي الحقيقي/ الجمهور، فقد ادّعى كلّ من الشاعرين أنه يمتلك الحقيقة، فرصد عيوب الطرف الآخر، واشترك كلّ منهما في التعبير عن مواقف فكرية تُستشفُّ من اختيار الشخصيات «زرارة، نهشل، مجاشع، دارم، الزبير، قريش، طُهيّة، جِعثِن..» ومن بناء الحوار، والعلاقة بين طرفيه، وقد حاول كلّ منهما هزيمة الآخر

لكنّ الحوار أعلى من قيمة النَّسَب وتاريخه مقابل القيم الأخرى، فكان الحوار أداة لكشف ما في داخل كلّ منهما من أزمة نفسية، فحمل فكرهما إلى المتلقي المنتظِر، لكنها معرفة من وجهة نظر الشعر.

٨- خاتمة:

يعتمد النص الشعري على المجاز، ويغدو فعلاً كلاميًّا غير مباشر، ويتعلق إنجاز هذا الفعل بالطرفين المتخاطِبين في النقائض، وقد مكّننا استخدام التداولية في دراسة النصين السابقين أن نجيب عن جملة أسئلة مثل: كيف يتكلم المتناقضان؟ وما أنماط الحوار؟ وما علاقته بالشعر؟ وهل تمثّل هذه التخاطبات دورة كلامية تبنى على تبادل الأفعال الكلامية؟ وكيف تخدم هذه التخاطبات عملية الحوار؟

وقد خرجنا بجملة نتائج نلخصها بما يأتي:

- ثمة حرص في النقائض على الحوار أكثر من الحرص على طريقة التقديم الفنيّ.
- يقوم الفكر الحواريّ على الرأي والرأي الآخر، فالأفكار موضع جدل، ويقبل كلّ طرف الرأي الآخر. أما الحوار في النقائض فلا يقبل الرأي الآخر، بل يهدمه، ويبني على أنقاضه رأياً مضادًّا.
- حين نظرنا إلى النقائض من زاوية تداولية توصلنا إلى أنها ترتقي إلى مرتبة التحاور، أعلى مراتب الحوارية.
- يمسرح الحوار النقائض، ويؤكد هذا الأمر عبور النص من دائرة نوعه الأدبيّ إلى أنواع، وأجناس أخرى.
- يعدّ كلام كلّ من الشاعرين على الآخر فضاء لكشف الذات، ويخفي التركيز على الأنا الآخر وراءه، وقد رسم الحوار صورة الطرفين المتحاورين تبعاً لكلّ طرف.

المصادر والمراجع

- استراتيجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠٠٤.
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ١٩٩٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، د.ت، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، د.ط، مكتبة الحياة، بيروت.
- تاج العروس، مرتضى الزبيدي، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤.
- تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، عمر بلخير، ط٣، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٨.
- الحوار القصصي (تقنياته وعلاقاته السردية)، فاتح عبد السلام، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩.
- الحوار في ألف ليلة وليلة لنجيب محفوظ، محمد نجيب العمامي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة "موارد" العدد ٤، ١٩٩٩.
- الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، محمد نظيف، د.ط، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٠.
- الحوار ومنهجية التفكير النقدي، حسان الباهي،: ١٠٠٤، ط١، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب.
- الخطاب الروائي، باختين، ميخائيل: ٢٠٠٩، ترجمة: محمد برادة، ط١، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة.

- الخطابة، أرسطوطاليس: ١٩٥٩، د.ط، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- زحام الخطابات – مدخل تصنيفي لأشكال الخطابات الواصفة، عبد الله العشي، د.ط، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، ٢٠٠٥.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تح: أحمد محمد شاكر – دار المعارف – مصر، ١٩٦٦.
- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلاّم الجمَحيّ، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤.
- عندما نتواصل نغيّر، عبد السلام عشير، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٦.
- فن الهجاء وتطوره عند العرب، إيليا حاوي، د.ت، د.ط، دار الثقافة، بيروت.
- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠.
- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، ط٣ ، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤.
- المبدأ الحواري، تودوروف، تزفيتان، ميخائيل باختين، ترجمة فخري صالح، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٦.
- نقائض جرير والفرزدق، مطبعة بريل في ليدن، ج١، ١٩٠٥.

المراجع الأجنبية:

- -Dominique Manguenc,Pragmatique pour le discourslittéraire
- Gérald Prince, Le discoursattributif et le récit, in Poétique 35, septembre 1978 –

المقالاتُ والآراء

تذكرة بأهم دلالات
الأداة «إذن» وأحكامها

أ. د. مكي الحسني (*)

«**إذن**» حرف جواب وجزاء في الأكثر، وهو ينصب الفعل المضارع بشروط ثلاثة[1]، ولذا يُذكر مع الأحرف الناصبة للمضارع: أنْ، لن، كي، إذن.

وهو يدخل على الأفعال والأسماء. يقول قائل: (سأبذل لك جهدي) فتجيب: (**إذن أكافِئَك**) أو: (إذن أنا مُكافئُك).

وتأويله غالبًا: إذا كان الأمر كما جرى/ ذُكِر ...

أما معناهُ فالدلالة على أمرين هما: «**الجواب**» وهذا يلازمه دائمًا في كل استعمالاته، و«**الجزاء**» وهذا يلازمه في الأغلب.

فالمراد من دلالته على **الجواب**: وقوعه في كلام مترتِّبًا على كلام قبله ترتُّبَ الجواب على السؤال: سواء أكان الكلام السابق مشتملاً على استفهام صريح أم غير مشتمل عليه، لكنه بمنزلة الملحوظ.

كأنْ يقول صديق لصديقه «**أُحبُّك**»، فيقول الآخر: «**إذن أظنُّك صادقًا**».

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) - (أ) أن يكون في صدر جملته، (ب) أن يليه (يتصل به) المضارع (جـ) الذي زمنه في السياق هو المستقبل **وليس الحال**.

فهذه الجملة الثانية ليست ردًّا على **سؤال سابق مذكور**. وإنما هي بمنزلة جواب عن سؤالٍ ناشئٍ عن الجملة الأولى، **تقديره**: فما قولك؟ فماذا ستفعل ... إلخ.

ولا يُتصور هنا الجزاء لأن الصدق لا يصلح هنا جزاءً مناسبًا للمحبة. وأيضًا فهذا الظن **حاليّ الزمن، والجزاء لا يكون إلا مستقبلاً**، لذا لم ينتصب المضارع أظنُّك. و«إذن» هنا **للجواب وحده**، لا محل له من الإعراب.

أما المراد من **أنه للجزاء** - غالبًا - فدلالته على أن الجملة التي تحتويه تكون في الغالب **مُسبَّبة عما قبلها**، لذا ينصِب المضارع الذي يليه.

فإذا قال شخص لآخر: «ماذا تفعل لو صادفتَ بائسًا؟» وأجابه الآخر: «**إذن أبذلَ** طاقتي في تخفيف بؤسه». فهذه الجملة **جواب** عن الاستفهام المذكور في سابقتها، ووجود كلمة «إذن» يوحي أن الإجابة مذكورة في هذه الجملة. **وتبدو هنا السببية واضحة** بين التخفيف عن البائس ومصادفته، فكأنّ المجيب يقول: **إن كان الأمر كما ذكرتَ فإني** أبذل طاقتي... **فالشرط والجزاء واضحان!**

وانتصب المضارع هنا **(إذن أبذلَ)** وكذلك في المثال الأول **(إذن أكافئَك)** لتحقق الشروط الثلاثة المطلوبة!

«إذن» في المثالين المذكورين **حرف جواب وجزاء**.

وقد وردت الأداة **(إذن)** في القرآن الكريم (٣١) مرة، كما وردت في شعر العرب ونثرهم.

ففي التنزيل العزيز: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

إذن: **حرف جواب وجزاء!**

وفيه: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣].

إذن: **حرف جواب**. المعنى: ألهم نصيب من الملك؟ استفهام إنكاري (أي ليس لهم نصيب) ولو كان لهم نصيب ما آتَوا الناس نقيرًا لشدة بخلهم. **الجملة بعد إذن سببها البخل** وليس نصيبهم.

ولذلك **لم ينتصب المضارع** (فإذن لايُؤتون) [لأن الفصل بـ (لا) بين إذن والمضارع كَلَا فصل!]

ملاحظات:

١ - قد تدخل (إذن) **على جواب** (لو) - ظاهرة أو مقدَّرة - و**جواب** (إنْ) الشرطيتين **لتوكيده وتقويته**، نحو: لو زامَلتني إذن لأرضيتُك. وقول الشاعر:

فلو خَلَدَ الكرامُ -إذن- خَلَدْنا ... ولو بقي الكرامُ -إذن- بقينا

وقول الآخر:

رَمَتني بنات الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يُرمى، وليس برامِ؟

فلو أنها نَبْل -إذن- لاتَّقيتُها ... ولكنني أُرمى بغير سهامِ

ونحو: إن تُنصِف أخاك - إذن - تَسْلَمْ. هنا دخلت (إذن) على جواب الشرط.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

٢- قد تكون (إذن) متضمِّنةً **معنى الشرط في الماضي**، فيجوز إجراؤها مجرى (لو) في قَرْن جوابها باللام، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤ - ٧٥].

أي: **لو ركنتَ** شيئاً قليلاً لأذقناك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

قال الزمخشري: **ولو أخرجوك** من مكة لاستُؤصلوا عن بكرة أبيهم.

٣- وقد تتضمن **معنى الشرط في المستقبل**، فيجوز قرن جوابها بالفاء كقول الشاعر:

ما إنْ أتيتُ بشيء أنت تكرهه إذن فلا رَفَعت سوطًا إليّ يدي

إذن فعاقَبَني ربّي معاقبة قَرّتْ بها عين من يأتيك بالحسدِ

(إنْ) هنا بعد (ما) زائدة وليست شرطية، و(إذن) هنا تتضمن معنى الشرط.

المعنى: إن حَصَل مني - في المستقبل - شيء أنت تكرهه فلا رفعتْ...فعاقبني ربي... وما بعد الفاء في المثالين جملة دُعائية! فزمنها المستقبل.

أمثلة أخرى:

١ - جاء في التنزيل العزيز: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٧].

إذن هنا **جواب** لسؤالٍ مقدر، كأنه قيل ماذا يكون من هذا الخير والتثبيت؟ قال: هو أن نُؤتيَهم من لَدُنّا أجراً عظيماً.

٢- قال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

المعنى: بتقدير محذوف هو: إن فعلنا ذلك لقد قلنا قولاً ذا شطط أي إفراط في الكفر.

٣- وقال: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ

وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٢٠].

المعنى: إن عُدتم في مِلَّتهم فلن تظفروا بخير أبدًا.

٤- وقال: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

المعنى: لو كان معه إله لانفرد كل واحد منهما بمخلوقاته عن مخلوقات الآخر، وطلب غلبة الآخر.

٥- وقال: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الشعراء: ١٩ - ٢٠].

المعنى: القائل في الآية ٢٠ هو موسى عليه السلام (بعد أن وكز القِبْطِيَّ فقتله)، وقوله (إذن) صلة في الكلام، وكأنها بمعنى **حينئذ**، قال ذلك ابن عطية. (هذا الكلام منقول من تفسير الإمام ابن جُزَي الغرناطي المتوفى ٧٤١هـ).

٦- قال الخليل يومًا: «لا يصل أحد من النحو إلى ما يَحتاج إليه إلا بما لا يَحتاج إليه، فقد صار إذن ما لا يُحتاج إليه يُحتاج إليه».

تأويل إذن هنا: **إذا كان الأمر كما ذكِر** فقد صار ما لا يُحتاج إليه...

- وقد جاء في معجم متن اللغة: إذن: حرف جواب وجزاء، تأويلها: إذا كان الأمر كما جرى...

- وجاء في المعجم الكبير (الذي يصدره مجمع القاهرة)، إذن: إذين؛ حينئذ. في آرامية العهد القديم (والآرامية المصرية). كلمة للجواب والجزاء. قال أبو علي الفارسي: ترِد للجواب والجزاء في الأكثر، وقد تكون للجواب وحده.

* * *

التعريفُ والنقد

نظرات في بعض قرارات لجنة اللغة العربيّة في الألفاظ والأساليب لعامي ٢٠١٣ - ٢٠١٤

أ. د. عبد الناصر إسماعيل عسّاف(*)

(طال يطال)

* أجاز القرار (١٩٦) استعمال الفعل «طال» الشائع بين المعاصرين، بمعنى: أدرَك ولَحق؛ على أن يكون مضارعُه «يطول» لا «يطال»؛ وعلّل لذلك بتعليل مستفيض لا يخلو بعضُ ما فيه من آراءٍ وبيّنات من تعقيب.

١ - ورد في تعليل استعمال المعاصرين للفعل «طال» بمعنى إدراك الشيء وبلوغه والوصول إليه، الذي لم تنصّ عليه المعاجم، أنّ «في هذه المعاجم ما يمكن أن يُفضي إلى هذه الدلالة، وهو قولهم: (كلّ ما امتدّ فقد طال) كقولك: (طال الليل وطال الهمُّ)، فـ (طال) إذن تعني الامتداد في الشيء ومنه وإليه وبه، وتتنوّع دلالته بحسب الحرف الذي يُعدَّى به، فقولهم: (امتدّ إليه الخير) يعني انبسط حتى وصل إليه أو أدركه...»؛ واستُدِلَّ لذلك بثلاث عبارات «يُفهَم منها أنّ امتدّ إليه تعني وصل إليه وأدركه».

ثمّ استُدلّ بخمسة شواهد من كتب التراث يمكن أن يُحمَل فيها «يُطال» المبنيّ للمجهول على معنى: «يُدرك أو يُوصَل إليه»، ومن ذلك قول الإمام عليّ ﷺ في نهج البلاغة: «بُليت بطلحة لا يُدرَك غَورُه ولا يُطال مَكرُه»..... وقول ابن عبد ربه في العقد الفريد: «فأتعبْنَ الغنيَّ وكلَّفن الفقير ما لا يُطال».

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

وعقَّب على ذلك بتعقيب كان فيه: «ولا شكّ في أنّ (يُطال) في كلّ العبارات التي يمكن أن تُفسَّر بمعنى لا يُغالَب ولا يُطاوَل، ولكنّ تفسيرها بمعنى (لا يُدرك ولا يُلحَق أو يُوصَل إليه) هو ما يتبادر إلى ذهن القارئ العربي، ولا يكاد المعاصرون يفهمونها إلّا بهذه الدلالة...ولا أظنّ أنّ عليّ بن أبي طالب كان يعني مغالبةَ طلحةَ بالمكر، وإنّما يُفسَّر قوله: «لا يُطال مَكرُه «بقوله» لا يُدرَك غَورُه «أي لا يُلحَق مكرُه ولا يُوصَل إليه،....».

وفي هذا عند النظر والتحقيق ما يدعو إلى التعقيب من وجوه:

أ- التوسّط بالفعل «امتدَّ إليه» للوصول إلى دلالة (طال) في استعمال المعاصرين فيه تحكُّم؛ لأنّ الفعل «طال» في المعاجم يدلّ على مطلق الامتداد، فلا يُقيَّد معناه بشبه الجملة «إليه» إلّا إذا قُيِّد هو نفسه بذلك. فاختيار الفعل «امتدّ» متعدّياً بحرف الجرّ «إلى» في تفسير الفعل «طال» الدالّ على امتداد غير مقيَد هو ضربٌ من التحريف وراءه التحكُّم.

ب- نسبة ما نُسِب من الشواهد الخمسة إلى ابن عبد ربّه في العقد الفريد غيرُ صحيحة؛ لأنّ ذلك قول معاذ بن جبل كما نصّ ابنُ عبد ربّه نفسه نصًّا، قال: «وعن رجاء بن حيوة عن معاذ بن جبل قال: إنكم ابتُليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وإني أخاف عليكم فتنة السراء، وهي النساء إذا تحلين الذهب، ولبسن ريط الشام وعصب اليمن، فأتعبن الغني، وكلفن الفقير ما لا يطاق».

و«يطال» في النص الوارد في التعليل تحريف من تحريف المكتبات الإلكترونية، والثابت في طبعات (العقد الفريد) «يطاق» بالقاف[1]، كما أثبتّه. وهو في مظانّ كثيرة، ولا سيّما مظانّ الحديث، بلفظ: «وكلّفن الفقير ما لا يجد».

(١) انظر: ابن عبد ربّه، العقد الفريد ٦/ ١٠٣ (ط أحمد أمين)، و٧/ ٩٨ (ط العريان)، و٧/ ١١١ (ط دار الكتب العلمية).

جـ- النصُّ على أن تفسير «يُطال» في تلك الشواهد التي استُدِلَّ بها ثمّة، بمعنى (لا يُدرك ولا يُلحَق أو يُوصَل إليه) «هو ما يتبادر إلى ذهن القارئ العربي، ولا يكاد المعاصرون يفهمونها إلّا بهذه الدلالة...» = يدعو المرءَ إلى السؤال: هل اطَّلَع مفسِّر هذا الفعل هنا بهذا المعنى، الذي نُصّ على أنّه هو ما يتبادر إلى ذهن القارئ العربي، على (ذهن القارئ العربيّ) القديم، فوجد ذلك المتبادِرَ إليه القارَّ فيه، أم هل وجد من البيّنات والإشارات ما يوحي بذلك ويدلّ عليه، أم هو الرجم بالغيب، وإسقاط الشاهد (الحاضر) على الغائب؟!

لو كان ذلك كذلك لما فاتَ بعضَ العلماء أن يلتقط ذلك، ويعبّر عنه: ينصّ عليه أو يشير إليه.

د- ومن هذا القبيل في رأيي ما كان في التعليق على قول عليّ ﷺ، على ما فيه من حسن ظنّ: «ولا أظنّ أنّ عليّ بن أبي طالب كان يعني مغالبةَ طلحةَ بالمكر، وإنّما يُفسَّر قوله: «لا يُطال مَكرُه» بقوله «لا يدرَك غَورُه» أي لا يُلحَق مكرُه ولا يُصَل إليه،....». فذلك ما لا يصل إليه إلّا من كانت له قدرةُ الاطِّلاع على القلوب، وما تخفي الصدور، ومعرفة النيّات. وهو ما لا يستطيعه الإنسان، ولا يختصّ به البحث اللغويّ العلميّ المحض.

ويلوح لي من وراء نفي أن يكون عليٌّ ﷺ أراد بقوله مغالبةَ طلحة في المكر، ضربٌ من الحتميّة والجبريّة، تجلّى في توجيه معنى «مَكر» في قوله إلى المعنى المشهور الذي يتبادر في مثله إلى ذهن جمهور الناس، وهو الخداع. وهو ما حرّكه في رأيي السهو عن معنى آخر لا تبعد عنه تلك الكلمة في قول عليّ استدركه الزبيديّ، إذ قال (مكر): «.... والمكر: التَّدبير والحِيلَةُ في الحرب..».

فكلمة عليٍّ ﷺ جاريةٌ على هذا المعنى، وهو بها أشبه وألصق. وهذا المعنى

يزكّيه عندي السياقُ الذي وردت فيه هذه الكلمة، إذ قالها عليٌّ في من ناوأه وَواجهه في موقعة الجمل: «بُلِيتُ في حرب الجمل بأشدِّ الخلق شجاعةً، وأكثر الخلق ثروة وبذلاً، وأعظم الخلق في الخلق طاعة، وأوفى الخلق كيداً وتكثراً، بُلِيت بالزبير، لم يردّ وجهه قط، وبيعلى بن مُنْيَة يحمل المال على الإبل الكثيرة، ويعطي كل رجل ثلاثين ديناراً وفرساً على أن يقاتلني، وبعائشة ما قالت قط بيدها هكذا إلا واتبعها الناس، وبطلحة لا يُدرَك غورُه ولا يُطال مَكرُه»[٢].

٢- ورد في تعليل تعدية الفعل «طال» في استعمال المعاصرين، دفعاً لاعتراض مَن يعترض بأنّه فعل لازم في الأصل، أنّ «الفعل (طال) لازمٌ ومتعدٍّ، ففي قول الشاعر في البيت السابق:

..... طالت- فليس تنالها- الأوعالا

جاء الفعل (طال) متعدّياً، ومفعوله (الأوعالا)...».

وفي هذا عند التحقيق إطلاقٌ لا يناسب الواقع، وتحريفٌ للسؤال أو الاعتراض عن مساره. أمّا الأوّل فلأنّ هذا الفعل «طال» لازم كما دلّت نصوصُ العلماء وكلام العرب، إلّا إذا كان للمغالبة، فتعديته مقيّدةٌ محصورة بالمغالبة. فالواجب أن يُقيَّد الحكمُ بما ينبغي. وحكمُ التعدية لا يصحّ طردُه أو إباحته في ضوء ذلك فيما كان من استعمال المعاصرين؛ لأنّ المعاصرين لا يريدون بهذا الفعل «طال» في استعمالهم معنى المغالبة. ولعلّ أوضح ما تُفسَّر به تعدية هذا الفعل التضمينَ، فالفعلُ الذي ضُمِّن الفعلُ «طال» في استعمال المعاصرين معناه، وهو الفعل «نال» أو «أدرك» أو «أصاب» أو «لحق»، ألقى عليه، بعد إذ خلع عليه معناه خصّيصةَ التعدية، فتعدّى إلى مفعول.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، قسم الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ٢٠/ ٢٧٧-٢٧٨.

وأمّا الثاني، وهو تحريف اعتراض المعترض، فلأنّ المعترض المختصَّ الذي عنده حظٌّ من علم العربيّة لا بأس به لا يخفى عليه أن هذا الفعل «طال» لازم في أصله في استعمال العرب، لا يكون متعدياً إلّا إذا كان للمغالبة، وأنّ استعمال المعاصرين ليس من ذلك؛ وإلّا لم يعترض.

٣- ورد في تعليل منع صوغ مضارع الفعل «طال» كما يستعمله المعاصرون على «يطال» أشياء يجب التنبيه عليها:

أ- النصُّ على «أنّ عين المضارع من الثلاثيّ المجرّد تُضبَط بالسماع» ليس على إطلاقه؛ لأنّ ثمّة أبواباً منه تُحكَم بالقياس، وإن لم يُسمَع كلّ ما كان منه. فمن ذلك مثلاً أن ما كان ماضيه على وزن «فَعُلَ» بضمّ العين تُضمّ عينه في المضارع قياساً مطّرداً[٣].

ب- الفعل «طار يطير» الذي سيق كما يدلّ السياق مثالاً على ما كان أجوف واويًّا مضارعه على وزن «يَفْعِل»، ليس من الأجوف الواويّ في شيء، فهو أجوف يائيٌّ باتّفاق.

جـ- نفيُ وجود مضارع الفعل الأجوف الواويّ على (يفعُل ويفعَل) بآن واحد حكمٌ مطّردٌ في مضارع كلّ فعل صحيح أو معتلّ، لا يقتصر على مضارع الأجوف الواويّ؛ لتعذّر أن يكون للفعل الواحد «في آن واحد» وزنان، إذ ليس للفعل الواحد «في آن واحد» إلّا وزن واحد. وتعدّد وزن هذا الفعل أو ذاك في آن واحد لاختلاف العلماء أو الوازنين، اختلافُ رأيٍ وتقدير لا ينتقض به هذا التصوّرُ البديهيّ. ومن ثمّ كان الواجب أن تُحذَف عبارة «بآن واحد»، أو أن تصحَّح التصحيح المناسب.

---

(٣) انظر: سيبويه، الكتاب ٤/ ١٠٣، ورضي الدين الأستراباذيّ، شرح الشافية ١/ ١٣٨، والسيوطيّ، همع الهوامع ٣/ ٢٧٢.

هذا، ونفي وجود فعل أجوف واويّ مضارعه على (يفعُل ويفعَل) يُحمَل عليه الفعل «طال يطال» كما يستعمله المعاصرون = نفيٌ فاته بعضُ تتبُّع واستقراء. فهذا الفعل الأجوف الواويّ «نال» مثلاً يأتي مضارعُه تارة على «يفعُل» وتارة أخرى على «يفعَل»: تقول: ناله العطيّةَ ينُوله، ونال ينال نائلاً ونيلاً: صار نائلاً، أي جواداً(٤).

على أنّي لست أريد بهذا المثال تُكَأةً أستند إليها في تسويغ بناء المعاصرين مضارع «طال» في استعمالهم على «يطال». والذي أراه أنّ المعاصرين ضمَّنوا الفعلَ «طال» في استعمالهم معنى الفعل «نال ينال» تضميناً كان من أثره النحويّ التعديةُ، ومن أثره الصرفيّ بناء المضارع «يطال» على «يَفْعَل».

ولعلّ ممّا يسوّغ هذا البناءَ في رأيي، ويدعو إلى التسمّح في استعماله، أنّ له دلالةً خاصّة تميّز هذا الاستعمالَ، وتدلّ على معناه، خلافاً لما نُصّ عليه في التعليل من أنّه «لا يُبنى على إدخاله دلالة خاصّة ليست في البناء المسموع». فإذا قيل: «طال الهمُّ يطول» كان الفعل لازماً دالاً على معنى الامتداد، ووزنه «فَعُل يفعُل». وإذا قيل: «طال زيدٌ خالداً يطُوله» كان الفعل متعدّياً دالًّا على المغالبة في الطول، ووزنه «فَعَل يفعُل». وإذا قيل كما يقول المعاصرون: «طاله الهمُّ يطاله» كان الفعل متعدّياً دالًّا على معنى: نال أو أصاب أو أدرك، وهو المعنى الطارئ الذي يريده المعاصرون، وكان وزنه «فَعَل يفعَل».

ومثل هذا يدعو إلى تسويغ استعمال الفعل «يطال» مضارع الفعل «طال» كما يستعمله المعاصرون والتسمّح فيه.

(٤) انظر: الزبيديّ، تاج العروس (نول).

(طالما)

* تناول القرار (١٩٧) ما يشيع في استعمال المحدثين من مثل: «طالما اجتهدتَ فسوف أكافئك» بتضمين «طالما» معنى الشرط، على معنى: إن اجتهدتَ فسوف أكافئك، أو ما دمت اجتهدتَ فسوف أكافئك؛ ومنَعَ ذلك، ورأى الصوابَ في أن يقال: «سوف أكافئك، إذ طالما اجتهدتَ» أو «سوف أكافئك ما دمتَ اجتهدتَ».

وهذا كلّه ما لا اعتراضَ لي عليه. لكن هل لي أن أقول: يجوزُ تركُ هذه العبارة وأمثالِها على ترتيبها دون تغيير، ويكون التركيبُ خبريًّا صحيحاً بالأداء الصوتيّ والتنغيم؛ تقول: «طالما اجتهدتَ»، وتقف ثمّ تتابع: «فسوف أكافئك»؛ وتكون الفاء عاطفة سببيّة لا رابطة للشرط، والكلامُ على معنى: طال اجتهادُك، لذلك سوف أكافئك. وكذلك إذا قلت: «سوف أكافئك، طالما اجتهدتَ»، ويكون الكلام صحيحاً لا غبار عليه ؟. فإذا وصلتَ الجملتين دون وقفة أو فصل، فقلت: «طالما اجتهدت فسوف أكافئك» أو «سوف أكافئك طالما اجتهدت» = كان التركيبُ شرطيًّا، وكان من الممتنع الذي لم ينتهِ إلينا منه شيء عن العرب يقيناً. ولك أن تدلّ على الفصل أو الوقفة الدالّة على خبريّة التركيب، في الكتابة بعلامة الترقيم الفاصلة (،).

على أن للمرء هنا أن يسألَ: أليس في قول الشاعر[٥]:

فَرِشْني بِخَيْرٍ طالَما قَدْ بَرَيْتَني فخيرُ المَوالي مَنْ يَرِيشُ ولا يبري

رائحةُ شرط تدعو إلى القول: إن لهذا الأسلوب صلة بالماضي تدعو إلى مزيد من بحث ونظر؟.

---

(٥) عُزي في البيان والتبيين ٤/ ٦٦، والتاج (ريش) إلى سُوَيد بن صامت الأنصاريّ، وفي اللسان (نشر، ريش) إلى عُمير بن حُبَابٍ. وانظر: الجوهريّ، الصحاح (ريش)، وابن فارس، مقاييس اللغة (ريش) ٢/ ٤٦٦، والزمخشريّ، الفائق (رشا) ٢/ ٦٠. وراشَ فُلاناً، إذا قَوّاهُ وأعانَه على مَعاشِه، وأصْلَحَ حالَه ونَفَعَه.

(عَصَّب)

* أجاز القرار (١٩٨) قول المعاصرين: «عَصَّب» بمعنى انفعل مُغضَباً أو تغضَّبَ، ودعا إلى إضافة هذه الدلالة المحدثة إلى المعجم العربيّ؛ وربط ذلك بمعنى التعصُّب والعصبيّة عند القدماء، بشيء من اتّساع دلاليّ.

وهذا الرأي مقبول مستساغ. على أنّ لي في توجيه هذا الاستعمال وتفسيره رأياً آخر، وهو أن يكون استعمال الفعل «عصَّب» وتصريفاته بمعنى الغضب الشديد وسرعة الانفعال، من قبيل التعبير عن الشيء ببعض ملابساته، عُبِّر عن الغضب وسرعة الانفعال بما يكون ملابساً له أحياناً من تعصيب الرأس لطرد ما يلمّ بالمغضَب، ولاسيّما رأسه، من ألم وصُداع. ذلك أنّ الإنسان إذا تمكّن الغضبُ منه ربّما أخذ منه الصُّداعُ وألم الرأس مأخذَه، فعصَّب رأسَه بعصابة يحاول بها دفع ذلك والتخفيف منه، فالتقط الناسُ من ذلك الفعلَ «عصَّب» الذي دلّ على ما لابس الغضب وسرعة الانفعال، وكان علامة دالة عليه، فنقلوه عن أصله إلى الغضب وسرعة الانفعال لضربٍ من الملابسة بينهما، وعبّروا به عنه، ونسُوا أصله. وبقي الفعل على ما كان عليه أصله متعدّياً حُذِف مفعولُه؛ لأنّه مفهوم في أصله الذي نشأ عليه في تقديري، ولا يتعلّق به بعد خروجه عن معناه الحرفيّ إلى معناه الثاني ما يدعو إلى التصريح به، وحذفُ المفعول لذلك في العربية سائغ شائع.

ولنا في العربيّة أمثلة ونظائر لهذا السلوك اللغوي، من ذلك مثلاً قولهم: «رفع الرجلُ عقيرتَه» أي صوته، إذا غنّى أو قرأ أو بكى. قيل: أصله أن رجلاً عُقِرَت رجلُه - أي قُطِعت - فوضع العَقِيرةَ - والعقيرةُ: الساق المقطوعة - على الصَّحيحة، وبكى عليها بأعلى صوته، فقيل: رَفَعَ عَقِيرَته، ثم كَثُرَ ذلك حتى صُيِّر الصوتُ بالغناء عَقِيرة. قال الجوهري: قيلَ لكل من رفع صوته عَقِيرة؛ ولم يُقَيَّدْ بالغناء. قال الزبيديّ: فالجوهريّ لاحظ أصلَ المعنى وترك

ما يتفرّع عليه، وهو من التفطُّن بمكان ، كما لا يخفى[٦].

وعصبُ الرأس لدرء ما يصيبه من صُداع وألم يكونان عن شدّة أو مرض، أو تخفيف ذلك، متعاهَدٌ عند الناس لا يخفى؛ وهو بعض ما يكون به علاج ذلك. ولنا من شواهده الدالّة ما كان في سيرة النبيّ ﷺ؛ ففي حديث ابن عبَّاسٍ: (كَشَفَ رَسُولُ الله ﷺ السِّتْرَ، ورَأْسُهُ مَعْصُوبٌ في مرضه الذي مات فيه،...)[٧].

قال النوويّ: «قوله (ورأسه معصوب) فيه عصب الرأس عند وجعه»[٨].

وقال المناوي في شرح حديث بريدة بن الحصيب (كان ربما أخذته الشقيقة فيمكث اليوم واليومين لا يخرج): «لشدة ما به من الوجع. وذكر الأطباء أن وجع الرأس من الأمراض المزمنة،... وقال بعضهم: الشقيقة علاجها شد العصابة؛ ولذلك كان المصطفى ﷺ إذا أخذته عصب رأسه»[٩].

---

(٦) انظر: الجوهريّ، الصحاح (عقر)، وابن منظور، لسان العرب (عقر)، والزبيديّ، تاج العروس (عقر)، وعبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة ٣٩٨.

(٧) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ٤/ ١٩٨. وانظر أيضاً: البخاري، الجامع الصحيح، باب قول النبيّ ﷺ اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم، ح ٣٧٩٩، ٣/ ٣٤-٣٥؛ والطبراني، المعجم الأوسط، ح ٢٦٢٩، ٣/ ١٠٤؛ والملا علي القاري، مرقاة المفاتيح، ح ٦٢٢١، ١٠/ ٥٩١-٥٩٢.

(٨) صحيح مسلم بشرح النووي ٤/ ١٩٨.

(٩) فيض القدير شرح الجامع الصغير مختصراً، ح ٦٨٣٤، ٥/ ١٧١.ومصدر كلام المناوي: ابن حجر، فتح الباري، باب الحجامة من الشقيقة والصداع ١٠/ ١٦٣، والعيني، عمدة القاري، باب من احتجم من الشقيقة والصداع ٢١/ ٣٦١. وحديث بريدة بن الحصيب الذي أخرجه ابن السني وأبو نعيم في (الطّبّ النبويّ) ضعيف كما ذكر السيوطيّ في (الجامع الصغير). على أنّ أحمد أخرج هذا الحديث كما نصّ ابن حجر والعينيّ، وأخرجه الحاكم في مستدركه، ح ٤٣٣٩، ٣/ ٣٩، وصحّحه.

هذا، وينبغي التنبيه على أنّ في التوقّف عند لزوم الفعل «عصَّب» في هذا الاستعمال بعد ما كان متعدّياً، والجوابِ عنه = نظراً. وفي ما كان في آخر التعليل موصولاً بذلك نظرٌ من وجهين:

١- وصف صيرورة الفعل «عصَّبَ» في استعمال المعاصرين بمعنى انفعل مُغضَباً أو تغضَّب، لازماً بعد أن كان متعدّياً في المعاجم، بالإشكاليّة = قول لا يوافق الواقع عند التحقيق ويخالطه شيء من مبالغة؛ لأنّ ذلك جرى على أصله، فمقتضى تحوّل هذا الفعل ممّا كان عليه في كلام القدماء إلى معنًى واستعمالٍ محدَثَيْن مختلفين، أن ينسلخ من بعض ما كان عليه في ماضيه، من بعض خصائصه التي تخالف حاضره ولا تناسبه، وأن يصطبغ بما يناسب حاله في كلام المعاصرين استعمالاً ومعنًى. أي إنّ خروج «عصَّب» من المعنى والاستعمال اللذين كان بهما متعدّياً «عصّب رأسَه: شدَّه بالعصابة»، إلى ما طرأ عليه من معنًى واستعمال جرى بهما كلام المعاصرين: «عصَّبَ: غضب أو انفعل مُغضَباً»، يقتضي نسخَ حكم التعدية، واكتسابَ حكم اللزوم في الظاهر؛ لزوال السبب الذي كان به الفعل متعدّياً، وطروء ما يقتضي اللزوم.

٢- الجوابُ عمّا سُمِي «إشكاليّة» بأنّ بناء فعَّل قد يأتي بمعنى تفَعَّل كما في قولهم: «فَكَّر وتفَكَّر، وولَّى وتولَّى»، وأنّ صاحب (لسان العرب) قد استعمل (عصَّب وتعَصَّبَ) بمعنًى واحد على اختلاف بناءيهما = لم يصل إلى حدّ الإقناع والإحكام. ذلك أنّ حمْلَ فَعَّل على تَفَعَّل ممّا يحتاج إلى اختبار كثرة يبيح جواز القياسَ في مثله. على أنّ ذلك لا يستقيم هنا في عَصَّب وتعصَّب؛ لأنّ «تعصَّبَ» لم يُستعمَل بالمعنى الذي استَعمَل فيه المعاصرون الفعل «عَصَّب»، فيُحمَل عليه.

على أنّ الاتّفاق أو الشَّبَه المعنويّ وحده لا يكفي لتبادل الأحكام

التركيبيّة بالحمل والقياس؛ فاستعمالُ «عصَّب» المتعدّي و«تعصَّب» اللازم مثلاً في كلام العرب في حقل دلاليّ واحد (شدّ العِصابة) لم يمنحهما حقَّ التقارض في اللزوم والتعدية، لأنّ مدار ذلك على السماع والاستعمال.

(لو... لما...)

* بُني القرارُ (١٩٩) على جواز دخول اللام على جواب (لو) الشرطيّة الماضي المنفيّ ب «ما»، في مثل قولهم: «لو اجتهدتَ لما أخفقتَ»؛ وإنكار ما ذهب إليه بعضهم من تخطئة ذلك أو تضعيفه. وقد ورد في التعليل لذلك ممّا لا يصحّ، أو كان فيه نظر، ما يحتاج إلى التعقيب والنقد.

١- كان من أوّل ما ورد في التعليل أنْ رُدّ مذهبُ مَنْ ذهب من المحدثين إلى تخطئة دخول اللام على جواب (لو) الشرطيّة الماضي المنفيّ بـ«ما» أو تضعيفِه، إلى ما قاله ابن هشام في (مغني اللبيب) من شذوذ ذلك، وأنّ ذلك الرأيَ حملهم على التخطئة والتضعيف.

وهذا عندي قولُ من لم يفسّر رأيَ ابن هشام على وجهه، ونزعَ مصطلحَ «الشاذّ» في كلامه من سياقه، وانحرف به عن الجادّة. فالحكم على هذا الشيء أو ذاك بالشذوذ ليس تنقّصاً لما حُكِم به عليه في كلّ موضع، ينحطّ به إلى حدّ التغليط أو التضعيف، أو يسلبه سمة الفصاحة أو الصحّة لأنّه يكون أحياناً «مصطلحاً محايداً» إن صحّ التعبير، المرادُ منه وصفُ جائزٍ خالف الأصلَ أو القاعدة، أو الكثيرَ المسموعَ. فهل ترى في وصف بعض العلماء لقول العرب «استحوذ» بالشذوذ سبّةً أو تنقّصاً أو تخطئة أو تضعيفاً، وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [المجادلة: ١٩]؟!

وفهمُ عبارة ابن هشام في سياقها يدلّنا على أنّ مقصوده وصفُ اقتران جواب «لو» باللام إذا كان ماضياً منفيًّا بـ«ما» بأنّه خلاف الغالب أو قليل. فإذا فسّرت كلامَ ابن هشام بعضه ببعض: «.... الغالب على المنفيّ تجرّده

منها نحو: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَافَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]. ومن اقترانها بها قوله:

ولو نُعطَى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الليالي

ونظيره في الشذوذ... «= انتهيت إلى أنّ جواب «لو» الماضي المنفيّ المقترن باللام عند ابن هشام- كما يقتضي مفهومُ المخالفة- خلاف الغالب، أي قليل، وأنّه شاذّ. ومثلُه يقتضي بآخرة مماثلةَ الشاذّ بالقليل: (المقترن باللام خلاف الغالب [الحكم بمفهوم المخالفة] ← قليل ← المقترن باللام شاذّ [الحكم الصريح]).

والحكم بالقلّة أو بما يؤدّي إليه ليس حكم قيمة سلبيًّا يفضي إلى القول بالخطأ أو الضعيف، بل هو حكم وصفيٌّ يمليه الواقع اللغويّ. ومن هنا ليس من العلم أو العدل أن يُتَّخَذ لفظ «الشذوذ» في قول ابن هشام في (مغني اللبيب) مطيّةً إلى التغليط والتضعيف في هذه المسألة.

ومثلُ هذا الاستنتاج (الشذوذ = خلاف الغالب = القليل) يدلّنا على أنّ ما ورد في التعليل من أنّ معظم النحاة في ذلك على خلاف رأي ابن هشام - وهو شيء بُني على قراءة كلام ابن هشام على غير وجهه - في ضوء أقوال العلماء الواردة = تنقصه الدقّة والإحكام؛ لأنّ مآل رأي ابن هشام في اقتران جواب «لو» الماضي المنفي باللام ومصيرَه إلى القلّة؛ وبالقلّة صرّح المراديّ في النصّ الذي نُقِل في ذلك السياق من كتابه (الجنى الداني)؛ وهو مقتضى حكم السيوطيّ فيما نُقِل من كلامه في (الهمع).

٢- ورد في آخر التعليل تقديرُ تراجع ابن هشام في كتابه (أوضح المسالك) عن رأيه الذي رآه في (مغني اللبيب) من تشذيذ اقتران جواب (لو) الشرطية باللام إذا كان ماضياً منفيًّا بـ«ما».

وهذا عكسٌ للقضيّة ! صحيحٌ أنّ كلام ابن هشام في (أوضح المسالك)

على اقتران جواب «لو» باللام إذا كان ماضياً منفيًّا بـ«ما» مختلفٌ عمّا بدا عليه كلامُه في المغني؛ لأنّ كلامَه في (أوضح المسالك) على ظاهره، وفي سياقه، دالٌّ على أنّ اقتران جواب «لو» الماضي المنفيّ باللام كثيرٌ، وتجرُّدَه أكثر. قال: «... وهو إمّا مثبت، فاقترانه باللام نحو: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥] أكثرُ من تركها نحو: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، وإمّا منفيٌّ، فالأمرُ بالعكس نحو: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله: ولو نُعطَى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الليالي».

لكنّ كتاب (أوضح المسالك) ممّا أُلِّف قبل (مغني اللبيب)؛ فقد ألّفه ابن هشام كما قال بعض الباحثين[١٠] في المرحلة الثانية من مراحل حياته في التصنيف، في حين ألّف (مغني اللبيب) في المرحلة الثالثة، وهي المرحلة الأخيرة من حياة ابن هشام؛ إذ أعاد تصنيفه عام ٧٥٦هـ، بجوار الحرم المكّيّ.

وبذلك يكون الصوابَ المناسبَ للواقع أن يقال: إنّ رأي ابن هشام في اقتران جواب «لو» الشرطيّة الماضي المنفيّ باللام، كان رجوعاً عمّا كان عليه كلامُه أوّلاً في كتابه (أوضح المسالك).

٣- عُني التعليل بمذهب من خطّأ اقترانَ جواب «لو» الشرطيّة الماضي المنفيّ باللام أو ضعّفَه، وسعى إلى تفسيره في ضوء كلام ابن هشام الذي عارضه بما قاله بعض النحاة في هذه المسألة؛ شُغِل بذلك، وغفل عمّا كان ينبغي النهوض إليه من الاستدلال بما اقترن فيه جواب «لو» الماضي المنفي باللام من كلام العرب شعراً ونثراً، فاقتصر على بيت يتيم مجهول القائل ساقه ابن هشام في كلامه، وكلمة من كلام أبي العلاء المعرّيّ. ولو سعى لذلك سعيَه

(١٠) د. حسن موسى الشاعر، تطوّر الآراء النحويّة عند ابن هشام الأنصاريّ، ص١٠.

لزعزع رأيَ المغلّطين والمضعّفين بصحيح الاستعمال وفصيح المسموع. ومن الشواهد الدالّة على ذلك قول البسوس بنت منقذ خالة جسّاس:

لعمري لو أصبحت في دار منقذ لما ضيم سعدٌ وهو جارٌ لأبياتي[١١]

وقول نصيب[١٢]:

كذبتُ وبيتِ اللّه لو كنتُ عاشقاً لما سَبَقَتْني بالبُكاءِ الحَمَائمُ

وقد قُيِّض لي أن أبحث في كتاب (الحيوان) للجاحظ، فوجدت اقتران جواب «لو» الماضي المنفي باللام في أزْيَدَ من سبعين موضعاً. وقد كان بعضُ ذلك وراء ما نصّ عليه بعضُ الباحثين من أن الجاحظ استعمل «لَمَا» في جواب «لو» كثيراً في كتابه (الحيوان)، خلافاً لما عليه الاختيار في نثر الفصحاء من تجرّد «ما» من اللام[١٣].

ومن أمثلة ذلك قول الجاحظ: (١/ ٤٦) «ولو أدرَكوا ذلك لما أدرَكوه إلا بعد أن تغلُظَ المؤونة، وتنتَقِضَ المنّةُ، ولصاروا في حال مَعْجَزَة وحسور، وإلى حال مَضيعَةٍ وكَلالِ حدّ،...».

(مما)

* ورد في الكلام على قول الناس: «تساقطت الثلوجُ ما أدّى إلى توقّف السير «ونحوه في القرار (٢٠٠) ما يدعوني إلى الوقفات والنظرات التالية:

١- إنكار صحّة قول الناس في الاستعمال اللغويّ المعاصر: «تساقطت الثلوجُ ما أدّى إلى توقّف السير» ونحوه دون «مِن» في الاقتراح والقرار؛

(١١) البغدادي، خزانة الأدب ٢/ ١٦٧.

(١٢) كذا نُسِب في أبي تمّام، الحماسة ٢/ ٤٦، ونص المحقّق في تخريجه ثمّة على نسبته إلى غيره في مظانّ أخرى، وانظر: الجاحظ، الحيوان ٣/ ٢-٦. وانظر شواهد أخرى على ذلك في كتاب الجاحظ، الحيوان ١/ ٢٦٧، ٦/ ٦٩، وديوان دعبل الخزاعي ٢٩.

(١٣) صبحي البصام، إصلاح كتاب الحيوان الجزء الأول، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع ٢٠٠٦، ٧١، ص ١٣٣، ١٤١- ١٤٢.

وتعليلُ الحكم بفقدان الربط بين ركني العبارة «لغياب العائد الذي يعود إليه الاسم الموصول (ما) في الجملة الثانية، والذي لا يمكن أن تُفهَم العبارة من دونه. «= قولُ من لم يبدُ له من (ما) إلّا الاسم الموصول. ولو اختُبِرت (ما) في هذا التركيب بنار النكرة الموصوفة، وقُدِّرت بلفظ خاصّ مناسب، لا بلفظ «شيء»، فكان التقدير: «تساقطت الثلوج تساقطاً أدّى إلى توقّف السير»، وكانت جملة «أدّى إلى توقّف السير» صفة لـ(ما) متضمّنة ضميراً يعود إليها، ويربط الكلام بعضه ببعض، لما ساور النفس شكٌّ في صحّة هذا التركيب.

ونظير هذا التوجيه ما آثره بعضُ العلماء في (ما) من قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦]. قال السمين الحلبيّ: «الخامس: أن تكون نكرةً موصوفة بالجملة المنفيَّة بعدها، والعائد محذوف، أي: شيئاً لم نمكِّنْه لكم. ذكره أبو البقاء. قال الشيخ: وهذا أقرب إلى الصواب. قلت: ولو قدَّره أبو البقاء بخاص لكان أحسن من تقديره بلفظ شيء، فكان يقول: مكنَّاهم تمكيناً لم نمكنه لكم»(١٤).

٢- التعقيبُ على ما عِيب بهَ هذا الأسلوب من فقدان الرابط لغياب العائد الذي يعود إلى (ما) في التعليل، بما اقترحه بعضهم لتقدير عائد، من قلب ترتيب العبارة، لتصبح «ممّا أدى إلى توقّف السير تساقطُ الثلوج، أو أن تساقطت الثلوج «= تعقيب بعيد عن السياق، لا صلة له بهذا الأسلوب؛ بدليل شبه الجملة «ممّا فيه»!! ومن الواضح أنّه مقترحٌ موصول بالاستعمال الآخر الذي يستعمله الناس للتعبير عن نفس المعنى: «تساقطت الثلوجُ ممّا أدّى إلى توقّف السير».

---

(١٤) السمين الحلبيّ، الدرّ المصون ٤/ ٥٣٨. و انظر: العكبريّ، التبيان في إعراب القرآن ١٣٩، وأبا حيان الأندلسيّ، البحر المحيط ٤/ ٨١، وصاحبه أبو حيّان المرادُ بالشيخ في قول السمين، و ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب ٨/ ٣١.

٣- الحكمُ في التعليل بنفي الاستقامة عن قول الناس في التعبير عن ذلك المعنى: «تساقطت الثلوجُ الأمر (أو الشيء) الذي أدّى إلى توقّف السير» = لم يرقَ إلى حدٍّ تأنس به النفس، ولم يُؤتَ من البيّنات والأدلّة ما يجعلك تطمئنّ إليه. ولو قلّبتَ العبارةَ على شيء من المحتمل السائغ المقبول لكان لك أن تقدّر ضميراً أو اسم إشارة يعود على المصدر المفهوم من الكلام، يكون «الأمر» أو «الشيء» خبراً له؛ وبه يرتبط شطرا العبارة، فتصحّ وتستقيم.

وليس ذلك ببعيد. وبنحوه وُجِّه الأسلوب الذي تناوله الكلام- «تساقطت الثلوجُ ممّا أدّى إلى توقّف السير»- إذ عُدَّ الجارّ والمجرور متعلّقين بخبر محذوف، مبتدأه مقدّر: تساقطت الثلوج، وذلك ممّا أدّى إلى توقّف السير.

٤- ورد في الكلام على تخريج الأسلوب المختار في هذا القرار ما لا يصحّ عندي من وجهين. ورد في التعليل: «عبارة: (تساقطت الثلوجُ مما أدى إلى توقّف السير) يمكن تخريجها على واحد من وجهين: الأوّل: عدُّ حرف الجر (من) للتبعيض، فيكون التقدير: تساقطت الثلوج بعض ما أدّى إلى توقف السير. الثاني: عدُّ (من) حرف جر و(ما) اسماً موصولاً، والجار والمجرور متعلّقين بخبر محذوف، يكون التقدير: تساقطت الثلوج وذلك ما (كذا، والصحيح ممّا) أدّى إلى توقف السير.» ا.هـ.

قلت: وصْفُ تخريج هذه العبارة في هذا المقطع بأنّه من وجهين غلطٌ ظاهر؛ لأنّ المذكور تخريجٌ واحد شُطِر شطرين، فُسِّر في أولهما حرف الجر (من) بالتبعيض، وذُكِر في الثاني التوجيه النحويّ المقبول للجار والمجرور. على أنّ حملَ حرف الجر (من) في هذا الأسلوب على معنى التبعيض غيرُ ظاهر، ولا يناسب المعنى. فالظاهر من قول الناس مثلاً: «تساقطت الثلوجُ مما أدى إلى توقّف السير» ونحوه الدلالةُ على أنّ ما قبل (من) الجارّة كان السبب الرئيسيّ لما بعدها، لا بعضه.

٥- كان ممّا استُنِد إليه في تسويغ الاستعمال اللغويّ المعاصر الذي وردت فيه «ممّا» الاستئناسُ بأمثلة ممّا وقع في عبارة بعض العلماء والمصنّفين المعاصرين.

وفي هذا الاستئناس عند النظر مغالطةٌ وهفوة منهجيّة واضحة؛ لأنّ الحكم على هذا الأسلوب، والسعيَ إلى تسويغه، يقتضي الاستدلال له بما يصحُّ الاستدلال به، فكيف يُحكَم عليه بنفسه، ويكون هو بنفسه دليلاً على صحّة نفسه وجوازه، ويكون حكَماً ومحكوماً عليه في الوقت نفسه؟! أوليس من التناقض اتّخاذُ الأسلوب الذي يسعى البحثُ إلى تصحيحه وإجازته، أو اتّخاذُ بعض أمثلته، دليلَ استئناس لتصحيح الأسلوب نفسه وإجازته؟!

(مَهَمَّة ومُهِمَّة)

* تناول القرار (٢٠١) الوجهَ الذي يُستعمَل في الدلالة على ما يُكلَّفه الشخصُ من قضيّة أو أمر يقتضي عنايةً أو جهداً خاصًّا، «مَهَمّة» بفتح الميم والهاء أم «مُهِمّة» بضمّ الميم وكسر الهاء؛ وانتهى بالأكثريّة إلى صحّة استعمال الكلمتين، وأن الأَولى استعمال «مُهِمّة» بضمّ الميم وكسر الهاء. فهل بلغ في ذلك مبلغ الإحكام، أم كان فيه ما يدعو إلى التحفّظ؟.

أربعةُ أشياء لاحت لي في قراءة هذا القرار ومقدّماته، كان عليّ أن أنبّه عليها ههنا:

١- بدا لي في بيان المسألة، في أول القرار، ما بلغ حدّ الاختلاف، وافتقر إلى الإحكام. فقد وُصِفَتْ المسألة أولاً بأنّها اختلاف بين الكتّاب والباحثين حول أيّهما أصحّ في الاستعمال اللغويّ: «مَهَمّة» بفتح الميم والهاء أم «مُهِمّة» بضمّ الميم وكسر الهاء؛ وهو ما يعني بآخرة أنّ الخلاف يدور حول أيّ هاتين الكلمتين الصّحيحتين أولى بالاستعمال. ثمّ خُتِم ذلك الوصف بعبارة «فما يصوّبه فريق يخطّئه آخر» التي تعني أنّ الخلاف يقوم

على الصحيح من هاتين الكلمتين، وهذا فيه ما ينقض تلك القضيّة التي قام عليها الشطرُ الأوّل.

٢- ورد في التعليل ما يزكّي استعمالَ مَهَمّة بفتح الميم والهاء، ويرجّحه على استعمال مُهِمّة بضمّ الميم وكسر الهاء، مرّتين:بدا ذلك أوّلاً حين نُقِل ما كان في (تاج العروس) و(المعجم الوسيط) موصولاً بالمسألة من مادة (همم)، ثمّ عُقِّب عليه بالقول: «يُلحَظ أنّ للفعل الثلاثيّ (همّ) دلالتين: واحدة في حالة اللزوم، وهي النية والعزم على الشيء، وهذا مفهوم قول المعاجم....، وواحدة في حالة التعدي، وهي الحزن والإقلاق كما في المعاجم.... ولا شكّ في أن دلالة الفعل اللازم هي الألصق بما نحن فيه..».

وفي الموضع الثاني كان تناولُ «مَهَمّة» و«مُهِمّة» صرفاً ودلالة، الذي عُقّب عليه بالقول: «والظاهر أنّ دلالة» مَهَمّة «أقرب إلى ما نحن بصدده، علماً أنّ كتاب (الألفاظ والأساليب لمجمع اللغة العربيّة في القاهرة ٣/ ٦٦) صحّح كلمة «مُهِمّة» التي كان يخطّئها بعضهم، ورآها أدلّ على المعنى المراد من كلمة «مَهَمّة»....».

حتى إذا وصلت بعد هذا وذاك إلى القرار الذي انتُهِيَ إليه فُوجِئتَ بإيثار ما كان خلاف ذاك الذي زكّاه التعليل. فهل كان ذلك مآلاً صحيحاً يدلّ على صدور النتيجة عن مقدماتها صدوراً منطقيًّا مترابطاً تأخذ فيه النتائج برقاب المقدمات، أم هو القطيعة والاضطراب؟!.

٣- ورد في التعليل الصرفيّ والدلاليّ لكلمة «مُهِمَّة» ما فيه نظر، ذلك أن القول: «ويُلحَظُ هنا أنّ الكلمة انتقلت من الوصفيّة إلى الاسميّة، ولذا يمكن جمعها على (مهامّ)، ولو بقيت على الوصفيّة لكان جمعها (مُهِمَّات)...» = يوهم بامتناع جمع هذه الكلمة «مُهِمَّة» على «مُهِمَّات»،

لانتقالها من الوصفية إلى الاسميّة، وأنّ جمعها هو «مَهامّ» فقط.

وفي هذا نظر؛ لأنّ معنى الوصفيّة في هذه الكلمة ملحوظ لم يفنَ، وإن غادرت الوصفيّة إلى الاسميّة. ولذلك جُمِعت، وهي اسم، جمع سلامة فيما انتهى إلينا من كلام القدماء. بل إنّ جمعها على خلاف ذلك، أعني على «مَهامّ»، من قبيل الظنّي المحتمل، لاحتمال أن يكون هذا الجمعُ جمعَ «مُهِمّ».

٤- أهمل القرارُ في مناقشة استعمال هاتين الكلمتين والتعليل له الاستدلالَ ببعض ما استُعمِلت فيه هاتان الكلمتان من كلام القدماء والفصحاء والعلماء والمصنّفين، احتجاجاً أو استئناساً، إهمالاً كلّيًّا، وهجره هجراناً تامًّا. وقد وردت من ذلك أمثلة غير قليلة يمكن أن تزكّي أحد الاستعمالين، وترجّح إحدى الكلمتين؛ وتخلع على حكمه واستدلاله من القوة والإحكام ما لم يبلغه هنا ولم يصل إليه.

ولو استند القرارُ إلى ذلك، وتأمّله حقّ التأمّل، لزكّى استعمال «مُهِمَّة» بضمّ الميم وكسر الهاء، وجمْعَها على «مُهِمَّات»، ولبدا أنّ جمعها على «مَهامّ» محتملٌ جائز ليس له درجة القطعيّ؛ لاحتمال أن يكون جمع «مُهِمّ»، وأنّ جمعَ «مَهامّ» المستعمل في عبارة القدماء ليس دليل قطع على استعمال «مَهَمّة»؛ ولغلب على الظنّ أنّ هذه الكلمة «مَهمَّة» بفتح الميم والهاء من استعمال المحدَثين الذي ليس له حظٌّ في استعمال القدماء، وإنْ لم تُحرَم حظًّا في القياس والتخريج اللغويّ حُمِلت على شيء منه في هذا القرار[١٥].

(النَّوايا)

* أجازت اللجنة في القرار (٢٠٢) استعمال كلمة (النوايا) التي

(١٥) للأستاذ صلاح الدين الزعبلاوي - رحمه الله - كلامٌ في ذلك أيّده بالدليل والشواهد، نُشِر في غير مظنّة، يحسن الإفادة منه هنا. انظر له: الصفات الغالبة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، م ٥٣، ج٤، ص ٨٢٦-٨٢٧؛ والقياس في الجموع، مجلة التراث العربي - دمشق، ع ١٥ - ١٦، ص ١١٧ - ١١٨؛ ومعجم أخطاء الكتّاب، ص ٦٤٤-٦٤٥.

يستعملها المعاصرون بمعنى المقاصد وما يُعزَم عليه جمعاً ل «النَّواة والنَّوى» بمعنى النيَّة، ونصّت على أن «نِيّة» جمعها «نِيّات». وكان القرارُ الذي انتهت إليه اللجنة في ذلك موافقاً لما دعت إليه في الاقتراح.

وفي ذلك ما يدلّ اقتضاءً على أنّ «نِيَّة» لا تُجمَع على «نوايا»، فإذا جُمِعت على ذلك كان خطأً لا يجوز. بيد أنّ تأمّل ذلك في ضوء ما كان في التعليل الذي استند إليه القرار يدعو إلى التوقّف، ويدفع إلى الحكم على القرار أو النتيجة التي انتهت إليها اللجنة بالتحكّم؛ فقد قام التعليلُ على جواز جمع «نِيَّة» و«نَواة» و«نَوى»، وكلُّها مترادفات بمعنى واحد، على «نوايا» حملاً على النظير؛ فحُمِل الأول «نِيّة» في ذلك على «جِبْية» في جمعها على «جَبايا»؛ وحُمِل الثاني «نواة» في ذلك على «دواة» في جمعها على «دَوايا»؛ وحُمِل الثالث «نَوى» في ذلك على «مَنى» في جمعها على «منايا». ثمّ رُتِّب على ذلك استنتاجاً أنّه «ليس ما يحول دون جمع هذه الكلمات الثلاث على نوايا».

فإذا كان ذلك كذلك فلمَ حيل بين «نِيّة» وبين جمعها على «نوايا» في الاقتراح والقرار ؟ ! وإذا كانت اللجنةُ آثرت في جمع «نِيَّة» السماع، والاقتصارَ على «نِيَّات»، فقد كان ينبغي أن تنبّه على ذلك بما يفسّر تَرْكَ جواز جمع «نِيّة» على «نَوايا» الذي كان واضحاً لا خفاء فيه في التعليل.

ولو تُرِك للقارئ أن يستنتج من التعليل الوارد في هذا القرار الحكمَ المناسب لقال: يقتضي الحملُ على النظير بناءً جوازَ أن يكون (نوايا) جمعاً لـ«نِيَّة» و«نَواة» و«نَوى».

على أن جواز ذلك قياساً حملاً على النظير، في ضوء ما ورد في التعليل، يضعضعه أنّ النظير الذي حُمِلت عليه كلُّ كلمة من تلك الكلمات

كان يتيماً لم يتعدّ الكلمةَ الواحدة. فكيف إذا ابتُلي بعض ذلك بعلل أُخَر، ككلمة «جَبايا» التي نُصَّ في التعليل على ورودها في تاريخ ابن خلدون، وحُمِلت على أنّها جمع «جِبْية» أو «جِبْوة»، ونُظِّر بها جمعُ «نيّة» على «نوايا»؛ فهذه الكلمةُ، وما رُتِّب عليها ممّا لا ينبغي الاطمئنان إليه والوثوق به؛ لأنّها ثمرة من ثمرات تحريف المكتبة الشاملة؛ والواردُ في المطبوع من تاريخ ابن خلدون، في غير طبعة[١٦] المصدر «جِباية». على أنّ ورود «الجبايا» في (مرآة الجنان)[١٧] – وهو ممّا هداني إليه البحثُ في المكتبة الشاملة – ليس دليلاً قاطعاً؛ لاحتمال أن تكون الكلمة محرّفةً من المصدر «الجِباية» تحريفاً؛ وإذا صحّت عِيبت بورودها مولّدة في كلام متأخر، وأنّ حَملها على أنّها جمع «جِبْية» أو «جِبْوة» تقدير ظنيٌّ لا يرقى إلى القطع.

وهذا القرار الذي انتهت إليه اللجنة يقتضي تخطئةَ ما جرى عليه المعاصرون في جمع «نوايا»، خلافاً لما يوحي به ظاهره؛ لأن «نوايا» عند المعاصرين جمع «نيّة»؛ يدلّك على ذلك أنّ الواحد الذي يستعملونه في تعبيرهم كلمة «نِيّة» لا أختاها «نَواة» و«نَوى».

هذا بعض ما بدا لي في هذه القرارات بعد نظر وتدبّر ومراجعات، فيه ما يدعو إلى أن نفتح نوافذنا لروح اللغة اللطيف، وما وقر فيها من سماحة وشجاعة، والحمد لله أوّلاً وآخراً.

* * *

(١٦) انظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٨٧ (ط دار الفكر)، ٣/ ١٤٩ (ط دار الكتاب المصري – الكتاب اللبناني).

(١٧) اليافعيّ، مرآة الجنان، ٢/ ٣٠١.

المصادر والمراجع

- أخبار النساء، ابن الجوزي، تح: د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٩٨٢.
- أخلاق الوزيرين، أبو حيان التوحيدي، تح: محمد بن تاويت الطنجي، دار صادر - بيروت، ١٩٩٢.
- ارتشاف الضرب، أبو حيان الأندلسي، تح: د. رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط١، ١٩٩٨.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني، القاهرة - جدة.
- إصلاح كتاب الحيوان الجزء الأول، صبحي البصام، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع ٢٠٠٦،٧١.
- الأغاني، الأصفهاني، جا و٤، دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٩٥٠، ١٩٥٢، ج ١٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.
- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٩٩٣.
- البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، تح: د. وداد القاضي، دار صادر بيروت، ط ١، ١٩٨٨.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط ٧، ١٩٩٨.
- تاج العروس، الزبيدي، تح: مجموعة من المحققين، الكويت، ط١، ١٩٦٥ - ٢٠٠١.

- تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، عُني به أ. خليل شحادة، دار الفكر – بيروت، ٢٠٠٠. وطبعة دار الكتاب المصري – دار الكتاب اللبناني، ١٩٩٩.
- تاريخ الإسلام للذهبي، تح: د. بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط ١، ٢٠٠٣.
- تاريخ دمشق، ابن عساكر، تح: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر – بيروت، ١٩٩٦، ١٩٩٨.
- التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري، بيت الأفكار الدولية – عمّان والرياض.
- تتمة يتيمة الدهر، الثعالبي، شرح وتحقيق: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٩٨٣.
- تطوّر الآراء النحويّة عند ابن هشام الأنصاريّ، د. حسن موسى الشاعر، دار البشير – عمّان، ط ١، ١٩٩٤.
- التفسير الكبير، الفخر الرازي، الطبعة البهيّة المصريّة – القاهرة، ط١، ١٩٣٨.
- التكملة والذيل والصلة، الصغاني، ج ٢، تح: إبراهيم إسماعيل الأبياري، وج٣، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط مصورة عن ط مطبعة دار الكتب – القاهرة، ١٩٧١ و١٩٧٣.
- الجامع الصحيح، البخاري، عُني به محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة – بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
- حلية الأولياء، أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١، ١٩٨٨.
- الحماسة لأبي تمام، تح: د. عبدالله عسيلان، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، ١٩٨١.
- الحيوان، للجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ط البابي الحلبي – القاهرة، ط ٢، ١٩٦٥ – ١٩٦٩.

- خزانة الأدب، البغدادي، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط ٤، ١٩٩٧.
- الدرّ المصون، السمين الحلبي، تح: د. أحمد محمد الخرّاط، دار القلم - دمشق، ط ١، ١٩٨٦ - ١٩٩٤.
- دلائل الإعجاز، الجرجاني، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط ٥، ٢٠٠٤.
- ديوان دعبل بن علي الخزاعي، شرحه حسن حمد، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١، ١٩٩٤.
- رسائل الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط ١، ١٩٧٩.
- الرسالة القشيرية، القشيري، تح: معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت، ط ١، ٢٠٠١.
- شرح الشافية، رضي الدين، تح: الحسن والزفزاف وعبد الحميد؛ بيروت، دار الكتب العلمية،١٩٧٥.
- شرح المشكل من شعر المتنبي، لابن سيده، تح: السقا، ود. عبد المجيد، الهيئة المصريّة العامة للكتاب - القاهرة، ١٩٧٦.
- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل - بيروت، ط٢، ١٩٩٦.
- الصحاح، الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط ٤، ١٩٩٠.
- صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية بالأزهر - القاهرة، ط١، ١٩٢٩.
- الصفات الغالبة، صلاح الدين الزعبلاوي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، م ٥٣، ج ٤، ١٩٧٨.

- العقد الفريد، ابن عبد ربّه، عُني به أحمد أمين وإبراهيم الإبياري وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة، ١٩٦٨؛ والعقد الفريد، تح: محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية، ط ٢، ١٩٥٣؛ والعقد الفريد، تح: د. مفيد قميحة، ود. عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١، ١٩٨٣.
- عمدة القاري، العيني، ضبطه وصحّحه عبدالله محمود محمد عمر، دار الكتب العلميّة – بيروت، ط١، ٢٠٠١.
- الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، تح: البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، دار الفكر – بيروت، ١٩٩٣.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، تح: عبد القادر شيبة الحمد، ط ١، ٢٠٠١.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، دار المعرفة – بيروت، ط٢، ١٩٧٢.
- القياس في الجموع، صلاح الدين الزعبلاوي، مجلة التراث العربي – دمشق، ع ١٥ – ١٦، ١٩٨٤.
- الكتاب، سيبويه، تح: عبد السلام هارون، بيروت، عالم الكتب.
- اللباب في علوم الكتاب لابن عادل، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوّض، وشارك في تحقيقه: د. محمد سعد رمضان حسن، د. محمد المتولي الدسوقي حرب، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١، ١٩٩٨.
- لسان العرب، ابن منظور، تح: عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف – القاهرة.
- المحاسن والأضداد، الجاحظ، مطبعة السعادة – القاهرة، ط١، ١٣٢٤هـ.

- المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، السريّ الرّفّاء، كتاب المشروب، تح: ماجد حسن الذهبي، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق، ١٩٨٨.
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم، تح: عطا، دار الكتب العلميّة - بيروت، ط٢، ٢٠٠٢.
- مرآة الجنان لليافعيّ، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٩٩٧.
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي القاري، تح: صدقي محمد جميل العطار، دار الفكر- بيروت، ١٩٩٤.
- معجم أخطاء الكتّاب، الزعبلاوي، عُني به: د.محمّد مكّيّ الحسني، وأ. مروان البوّاب، دار الثقافة والتراث - دمشق، ط١، ٢٠٠٦.
- المعجم الأوسط، الطبراني، تح: طارق محمد، وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، ١٩٩٥.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط ٤، ٢٠٠٤.
- مقاييس اللغة، ابن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر - بيروت، ١٩٧٩.
- من غاب عنه المطرب، الثعالبي، المطبعة الأدبية - بيروت، ١٣٠٩.
- موسوعة الشعر العربي، الإصدار الأول، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم.
- نفح الطيب، المقّري، تح: د. إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٩٨٨.
- نهاية الأرب، النويري، ج١، تح: د. مفيد قميحة، ج١٥، تح: د. يوسف الطويل، وعلي محمد هاشم، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ٢٠٠٤.
- همع الهوامع، السيوطيّ، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلميّة - بيروت، ط ١، ١٩٩٨.

* * *

أنباءٌ مجمعيةٌ وثقافية

حفل استقبال
الأستاذ الدكتور رفعت هزيم
عضواً في مجمع اللغة العربية

انتخب مجلس مجمع اللغة العربية في جلسته التاسعة عشرة المنعقدة (في ٢٦/ ١/ ١٤٣٨هـ- ٢٧/ ١٠/ ٢٠١٦م) الأستاذ الدكتور رفعت هزيم عضواً في مجمع اللغة العربية، ليشغل الكرسي الذي شغر بوفاة الدكتورة ليلى الصباغ، وصدر المرسوم الجمهوري رقم (٣٧٤) في (١٥/ ٢/ ٢٠١٦م) بتعيينه.

واحتفل المجمع باستقبال الزميل الأستاذ رفعت هزيم في جلسة علنية عقدها (يوم الأربعاء ٢٩/ ٣/ ٢٠١٧م) في قاعة المحاضرات في المجمع، حضرها نخبة من رجال العلم والسياسة والأدب وأصدقاء المحتفى به.

افتتح الحفل الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس المجمع بكلمة موجزة رحب فيها بالسادة الحضور، مهنئاً الزميل المجمعي الجديد، مباركاً انضمامه إلى مجمع الخالدين.

ثم ألقى الأستاذ الدكتور محمد محفل كلمته التي تحدث فيها عن الزميل المحتفى به، ونوه بمكانته العلمية والخلقية.

تقدم بعد ذلك الأستاذ الدكتور رفعت هزيم، وألقى كلمته التي تحدث فيها عن سلفه الراحلة الدكتورة ليلى الصباغ.

وننشر فيما يلي كلمات الحفل:

كلمة الدكتور مروان المحاسني
رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق
في حفل استقبال الدكتور رفعت هزيم

أيها السيدات والسادة

أشكر لكم مشاركتنا الاحتفال باستقبال عضو عامل جديد ينضم إلى مجمعنا، رصيفاً ننتظر منه مساهمة فعّالة في تعميق إدراكنا لحقائق لغتنا العربية.

هو الدكتور رفعت هزيم المختص بما كان يسمى اللغات الساميَّة، ونحن نطلق على هذه اللغات اسم اللغات العروبية، وهي اللغات التي سبق ظهورها على صفحات التاريخ ظهورَ اللغة العربية، التي حملتها الرسالة إلى مكانتها العالمية.

هي لغات شرق أوسطية تتصف بنظام لغوي مشرقي، شديد القربى من نظامنا العربي الاشتقاقي، ولكنها لا تمت بأي صلة للغات الدخيلة التي أوصلتها الحروب إلى بلادنا، كالتركية الآتية من سهوب آسيا، وهي لغة إلصاقية، أو الكردية الآتية من جبال آسيا الوسطى، وهي تنتمي إلى اللغات الهندية الأوربية، وأقدم هذه اللغات الغازية اللغة الحِثِّيَّة التي ظهرت في شمال بلادنا في عصر عُرف فيه معدن الحديد، واختُرع فيه الدولاب.

أيها الحفل الكريم:

لقد تعرّض مفهوم الذاتية الثقافية، وهو مفهوم مرتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة، إلى الكثير من التساؤلات، حتى وصل بعضها إلى إنكار حقيقة هذا التعبير في

ارتباطه بالمجموعات البشرية، لما في تلك المجموعات من طبقات وتشعبات تجعل ذلك المفهوم غامضاً حين يُطلق على مجموعة بشرية محدّدة. ويقابل ذلك الإنكار تمسّكُ عدد كبير من الشعوب بما لهم من خاصيّة، تظهر دوماً عند تعاملهم مع ثقافات أخرى، وهي تَمَيُّزٌ يُبْرِزُ صفحاتٍ من تاريخهم.

إنه مفهوم تأكدت قيمته في أعقاب إصرار الحداثة الزاحفة على فرض مقاييسها، ونظرتها إلى المسار الحضاري المتسارع، بأنها حقائق تستطيع جميع الثقافات اعتمادَها أُسساً لمستقبلها، بعد انخراطها في مسارات العولمة، مُستندين إلى قول ماك لوهن Marshall Mac Luhan بأن عالم اليوم قد أصبح قريةً صغيرةً مُعولمة.

إننا في هذه الحداثة الجارفة نحو العولمة، نحاول إثبات وجودنا، ومازلنا نستقصي حدود ما يمكن أن يكون لهذه الحداثة من تأثير في ذاتيتنا الثقافية، إذا تمَّ انصياعنا لما يفرضونه من معطيات الحداثة.

فنحن قد قبلنا الحداثة بمعطياتها المادية، التي دخلت حياتنا مشكورةً لتساعدنا في التغلب على ما فيها من صعاب، ولكننا نتشدّد في رفضنا لدخولها إلى حَيِّزِ شخصيتنا الثقافية، معلنين بأن كل تطابق سَطحي مع متطلباتها يجب أن يُعتبر استلاباً تغريبيًّا يهدد وجودنا كأمة متميزة بصفاتها وعلاقاتها بالآخر.

إنه موقف يفرضه احترامنا لذاتيتنا الثقافية الموروثة، وهي محمولة على اللغة التي نعبر بها عن مشاعرنا. وهذا ما يؤكده ماسينيون Massignon المستشرق الكبير حين يقول: «لا يقابل محورية الإسلام في حياة الأمة العربية سوى محورية اللغة العربية في الحضارة العربية الإسلامية»[١].

إنها محورية لا يمكن إنكار وجودها، فهي تعطي المعنى الخاص

(١) Von Grünebaum في مقدمة لكتاب L' identité culturelle. L'Islam 1973 p. IX. بقلم: Jacques Berque.

لألفاظ حياة المجتمع، في التفريق بين مفهومات متقاربة، كتفريق الأخوّة عن الصداقة، وتوضيح الفروق بين الحلال والحرام، كما تدخل في دقائق ما نريد أن نعبّر عنه من مشاعر، وما نريد أن نُثبتَه ونعضّدَه من علاقات، وتفتح لنا أبواب اشتقاقاتها واسعةً نختار منها الألفاظ المعبّرة عما نريد أن نُسبغه من قِيم على تصرفات أفراد المجتمع.

ولا بد من القول بأن الموقع الذي وصلت إليه لغتنا في أعماق شخصيتنا الثقافية لا يمكن أن يؤرخ له بمنطلق توالي دخول الجيوش العربية إلى سورية، في أعقاب معركة اليرموك، إلا من قِبَل من تجاوزوا معطيات التاريخ وأنكروا حقائقه.

فكيف لنا أن ننسى تلك القبائل العربية المستقرة في شمال سورية فيما أطلق عليه ديار بكر، وديار ربيعة؟ وكيف ننكر وجود عراق عربي إلى جانب العراق العجمي؟ وأن كلًّا من مملكتي المناذرة في الحيرة، والغساسنة في بُصرى يشهد بوجود قاعدةٍ لغوية عربية متأصلة في سورية، بعد اندثار مملكة زنوبيا وأذينة. إنها عروبة منفتحة على حضارات كبيرة شرقاً وغرباً، من فارس إلى روما ثم القسطنطينية، وإنه شعب عربي كانت تمر من بلاده قوافلُ البخور وحُمول الحرير، و لم يستطع ما فيها من مصالح أن يُقصيَه عن لغته، وبقيت مَضاربُه تطرب للشعر العربي، وتترنم برنين قوافيه.

ثم انبثقت حضارة كبرى في دمشق الأموية، أدخلت مصر والشمال الإفريقي في لغتها على حساب لغاتها المحلية، ثم أوصلت العربية إلى البر الأوربي، حيث تفتحت ثقافة عالمية استَنبطت العلوم، وطوّرت تلك العلوم في لغتها حتى أصبحت منطلقاً لما نعرفه اليوم من حضارة غربية عالمية.

ليس هذا مجال الاعتزاز بما حملته اللغة العربية من فكر علمي وفلسفي، بل نحن نناقش محورية اللغة العربية في ذاتيتنا الثقافية للنظر في

محوريتها في لغات مشرقية أخرى.

لاشك بأن الاقتراض اللغوي أمرٌ مشهود في جميع لغات العالم، وهو مرتبط بالعلاقات التجارية، وبخصوصية الألفاظ التي يجري اقتراضها. إلا أن ما نقصده بالاقتراض هو وجود لفظة مستقاةٍ من لغة أخرى، تسدّ حاجةً لا مقابلَ لها في اللغة الأصلية، أو هي أفضل توضيحاً للمعنى من اللفظة الموجودة فيها، وهو أمر معروف قد وردت أمثلةٌ عليه في القرآن الكريم.

إلا أن ما أطلقنا عليه مفهوم المحورية يذكرني بزيارتي الأولى إلى إستانبول، حيث أردت زيارة جامعتها الرسمية. فقد فوجئت باقتراضات متعددة في تسمية الجامعة: (تركيا جمهوريتي إستانبول أونيفِرْسيتِتْ، تِبْ فاكولتاسي).

فهو اقتراض من العربية والفرنسية والألمانية في جملة واحدة يتجاوز المألوف.

وحقيقة الأمر أن التركية والفارسية والكردية والأوردو (urdu) لغات قد أَخذت من العربية عدداً كبيراً من الألفاظ للتعبير عن المجرّدات وعن المشاعر.

والأمثلة على ذلك بأن مدخل الإسعاف للمستشفى في إستانبول يكتب عليه Agil عاجل، وصرخة الألم هي Aman أمان، ومعظم الألفاظ المستعملة للتعبير عن المفاهيم المجرّدة والأحاسيس انقلبت أسماء للأشخاص:إحسان عزت صباحت رفعت سعادت شوكت عنايت، وكأن لا وجود لأمثالها في اللغة التركية الأصلية للتعبير عن مفهومات وجدانية إنسانية.

كما أذكر علب السجائر المستوردة من تركيا، كان يكتب عليها (انحصارلار إدارسي) أي إدارة حصر التبغ التي كانت تسمى الريجي في سورية، وهي اقتراض من الفرنسية. والمعروف أن أشهر ميدان في إستانبول هو ميدان تقسيم.

ولقد سعى أتاتورك سعياً حثيثاً لاستبدال عدد كبير من المقترضات اللغوية لكنه لم يفلح إلا في قليل منها..

وأما اللغة الفارسية فقد احتفظت بمقترضاتها العربية وهذا ما يسمح لنا أن نستوعب الكثير من جزئيات أي موضوع مكتوب بالفارسية.

إنّ هذا الاقتراض اللغوي له حدود، إذ إنه يرتبط بضرورات حقيقية بقصد الارتقاء باللغة الحضارية عن طريق استكمال ما ينقصها.

ومن جهة أخرى هناك انسياب لغوي عابر للعصور، وهو واضح في اللغات الأوربية التي احتفظت بالكثير من أصولها: اللاتينية واليونانية فيما يتعلق بالفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية، أو أصولها الجرمانية، فرنجية كانت أو ساكسونية في الإنكليزية، واللغات السكاندينافية.

وأما في مشرقنا فهناك لغات تاريخية قد استقرت ألفاظها وبعض تراكيبها في لغتنا الفصحى كما في الدارجة،وهو مسار تاريخي تكشفه دراسة اللغات القديمة في المشرق. هي اللغات التي نعتبرها لغات عروبية: لغة أكاد، ولغة إِبْلَهْ، والآرامية والسريانية والنبطية، وجميعها محصورة في مشرقنا، ومدونة في وثائق ما زالت في قيد الدراسة، لتحديد ما بينها وبين اللغة العربية من تماثل وتشارك. وقد أظهرت الدراسات الأخيرة أن ٦٠٪ من اللغة الأكادية موجود في لغتنا العربية.

أيها السيدات والسادة

أختم كلامي قائلاً:

إنّ محورية اللغة العربية في حياتنا لا تحتاج إلى دليل، بل هي غالبة على أبنائها حتى حين يعبّرون عن مشاعرهم باللغة الأجنبية.

ومازالت لغتنا هي سبيلنا الأمثل لمعرفة العالم، وهي الناظم لمشاعرنا، والمهيكل لفكرنا، والحافظ لتوازن شخصيتنا في كل تعبير عن الأنا، والضامن لبقاء شعورنا بالانتماء إلى ثقافتنا.

والسلام

كلمة الأستاذ الدكتور محمد محفل
في حفل استقبال الأستاذ الدكتور رفعت هزيم

الأستاذ الدكتور مروان المحاسني، رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

أيها الحفل الكريم:

نحتفل اليوم باستقبال الأستاذ الدكتور رفعت هزيم عضوًا في مجمع اللغة العربية. وُلِد زميلنا في بلدة جَيْرُود، في منطقة القلمون، حيث كان والده موظفاً في الدوائر الحكومية، وبعد تقاعده، استقرت الأُسرة في دمشق، حيث أتمَّ تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارس حيَّيْ ركنِ الدين والمهاجرين.

كانت دراسته الجامعية في المرحلة الأولى بقسم اللغة العربية في جامعة دمشق، ودرّس في ثانويات العاصمة مدة سنتين قبل أن يسافر إلى مصرَ لمتابعة الدراسة في جامعة (عَيْن شمس) ونال منها شهادة الماجستير في عام ١٩٨٠، قبل أن ينتقل إلى ألمانية الاتحادية.

انتسب إلى جامعة ماربورغ ليحصل بعد خمس سنواتٍ على شهادة الدكتوراه في اللغات السامية.

درّس في الجامعات الألمانية، ثم استدعتهُ جامعة اليرموك الأردنية، فرأسَ قسم اللغات القديمة من عام ١٩٨٨ لعام ١٩٩٥. ثم غادر إلى اليمن ليرأس قسم اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة تعز.

وأشرف الدكتور هزيم في جامعتي اليرموك وتعز على عدد من طلبة الماجستير، كما كان عضوًا في لجان المناقشة لعدد آخر.

من مؤلفاته:

- اسم الفاعل في العربية والألمانية، القاهرة عام ١٩٨٣.
- الأعلام المُركّبة في النقوش الصفوية. بالألمانية.
- معجم ثنائي اللغة: عربي - ألماني، للمصطلحات الأثرية شتوتغارت، عام ١٩٩٣.
- ترجم عن الإنكليزية كتاب نقوش المسند، عام ١٩٩٥.
- نشر زُهاء (٢٠ بحثًا) بالألمانية والعربية في الدوريات العلمية العربية والألمانية، ومنها:
- الألقاب والرُّتبُ السياسية والعسكرية في الكتابات النبطية، جامعة اليرموك عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، المجلد الثاني، العدد الأول، عام ١٩٩٤.
- التركيب المزجي في العربية المعاصرة، مجلة الدراسات اللغوية، مركز الملك فيصل للبحث والدراسات، الرياض، المجلد الثاني، العدد الأول.

ونَشَر الدكتور هزيم في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني الدراسات التالية:

- ألفاظ عربية معرّبة.
- حاجتنا إلى معجم جديد للدخيل في الفصحى، العدد (٥٠) لعام ١٩٩٦.

وهو حاليًّا عضوٌ في اللجنة العلمية المكلّفة بإنجاز الموسوعة الأثرية، وخبير في هيئة الموسوعة العربية بدمشق.

وآخر دراسة للدكتور هزيم هي - فيما أعلم - العربية في جنوب الجزيرة العربية حتى ظهور الإسلام، وقد قررّت لجنة الإشراف على مجلة المجمع العربي بدمشق نشرها. وتمّ النشر في ثلاثة أعدادٍ لعام ١٩٩٦.

المعذرة للإيجاز وأكرّر الترحيب بالدكتور رفعت هزيم، فليتفضل.

وشكرًا لإصغائكم

كلمة الأستاذ الدكتور رفعت هزيم
في حفل استقباله يتحدث فيها عن سلفه
الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾

[طه: ٢٥ – ٢٨]. صدق الله العظيم

الأستاذ الجليل رئيس المجمع

الأساتذة الأجلّاء أعضاء المجمع

أيها الحفل الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فإنّ الذاكرة تعود بي اليوم إلى بدء معرفتي بهذا المجمع الأصيل في عهد فتوّتي حينما كنت في مرحلة الدّراسة الثانويّة، إذ ذهبتُ أنا وزميلٌ لي ذات صباح إلى سوق المسكيّة أمام الجامع الأمويّ بدمشق لنشتري ما نحتاج إليه من كتبٍ مستعملة وقراطيس، وعجنا بعد ذلك على زقاق باب البريد لنلتهم بما بقي معنا من نقودٍ ما لذّ وطاب من الصفائح والقطائف. فلمّا بلغنا نهاية الزقاق لاقانا شابٌ يخرج من مبنى عتيقٍ جليل فحيّاه زميلي تحيّة الأصحاب وسأله عن ذلك المبنى وعمّا يفعله فيه فأعلمنا أنه المكتبة الظاهريّة وأنه يستفيد بما فيها من كتبٍ في دراسته الجامعيّة وأخبرنا بأنّ

المكتبة مفتوحة لأمثالنا أيضاً. وهكذا أصبحنا نختلف إلى الظاهرية فينةً بعد فينة لنرفّه عن أنفسنا بما فيها من كتب الأدب الطريف، واستهوانا منها: «البخلاءُ» للجاحظ و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة و«الأغاني» للأصفهاني، وقرأنا كذلك لشعراء الغزل: قيس ليلى وجميل بثينة وعمر بن أبي ربيعة وكثيّر عزّة وبشار بن برد وأبي نواس. وقد عرفنا بعد حين أنّ الظاهريّة تتبع مجمع اللغة العربيّة ومقرّه في المبنى المقابل وهو المدرسة العادليّة، فكنّا نرنو إليه أثناء الدخول والخروج ولكننا ما جرؤنا على ولوجه قطّ، ففاتني بذلك رؤيةُ المجمعيين الذين تُوفوا بعد ذلك بزمنٍ قصير كالأساتذة الأجلّاء عزّ الدّين التنوخي ومصطفى الشهابي وجعفر الحسني رحمهم الله.

غير أنّ صلتي بالمجمعيين لم تتأخّر طويلاً، فقد بدأتُ الدراسة في قسم اللغة العربيّة بجامعة دمشق الذي ضمّت هيئةُ التدريس فيه أساتذةً انتُخبوا - في سنين مختلفة أعضاء في مجمع دمشق أو مجمع القاهرة، وكان منهم الأساتذة الأجلّاء: سعيد الأفغاني وعبد الهادي هاشم وشكري فيصل وأحمد راتب النفّاخ وعبد الكريم الأشتر رحمهم الله، ويُضاف إليهم أستاذي الجليل مازن المبارك الذي يُسعدني اليوم أنْ أُحيّيه وأدعو له بدوام العافية وطول العمر وأشكرَ له أنّه أحظاني بمجالسته في رحاب هذا المجمع. ثم ذهبتُ إلى القاهرة فكان معظم أساتذتي هناك وأنا طالب في مرحلة الماجستير من المجمعيين، ومنهم الأساتذة الأجلاء: مهدي علام وكمال بشر وعزّ الدين إسماعيل ورمضان عبد التواب ومصطفى ناصف ومصطفى الشكعة رحمهم الله. وشاءت الأقدار أن تكون إقامتي في مصر سبباً للاتصال بمجمع دمشق، فقد أدّت الخلافات السياسية بعد توقيع اتفاقيّة كامب ديفيد إلى قطع العلاقات بين مصر وسورية فانقطعت بذلك وسائل

الاتّصال بين القطرين، ورُبّ ضارّةٍ نافعة، إذ وجدتُ نفسي فجأةً مكلّفاً من بعض أساتذتي المصريين وممن عرفتهم من أعلام الأدب في القاهرة أن أحمل رسائلهم ومؤلّفاتهم إلى زملائهم في دمشق لأقوم بما كان يفعله البريد من قبل. ولا بأس بأن أروي ما جرى في اللقاء الأوّل بيني وبين ثلاثةٍ من أساتذتي المجمعيين في دمشق لأُظهر بذلك - لمَن لا يعرفهم - بعض صفاتهم وطبائعهم، فأمّا أوّلهم - وهو الأستاذ شكري فيصل - فقد زرته بعد المغرب في منزله بجوار وزارة التعليم العالي (هيئة الموسوعة العربيّة حاليًّا) في أبي رمّانة متأبّطاً ما أُرسل إليه من مجمع القاهرة فاستقبلني مُرحّباً ودعاني إلى شرب العصير قبل القهوة لأنه كان صائماً، فلمتُ نفسي واعتذرتُ إليه لقدومي في وقتٍ غير مناسب فأجابني باسماً بأنّه هو الذي حدّد مكان اللقاء وموعده، وطلبَ إليّ أن آتيه في المجمع - في مقرّه بالظاهريّة - قبيل سفري لأتسلّم منه ما يرغب في إرساله إلى أصحابه في القاهرة، فأُتيح لي بذلك الدخولُ - أوّل مرّة- إلى المجمع والطوافُ في غرفه ومكاتبه ومحادثةُ بعض موظّفيه. وأمّا ثانيهم - وهو الأستاذ النفّاخ - فقد أوجستُ من لقائه خيفةً لأنّني عرفته في عهد التلمذة حادَّ الطبع سريع الانفعال، لا تُخفي أساريرُ وجهه ما في سريرته، فإنْ لحنتُ وأنا أُحدّثه ما سلمتُ من غضبه وحدّة لسانه، ولكنني وجدتُ مخرجاً لتجنّب اللحن والخطأ لأنّ الأستاذ كان لَسِناً فإذا بدأ الكلامَ كان كالسّيل المتدفّق يصعبُ وقفه، فما كان عليّ سوى أن أصغي إليه مكتفياً باستعمال أحرف الجواب تصديقاً لما يقوله أو أدواتِ الاستفهام طلباً للإيضاح، فلمّا وصلتُ قبيل الظهر إلى داره في حي الشيخ محيي الدّين فتح لي الباب شابٌ يماثلني سنًّا أحسَبُ أنه كان واحداً من الخرّيجين والباحثين الذين يستقبلهم الأستاذ في

داره فيفيدون من علمه ومما في مكتبته من النوادر. وقادني الشابُّ إلى غرفة الأستاذ فإذا به متربّعٌ على حشيّةٍ، وتذكّرتُ أننا كنّا أثناء الدراسة نلقّبه بالخليل تارةً والأصمعي تارةً أخرى، فحيّيته وحلفتُ ألا ينهض من مجلسه، فصافحني باسماً وتسلّم منّي ما أحضرته له ودعاني إلى الجلوس، وطلب إلى الشابّ أن يأتينا بكأسين من الشاي، فزال الخوف واطمأنّ قلبي إلى حين لأنّ الأستاذ سألني عن المقرّرات التي درستها فلمّا علم أنها تشمل اللغات الساميّة وبحوث المستشرقين استغرب وامتعض، وسرعان ما عاد - لطيب معدنه - إلى الهدوء والسكينة وعهِد إليّ بطَلِبَتِه فودّعته وانصرفت. وكانت الرهبة من لقاء ثالثهم - وهو الأستاذ الأفغانيّ - أعظمَ وأشدّ لأنّه أكبر أساتذتي في جامعة دمشق سنًّا وأعلاهم درجةً، زدْ على ذلك أنّه أستاذ النّحو، فتوقّعتُ أن يسألني عن الموضوع الذي اخترته لرسالة الماجستير، وكنت - وأنا أتّجه إلى منزله قرب ساحة خورشيد (النيربين حاليًّا) - كأني ذاهبٌ إلى امتحانٍ يُكرم المرءُ فيه أو يُهان، ولذا قضيتُ الوقت في الحافلة أستعدّ للحوار الذي سيكون بيننا وأصوغ الجملَ اللازمة لذلك لأتجنّب الوقوع في خطأ لغويٍ أو نحوي. وكانت المفاجأة الأولى عندما فُتح باب المنزل لأنّ الذي فتحه هو الأستاذ نفسه، فاستقبلني باسماً مرحّباً وأدخلني غرفة الضيوف، وبدأ الحديثَ ليُخرجني من الارتباك الذي أصابني، فاستوضحني شؤون الدراسة، وسألني عن أخبار إخوانه في القاهرة، ثم كانت المفاجأة الثانية أن الأستاذ الذي ما سمعناه في الجامعة ينطِق إلا بالفصحى روى لي بلهجةٍ دمشقيّة تزيّنها ألفاظ وعبارات كثيرة فصيحة طرائفَ عن زملائه وأصدقائه، ومنهم الأساتذة: محمد بهجت الأثري وعلي الطنطاوي وإبراهيم مدكور، فذهبتْ عني الرَّهْبة ونسيتُ أنني في كنف أستاذ

أساتذتي، وأحسستُ أنني أُجالس صديقاً عرفته منذ زمنٍ طويل، وبلغ بي الزهوّ مبلغه لأنّ تلك الحظوة لم تخطر لي في الأحلام، ولو أُعطيتُ حينذاك لُهْوةً وهي - عند العرب - أفضلُ العطايا وأجزلُها لما رضيتُ بها عن تلك الحِظة بديلاً. ولا شكّ في أنّ دماثة خلق الأستاذ وطِلاوة حديثه جعلاني أُداوم على السعي إلى لقائه في الأعوام التالية كلما قدمتُ إلى دمشق، فلمّا ذهب للتدريس في الجامعات العربية كانت بينه وبيني مراسلات.

ثم أمضيتُ زهاء عَقدين خارج الوطن دارساً ومُدرّساً فانقطعت صلتي أو كادت بالمجمع والمجمعيين في القاهرة ودمشق، فلمّا عدتُ إلى بلادي مطلَع هذا القرن كان من يُمن الطالع انعقادُ المؤتمر الأوّل للمجمع، فسارعتُ إلى حضور جلساته، وواظبتُ على حضور جلسات مؤتمراته وندواته، وتعرّفتُ بعددٍ من المجمعيين السوريين والعرب فسُررتُ بمحادثتهم وأفدتُ من علمهم وأدبهم.

وهاأناذا اليوم قد زُكّيتُ لأكون عضواً عاملاً في هذا المجمع الذي يوشك أن يُتمّ قرناً من عُمره، وقد سبقني إلى عضويته كثيرون، أسّس الأوائلُ منهم وبَنَوْا البنيان ورفعوا الجدران، وتجشّموا ما تجشّموا لأن معظمهم عاشوا قبل عصر التقانة فلم يفيدوا من الشابكة أو الحاسوب أو الهاتف المحمول، وتبعهم في العقود التالية أعلامٌ تابعوا المسيرة، ومنهم الأستاذة الدكتورة ليلى الصبّاغ رحمها الله التي ارتأى المجمعُ أن أكون خلفاً لها. وأوّل ما يتنبّهُ له المرءُ في شخصيّتها طموحُها العلميّ لتحقيق ما تسعى إليه، وآية ذلك سفرها وحيدةً إلى القاهرة لتنال - وهي شابّةٌ - شهادة الإجازة بمرتبة الشرف الأولى من جامعتها عام ١٩٤٧، ولم يكن ذلك هيّناً كما هي الحال اليوم، فقد أثار ذلك كما يروي ابنُ أخيها «انتقاداتٍ كثيرة في

وسطها الأُسريّ والاجتماعي في وقتٍ كان فيه دخولُ الفتيات الجامعةَ قضيةً خلافية، فما بالكم بسفر فتاةٍ في الثامنةَ عَشْرَة من العمر إلى مصر بمفردها؟ غير أنها تحدّتْ تلك الأعراف التي كانت تكبّل انطلاق المرأة إلى ميادين العلم والعمل، فسافرت بتشجيعٍ من أخيها ووالدتها التي حباها اللهُ عقلاً منفتحاً وذهناً متنوّراً». ويكفي أنْ يُشار هنا لبيان جراءتها وجسارتها إلى أنّ مدرسة الآداب العليا - التي أصبحت بعد ذلك كلية الآداب بالجامعة السورية (جامعة دمشق) - نشرت أسماء المجازين منها عامي ١٩٣٢ و١٩٣٣ مصحوبةً بصورهم، ويتوقع المرء أن يرى بينها صور المجازات الأربع حتى وهنّ يرتدين الحجاب أو النقاب مع زملائهنّ، ولكنّ البيئة الاجتماعية حالتْ - فيما يبدو - دون ذلك، فاكتفتْ بنشر أسمائهنّ فقط. ثم عادت الأستاذة الصباغ - بعد عَقدٍ من العمل في التعليم والإدارة والتفتيش في التعليم الثانوي بدمشق - إلى القاهرة لمتابعة الدراسات العليا فنالت شهادة الماجستير عام ١٩٦١ ثم شهادة الدكتوراه عام ١٩٦٦، وكلتاهما بمرتبة الشرف الأولى. واستمرّ عملها في التدريس الجامعي في أقسام التاريخ والجغرافية واللغة العربية والآثار وفي كلية التربية بجامعة دمشق من عام ١٩٧١ إلى عام ١٩٩٣، ثم حظيت دون قريناتها العالمات السوريات الجليلات بأنها كانت أول سيّدة في هذا المجمع العريق عندما دخلته في نهاية القرن العشرين.

أمّا المجال الرحب في بحثها وتدريسها فهو تاريخ العرب في العهد العثماني، وكان البدء برسالة الماجستير عن «الفتح العثماني لبلاد الشام»، وتلتها أطروحة الدكتوراه عن «الجاليات الأوربيّة في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر». وقد يظنّ المرء وهو يقرأ عنوان الأطروحة أنّ

موضوعها بعيد عن هذا المجال، ولكن تلك الجاليات الأجنبية لم ترحل مع رحيل الغزاة الفرنجة، بل أقامت مؤسسات تجارية في مدن بلاد الشام وهيمنت على تجارة كثير من السلع استيراداً وتصديراً بفضل رعاية الدول الكبرى وما حصلت عليه من امتيازات من الدولة العثمانية، ولذا درست الأستاذة الصباغ في كتابها هذا الأثر الحضاري لتلك الجاليات في المشرق العربي، ثم أتبعته كتاباً لدراسة «المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني». ويكفي أن نقرأ عناوين بحوثها المتتالية لنتعرّف تنوّع موضوعاتها في هذا المجال، فواحدٌ عن «الوثائق الإيطالية والإسبانية في تاريخ العرب في القرن العاشر الهجريّ، وثانٍ عن «إفريقية الشرقية في القرن العاشر الهجريّ»، وثالث فيه «صور من الحياة الاجتماعية في فلسطين في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة»، ورابع عن «الغزو البرتغالي للبلاد العربية وموقف الدولة العثمانية في القرن السادس عشر للميلاد»، وخامس عن «الدولة العثمانية والنفوذ البرتغالي في القرن العاشر الهجريّ»، وسادس فيه «ملاحظات حول دراسة الاقتصاد العربي في العصر العثماني»، وسابع عن «معالم الحياة الفكرية في الولايات العربية في العصر العثماني»، وثامن فيه «تقويم جديد للحياة الفكرية في البلاد العربية في المرحلة الأولى من الحكم العثماني».

ويتضح من ذلك أن هذه البحوث وسواها تناولت مجالات الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية للعرب تحت الحكم العثماني. ويحسن بنا أن نقف وقفة قصيرة أمام كتابٍ يُلخّص نظرتها إلى الدولة العثمانية وخاصة في المرحلة الأولى من عهدها، وقد نُشر عام (١٩٨٦) بعنوان «من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول: المؤرّخ المُحبّي وكتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن

الحادي عشر»، وبيّنت في تقديمها لهذا الكتاب سبب اهتمامها به فقالت: «لقد وَسَم كثرةٌ من مؤرّخي تاريخ العرب الحديث الحياةَ الفكرية في المجتمع العربي خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني - العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة - بسمات التدهور والانحطاط والجمود، مندفعين وراء الفكرة الشائعة بأنّ الحضارة العربية الإسلامية التي تأصّلت جذورها وأينعت ثمارها إبّان حِقبة القوة السياسيّة العربية من حياة الخلافة العباسية قد أصابها الحكم العثماني - إلى جوانب عوامل أخرى - بالوهن والذبول...، وقد آن الأوان لأن يُمعن المؤرّخ العربي النظر في تراث تلك المرحلة تحقيقاً ودرساً وتنقيباً وأن يُقوّمه بتجرّد». وتبين لها بعد أن فصّلت القول فيما ورد في ذلك الكتاب الضخم بأجزائه الأربعة وفي غيره من مؤلفات هذا المؤرّخ الدمشقيّ الذي توفي مطلَع القرن الثاني عشر للهجرة «أنّ هذا العصر لم يكن عصر جدبٍ ومحلٍ في الفكر العربي، بل ولا ركودٍ نسبيٍ في مسرى الحضارة العربية الإسلامية - كما يحلو للكثيرين أن يصوّروه - إنما كان عصراً زاخراً بالتموّجات السياسية والاقتصادية والاجتماعية مثلما كان غنيًّا بعطاءاته الفكرية المتنوعة...، وقد جعل المحبّي قارئه في عصره وحتى الوقت الحاضر على صلةٍ شبه دائمة بعمق الحضارة العربية الإسلامية وسعتها، مع تأكيدٍ للعنصر العربي فيها وإبرازٍ له في كل مناسبةٍ كانت تأتي، وأكّد بذلك - في عنفوان سلطة الأتراك العثمانيين الحاكمة لبلاد العرب في عصره - السيادة الحضارية العربية ضمن الحضارة الإسلامية، تلك السيادة التي كانت تظهر واضحةً للعيان بنفوذ اللغة العربية بل وسيادتها في جزءٍ كبير من العالم الإسلامي...، وكان المحبّي في مؤلفاته مدعّماً لمفهوم الأصالة العربية في الحضارة العربية الإسلامية، فهو واحدٌ من الروّاد الأول الطليعيين في حركةٍ عربية وليدة تنادي

بضرورة صيانة العنصر العربي في كيان الحضارة العربية الإسلامية وتنميته، أي إن القرن الحادي عشر الهجري كان فيه رؤى من المفهوم القومي العربي الذي رأى القرنُ الثالث عشر انتعاشه التدريجي، إنما ليس بأُطره الضيقة المتزمّتة قوميًّا وإنما بمفهومه الذي وسّعه الإسلام وأغناه بحيث يستوعب حضاريًّا العالم بأسره». ويبدو أنّ دراستها لمؤلّفات المحبّي الدمشقيّ دفعتها إلى تحقيق كتاب «المِنَح الرحمانيّة في الدولة العثمانيّة» لمعاصره المؤرّخ المصريّ محمّد ابن أبي السّرور البكريّ الصديقيّ، وكان نشره عام ١٩٩٥، كما أرادت أن تُطلع الباحثين العرب على آراء بعض المستشرقين في هذا الميدان فترجمت لهم كتاب (The Ottoman Turks) للمستشرق الإنكليزي (كريزي) Creasy، ونشرته بعنوان «تاريخ الأتراك العثمانيين».

وثمّة مجال آخر ينبغي بيان ما حقّقته الأستاذة الصبّاغ فيه، فقد كان الأستاذ الدكتور أحمد طربين رحمه الله يُدرّس مقرّر «منهجيّة البحث التاريخيّ»، ويبدو أنه طبع أمالي لهذا الغرض، فلمّا أُعير إلى جامعة الكويت عام ١٩٧٢ حلّت الأستاذة الصبّاغ محلّه في تدريس المقرّر، ولْنقرأ ما يقوله في عمل زميلته عند عودته بعد ثلاث سنوات: «وجدتُني أُقلِّبُ كتاباً عن منهجية البحث وضعته الزميلة، ودُهشتُ كيف تسنّى لها استكمال محتويات هذا الموضوع النظريّ و العمليّ، إذ وعتْ كلّ ما كنتُ أحاول تدريسه، فزادت عليه واستعانت بعديدٍ من المؤلَّفات العربية والأجنبية، حتى إنني أعترف بأنها تجاوزت الخطّة التي وضعتها لكتابي، وصار كتابُها العمدة الأصيلة في موضوعه». وقد رأى الأستاذ الدكتور مروان المحاسني أنّ هذا الكتاب «هو الألصقُ باختصاص الأستاذة لأنّ الحاجة إلى نظرةٍ عصريةٍ فاحصة تربط بين النظريات التاريخية الحديثة ومسارات المؤرّخين العرب

القدامى كانت حاجةً ملحّة لإظهار سَبْق ابن خلدون إلى معظم المسالك التي يسلكها المعاصرون كـ(بروديل) F. Braudel و(توينبي) A.Toynbee و(دوبي) G. Duby، و(هيغل) G. Hegel».

وإذا تركنا عملها في التدريس جانباً، فقد كان للأستاذة الصبّاغ مشاركة فعّالة في ميدانٍ آخر، إذ اختيرت رئيسةً لقسم الحضارة العربية في هيئة الموسوعة العربية بدمشق عندما صدر النظام الدّاخلي لها عام ١٩٨٤، فكان عليها - قبل عهد الحاسوب والأتمتة - أن تراجع أمّهات المصادر التاريخية ومعاجم الأعلام والموسوعات العالمية لتنتقي منها ما تراه مناسباً للموسوعة الجديدة، فبلغ ما أنجزته حتى تركها العمل فيها عام ١٩٨٨ خمسة آلاف جذاذة، ولكن صلتها بالهيئة لم تنقطع لأنّ عشرات الموضوعات في «الموسوعة العربية» تحمل اسمها.

وكانت الأستاذة الصباغ قبل تدريسها في الجامعة وعملها في المجمع وفي هيئة الموسوعة العربية تتحدّث في الإذاعة وتلقي محاضرات على الجمهور تلبيةً لدعوة الجمعيات الثقافية ومنها جمعية الندوة الثقافية النسائية بدمشق، ويبدو أن معظم الأحاديث والمحاضرات كانت عن الشخصيات النسائية، وقد اختارت بعضها لتنشره عام ١٩٩٦ في كتاب عنوانه «من الأدب النسائيّ المعاصر العربيّ والغربيّ» تضمّن أحاديثها عن شاعرتين عربيتين وأربع أديبات من الغرب، وعلّلت اختيارهنّ بأنّ «لكل واحدةٍ منهنّ سيرتها الثائرة والمثيرة، وعطاءها المبتكر الفريد الذي سعت من خلاله لتحقّق وجودها ولتبثَّ في حنايا مجتمعها إبداعاً خصيباً، ولتمنح الحضارة الإنسانية قيمةً خلاقة، ولتكون نموذجاً للأجيال في الكفاح والعطاء». أما الشاعرتان فإحداهما فدوى طوقان التي «تتبّعت في أشعارها أحداث وطنها

فلسطين ونضال المقاومة والانتفاضة خطوةً خطوة»، والأخرى نازك الملائكة التي كانت تِربها، وقد جذبها اسمها إليها، لأنه يوحي - كما تقول - «نازكاً وملائكةً»؛ فالاسمُ ناعم رقيق ويعني اللطف والظَّرف، و«الكنية» أثيريّة شفّافة، وهي شباب، والعطاء شعرٌ وعاطفة وموسيقا»، حتى إذا قرأتْ ديوانها الثالث «قرارة الموجة» رأتْ فيه «محاولةً من الشاعرة للكشف عن أعماق وجودها الإنسانيّ... وخلاصةَ صراعِ إنساننا العربيّ المتطوّر وخلقِه لذاته الداخلية الأصيلة... وبعثاً للحياة في نفس الشاعرة». وأما الأديبات الغربيّات فاثنتان منهن إنكليزيتان وهما الشاعرة الصادحة في قفصٍ: (اليزابيث براوننغ) El. Browning - زوجة الشاعر (روبرت براوننغ) - التي توفيت عام ١٩٦١ واشتهرت بديوانها «قصائد وجدانيّة من البرتغاليّة»، والروائية (شارلوت برونتي) Charlotte Bronte التي توفيت شابّةً عام ١٨٥٥ واشتهرت بروايتها «جين إير Jane Eyre»، والأخريان من الولايات المتحدة الأمريكية، إحداهما: المعجزة (هيلين كيلر) Helen Keller الفتاةُ العمياء الصمّاء البكماء التي استطاعت أن تتعلّم باستعمال أصابع اليدين حتى تخرّجت من الجامعة بمرتبة الشرف ثم نشرت عدة كتبٍ عن حياتها وتوفيت عام ١٩٦٨ عن ثمانية وثمانين عاماً، والثانية: الروائية (بيرل باك) Pearl Buck التي اشتهرت بروايتها «الأرض الطيبة The Good Earth» ونالت جائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٨ ثم توفيت عام ١٩٧٣ عن واحد وثمانين عاماً. ولم تكتف الأستاذة الصباغ بهذا الكتاب لبيان اهتمامها بالمرأة بل أضافت إليه كتابين آخرين نشرت أحدهما وهو «المرأة في التاريخ العربي: في تاريخ العرب قبل الإسلام» عام ١٩٧٥ والآخر وهو «نساء ورجال» عام ١٩٩٦. وأحسَبُ أن المرء لا يحتاج إلى الإطالة في التعريف بها لأنّ أجيالاً من

الباحثين تلمذوا لها في المدارس الثانوية وفي الجامعة طوال أربعة عقود وقرؤوا مؤلّفاتها وبحوثها في تاريخ العرب والإسلام، وقد أصبح بعضهم أساتذةً أعلاماً يسيرون على خطاها ويتابعون مسيرتها، وسيجد الباحثون دراسة مسهبة عنها في كتابٍ مخصص لها ضمن سلسلةٍ من الكتب أراد بها المجمع التعريف بأعضائه الراحلين وهم الصفوة والنخبة من اللغويين والأدباء والعلماء في هذا البلد رحمهم الله أجمعين.

أيها الحفل الكريم

قد أحسن أعضاءُ هذا المجمع العريق بي الظن فضمّوني مشكورين إليهم، واستقبلني شيخاي الجليلان الأستاذان مروان المحاسني ومحمّد محفّل اليوم بهذا الثناء الذي جعلني هنيهةً متبختراً مختالاً غير أنّني - بحمد الله - نحّيتُ عنّي الغرور سريعاً لأنني أدرك أنّ البون شاسع بيني وبين العلماء المجمعيين في المعرفة، فأنا من الذين قال فيهم المولى - عزّ وجلّ -: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، ولذلك أدعوه - جلّ شأنه - بما أمرنا به فأقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وأقرُن الدعاء بالاجتهاد في طلبه ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً لأكتشف أنني كمن يُبحر في محيطٍ بعيد المنتهى، فأتذكّر قول الإمام الشافعيّ:

وإذا ما ازددتُ عِلماً زادني علماً بجهلي

وغاية ما يمكنني عمله أن أسعى - قدر استطاعتي - إلى رفد المجمع في المجالات التي أشتغلُ بها منذ ثلاثة عقود مستعيناً بما أُتيح لي من معرفةٍ قليلة بالعربيةّ و باللغات الساميّة التي تَنَبَّهَ علماؤنا القدامى إلى الصلات الوشيجة بينها وبين العربية، ومنهم ابن حزم المتوفى في منتصف القرن الخامس الهجري إذ يقول:«إنّ الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أنّ السريانية والعبرانية

والعربية – التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير – واحدةٌ تبدّلت بتبدّل مساكن أهلها، فحدث فيها جرسٌ كالذي يحدث من الأندلسي إذا رامَ نغمة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلسي، ومن الخراساني إذا رام نغمتيهما...، فمن تدبّر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم، وأنها لغةٌ واحدة في الأصل». غير أنّ المتقدّمين لم ينتفعوا بالمنهج المقارن في البحث اللغويّ والنّحويّ – أي المقارنة بين العربية وأخواتها – إلا نادراً، حتى جاء العصر الحديث فأخذ به المستشرقون ثم الباحثون العرب الذين درسوا في بلاد الغرب، وهو ذو نفعٍ كبير لأنه – فيما أزعم – يجلو كثيراً من المسائل المتعلقة بأصول الألفاظ واشتقاقها ودلالتها. ولا يستغني الباحثون اليوم عن الرجوع إلى معاجم اللغات الساميّة التي يذكر مؤلّفوها فيها – غالباً – صيغ اللفظ في اللغات الأخرى إذا كان من الألفاظ الساميّة المشتركة، وهذا يعني أن قارئ معجمٍ خاص بالأكادية – مثلاً – يستطيع معرفة ما يناظر كل لفظٍ من ألفاظها في العربية والعبرية والآرامية والأوغاريتية وسواها، فإن رغب في معرفة الألفاظ المشتركة بين العربية وأخواتها فعليه – وهنا موضع المشقة والعناء– أن يقرأ جميع المعاجم الخاصة بهذه الأسرة اللغوية التي ألّفها المستشرقون باللاتينية أو الفرنسية أو الإنكليزية أو الألمانية أو غيرها. وقد رأيت أن أقلِّل ما ينفقه القرّاء – على اختلاف مشاربهم – في ذلك من وقتٍ وجُهد، فشرعتُ في وضع معجم يورد الألفاظ في العربية ويُتبع كلًّا منها ما يقابله – مبنىً ومعنىً – في معظم اللغات الساميّة مع بيان أوجه الاختلاف إنْ وُجدتْ. وسأحاول كذلك الإسهام في وضع «المعجم التاريخيّ» الذي طال انتظاره مع أنّ مرسوم إنشاء مجمع

القاهرة عام ١٩٣٢ نصَّ على أن يكون وضعه من أهم أغراضه، ولاشكّ في أن هذا المعجم سيتضمن الألفاظ الدخيلة، وقد عملتُ منذ سنين على جمعها - ماعدا المماتَ والمهجور منها - وتتبعِ أصولها وتاريخ تعريبها وتطوّر صيغها ودلالاتها وبيانِ ما يقابلها في العربية حتى أنجزتُ - بحمد الله - هذا العمل وسمّيته «معجم الألفاظ الدخيلة في الفصحى المعاصرة». وتتوق نفسي إلى المشاركة في إنجاز مشروع «الذخيرة اللغويّة» الذي أصابه ما أصاب مشروع «المعجم التاريخيّ» من تباطؤ وتعثّر مع أنّه حجر الأساس في المجالات المختلفة لعمل المجامع اللغوية وخاصةً مجالي المعاجم والمصطلحات. وأعدُكم بأنني لن آلو جَهداً في الإسهام في أعمال المجمع الأخرى لكي ينهض مع المجامع الشقيقة بلغة القرآن الكريم وينشرَها بين الناس، فلا يجوز أن تبقى الفصحى لغة الكتابة والمحاضرة فحسب، بل ينبغي السعي لجعلها لغة الخطاب والمحادثة في حقول المعرفة كافةً لأنّ اللغة هي عنوان شخصية المرء، فمن كان عربيًّا متعلّماً فعليه أن ينطق بلسانٍ عربيٍ مبين، وتحلّ اللهجاتُ بذلك المحلّ الثاني. ويظهر أن مشكلة الفصحى اليوم ذاتُ وجهين، أحدهما: عدم استعمالها في العلوم التطبيقية تدريساً وبحثاً في الجامعات العربية ماعدا السورية، لأنّ أولي الأمر في معظم البلاد العربيّة يعتقدون أنها ليست أهلاً لذلك، فهؤلاء غافلون عن تاريخ الفصحى القديم عندما بدأت عملية الترجمة في العصر الأموي، ثم نشِطت وازدهرت في العصر العباسي، ويظن المرء أنه لم يبقَ شيء من تراث الفرس والهنود والإغريق والرومان لم يُنقل في ذلك الزمان من الفارسية والسنسكريتية واليونانية واللاتينية وسواها إلى العربية، سواء منه ما اتصل بالعلوم كالطبّ والصيدلة والرياضيات والفلسفة والمنطق، أو ما اتصل بالصناعة، أو ما اتصل

بـالأدب والأسـمار والعجائـب، أو مـا اتصـل بالأديـان والملـل والنِّحـل، فأصبحت العربية بـذلك – كالإنكليزيّـة اليـوم – لغـة العلـم فـي العـالم كلـه. ويكفي للدلالة على ذلك الإشارة إلـى بعـض الألفـاظ فـي علـوم الرياضـيات والكيمياء والفلك التي أخذتها لغات الغرب من العربيّة علـى مـرّ القـرون ومـا زالت مستعملةً فيها إلى يومنـا هـذا، فهـي مدينـةٌ بلفظـي Algorithm/Algorism «الخوارزميّة» المستعملين في الحساب للدلالة على نظـام العَـدّ العَشـريّ أوّلاً ثـم فـي البرمجـة فـي الحاسـوب إلـى اسـم الخـوارزميّ (ت ٨٤٧م) وبلفـظ Algebra «الجَبْر» إلى كتابه «الحساب فـي الجبـر والمقابلـة»، و تحـوّل لفظـا: الكُحل والقلي عندهم إلـى: Alcohol وAlcali، واللفـظ اللاتينـي cifraْ مـأخوذ من اللفظ العربي «الصِّفْر»، وقد استعملت لغـات الغـرب صـيغاً متشـابهة منـه بمعنى «العدد» أو «الرقم»، ثم تحوّل بعد ذلك بدلالته الجديدة علـى «الصـفر» منذ القرن الخامس عشر إلى zero. وإذا كان الباحثون يختلفون في أصل كلمـة «الكيمياء» فهم متفقون على أنّ جابر بـن حيّـان (ت٨١٣م) هـو مخلّـص هـذا العلم مـن أيـدي المشـعوذين ومبتكـر المـنهج التجريبـيّ؛ وأنّ لغـات الغـرب أخذت كلمة Alchemy – بـأداة التعريـف – مـن العربيـة. كمـا أخـذت أسـماء بعض النجوم، ومنها: Altair «الطـائر» و Vega «الواقـع» اختصـاراً مـن «النسـر الطـائر» و«النّسـر الواقـع» وDeneb «ذنَـب» اختصـاراً مـن «ذنـب الدجاجـة» و Fomalhaut «فـم الحـوت» و Bet el geuse «بيـت الجـوزاء» و Rigel «رِجْـل الجوزاء/ رِجْل الجبّار» وAldebaran «الدَّبَران» – وهـو بـين الثريّـا والجـوزاء– وAlgol اختصاراً مـن «رأس الغُـول» و Achernar «آخـرُ النَّهْـر/ الظَّليم». ولـذا سخر شاعر النيل حافظ إبراهيم مـن هـؤلاء الغـافلين مطلـع القـرن المنصـرم، فقال بلسان الفصحى:

رمَوني بعُقمٍ في الشباب وليتني عقُمتُ فلمْ أجزع لقولِ عُداتي
وسعتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً وما ضقتُ عن آيٍ بهِ وعظات
فكيف أضيقُ اليوم عن وصف آلةٍ وتنسيق أسماءٍ لمخترَعات
أنا البحر في أحشائه الدُّرُ كامنٌ فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي؟

والوجه الآخر للمشكلة إهمال الفصحى لا مِن الطلبة والشُداة بل ممن يجيدونها مع أنه يُفترضُ بهم أن يكونوا حُماتها ورعاتها ليقتدي بهم غيرُهم، وليس هذا التقصير وليد اليوم لأنّ طه حسين وصف حال أساتذته في الأزهر وأساتذتِه الأوربيين في الجامعة المصريّة، فقال: «وازنَ طلابُ الأزهر بين شيوخهم الذين كانوا لا يُعربون إلا حين يقرؤون في الكتب، فإذا تكلموا غرقوا وأغرقوا طلابهم في اللغة العامية إلى أذقانهم أو إلى آذانهم، وبين أساتذتهم أولئك الأوربيين الذين كانوا يعربون حين يقرؤون وحين يفسّرون وحين يخوضون معهم فيما شاء الله من ألوان الحديث، وكانوا يسألون أنفسهم كيف أُتيح لهؤلاء الأوربيين ما أتيح لهم من العلم بأسرار اللغة العربية ودقائق آدابها، وكيف لم يُتح هذا النوع من العلم لشيوخهم أولئك الأجلّاء؟».

وقد أغفلتُ عن عمدٍ مسألة المصطلحات بأوجهها الثلاثة ترجمةً وتعريباً وتوحيداً، لأنها - فيما أرى - ليست لُبّ المشكلة اللغويّة، فالمنهج الصحيح يقتضي أن تكون الفصحى لغة العلم والتعليم في المجالات كافة، ولن يضيرها عندئذٍ تعدّدُ المصطلحات أو عدمُ الاتفاق في ترجمتها أو في تعريبها أو أن يكون بعضها أعجمياً لأنّ الاستعمال كفيل بالتخلّص من العلل والمثبّطات شيئاً فشيئاً أو - على الأقل - خفضها إلى الحدّ الأدنى. وإذا كنا نُرجعُ هجرَ الفصحى حتى منتصف القرن العشرين إلى أسبابٍ كثيرة أهمّها تفشّي الأميّة فأيُّ عذرٍ في أن يهجرها اليوم ملايين العرب ممن أنهوا التعليم

الثانوي أو تابعوا التعليم في الجامعات والمعاهد ونال كثيرون منهم شهادات الدكتوراه والماجستير والدبلوم؟

أيها الحفل الكريم

لا خِيار أمام حماة الفصحى ومُحبّيها سوى الأخذ بما ورد في إعلان مجمع القاهرة بمناسبة احتفاله بالعيد الماسيّ في آذار عام ٢٠٠٧، وهو «العمل على صيانة الفصحى والمحافظة عليها وتيسيرِها وتطويرها وجعلِها مواكبةً لروح العصر، قادرةً على الوفاء باحتياجاته ومطالبه، متسعةً لمجالات المعرفة الشاملة والمتسارعة بلا حدود، باعتبار هذه اللغة وعاءً لتراثنا وثقافتنا وذخيرةً لمكتنزاتنا وتجليات إبداعنا، وآلةً لإنتاجنا المعرفيّ قديمِهِ وحديثه، ومنطلقاً لطموحاتنا ومواجهتنا للتحدّيات التي يفرضها علينا واقعٌ عربيّ وعالميّ جديد لابدّ فيه من تأكيد الهويّة وترسيخِ القدم والأخذِ بأسباب التقدّم ووسائله والإسهامِ فيه كما أسهمنا عبر التاريخ عندما كانت العربية لغة العولمة وجامعةَ الثقافات ولسانَ الشعوب».

وفي الختام أعِد ببذل الجُهد لتحقيق ما قالته الراحلة الأستاذة الدكتورة ليلى الصبّاغ رحمها الله بعد انضمامها إلى مجمعنا هذا، وهو «العمل مع أعضائه على حماية اللغة العربية وتعزيز مكانتها وإغنائها والارتقاء بها لتواكب التطوّر الحضاري العلمي العالمي».

وبالله التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٢٠١٧/٣/٢٩

* * *

من قرارات مجلس المجمع
في الألفاظ والأساليب(*)

(١٠٨)

«اسْتَوْفى الشروط»

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال المعاصر عبارة: «استوفى الشروط» بمعنى توفرت فيه الشروط واستكملها. وذلك نحو قولهم: «لا تقبل الطلبات غير المستوفية الشروط» ويضعِّف بعضهم استعمالها لأن المعاجم القديمة لم توردها بهذه الدلالة.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «استوفى الشروط» بمعنى توفرت فيه الشروط واستكملها.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

جاء في لسان العرب: «وفَى الشيءُ: تمَّ. يقال: وفَى بالشيء وأوفى

(*) هذه قرارات مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق، وهي قابلة للتعديل في مؤتمر المجمع. (يرجى ممَّن له ملاحظات عليها أن يتفضل بإرسالها إلى المجلة).

ووفَّى بمعنى واحد وتَوَفَّى المدة: بلغَها واستكملها..والوافي من الشِّعر: ما استوفى في الاستعمال عدة أجزائه في دائرته.. واستوفاه: لم يدع منه شيئاً».

يفهم من هذا أن (تَوَفَّى) معناها (استكمل)..واستوفى الأمر: لم يدعْ منه شيئاً.

ب- في الصرف:

كثيراً ما يأتي بناء تَفَعَّلَ بمعنى استفعلَ نحو: تعجَّلَ واستعجلَ، وتيقَّنَ واستيقنَ، وتبيَّنَ واستبانَ

ويعلم من هذا أن (استوفى) وردت بالمعنى المقصود وهو عدم ترك شيء من المطلوب، أو بمعنى (توفَّى) في قولهم: «تَوَفَّى المدة: استكملها» ولذا يصح قولهم: «استوفى الشروط» بمعنى (استكملها) و«طلبات مستوفية للشروط» بمعنى تحققت فيها الشروط المطلوبة.

ج- في الاستئناس:

أجازها مجمع القاهرة في الألفاظ والأساليب في الدورة (٧٦) للعام ٢٠١٠م.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «استوفى الشروط» بمعنى توفرت فيه الشروط واستكملها.

* * *

(١٠٩)

أزَّمَ وتأزيم

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال المعاصر الفعل (أزَّمَ) ومصدره (تأزيم)، بمعنى

إحداث أزمة وشدة في أمر. ولم يرد هذا البناء للفعل (أزَّم) ولا دلالته المحدثة في المعاجم.

٢- الاقتراح:

جواز استعمال (أزَّم وتأزيم) بمعنى إحداث أزمة، وهي الشدة والضِّيق، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- لسان العرب: «الأَزْم: القطْع بالناب والسكين. الأَزْمة: الشدة والقحط. والأزمة: السَّنة المجدِبة. والمتأزِّم: المتألم لأَزمة الزمان..وأزَمَ أَزْماً: تَقَبَّض، والمأزِم: المَضيق».
- الوسيط: «الأَزْمة والأَزَمة: الضيق والشدة، يقال: أزمة مالية..وتأزَّمَ: أصابته أزْمة».

ويفهم من هذا أن الأَزْم والأَزْمة هي الاشتداد والضيق، وأن الفعل (أزَّم) على بناء (فعَّل) لم يرد، ولكن ورد (تأزَّمَ) بمعنى تألَّم لضيق الزمان وأصابته أزمة.

ب- في الصرف:

ما دام قد ورد الفعل (تأزَّم) بمعنى أصابته أزمة، وهو على بناء (تفَعَّل) الذي من معانيه المُطاوعة، فيمكن العودة إلى فعله المتعدي (أزَّم) الذي يفيد المعالجة.

ج- في الدلالة:

إذا صح اشتقاق (أزَّم)، وهو اشتقاق قياسي جاز أن يكون معناه أصابه بأزْمة أي أوقعَه بأزمة وضائقة، وهذا هو المعنى المقصود لدى المحدثين.

على أنه يمكن اشتقاق الفعل (أزَّم) من الأزمة، بمعنى شدَّد وضيَّق، لأن

الأزمة هي الشدة والضيق، كما اشتقت العرب الفعل (تَوجَّب) من كلمة (وَجْبة)، بمعنى أكلَ وجبة واحدة في اليوم.

د- في الاستئناس:

- أجازها مجمع القاهرة في كتاب الألفاظ والأساليب ٤/ ٤٤٤.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز استعمال (أزَّم وتأزيم) بمعنى إحداث أزمة، وهي الشدة والضِّيق، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم.

* * *

(١١٠)

الأولويَّة

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال المعاصر كلمة (الأَولويَّة) بمعنى الأَسبقيَّة والأحقِّيَّة في ترتيب الأمور المطلوب إنجازها، ولم ترد على هذا البناء وهذه الدلالة في المعاجم العربية.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: (الأَوْلَوِيَّة) من (الأَوْلى) بمعنى الأَسبقيَّة والأحقِّيَّة، وإضافتها إلى المعجم العربي.

٣-التعليل: أ- في المعاجم:

- لسان العرب: «الأوَّل: المتقدِّم وهو نقيض الآخِر، والأنثى الأُولى..وتقول: هذا أَوَّلُ بيِّنُ الأَوَلِيَّة..». «وفلانٌ أَولى بهذا

الأمر: أحقُّ بـه، وهمـا الأَوْلَيـان: الأحقَّـان..وفلانٌ أَولـى بكـذا أحرى به وأَجدر، وتقول في المرأة: هي الوُلْيا، وهنَّ الوُلْيَيات».

- الوسيط: «الأَوْلى اسم تفضيل بمعنى الأحقّ والأَجدر والأقرب».

ب- في الصرف:

(الأَوْلويَّة) مصدر صناعي من اسم التفضيل (أَوْلى) على وزن (أَفْعَليَّة)، والمصدر الصناعي يمكن أن يصاغ من الأسماء الجامـدة والمشـتقة، فقولنـا (الأَوْلَوِيَّة) يعني حالة ما هو أحقُّ وأجدر من غيره.

ج- في الاستئناس:

- أجازها مجمع القاهرة في الألفاظ والأساليب ٤/ ٥٥٧.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جـواز قـولهم: (الأَوْلَوِيَّـة) مـن (الأَوْلـى) بمعنـى الأَسـبقيَّة والأحقِّيَّـة، وإضافتها إلى المعجم العربي.

* * *

(١١١)

البُؤَساء

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال قولهم: (البُؤَساء) جمعاً لكلمة (بـائس)، ويخطِّئهـا بعضهم لأن قياس جمع (بائس) عندهم (بائسون)، لأنها صفة لمذكر عاقل.

٢- الاقتراح:

صحة قولهم: (بُؤَساء) جمعاً قياسيًّاً لـ (بائس) بمعنى مفتقر وشديد الحاجة.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- في لسان العرب: «البأس: العذاب، والشدة في الحرب، ورجلٌ بَئِسٌ: شجاع، بَئِسَ بَأْساً وبَؤُسَ بَآسةً. والبُؤْس: الشدة والفقر. وبَئِسَ الرجل يَبْأَسُ بُؤْساً وبَأْساً وبَئِيساً إذا افتقر واشتدت حاجته».
- في الوسيط: «بَئِسَ يَبْأَسُ بَأْساً وبُؤْساً وبَئِيساً: افتقر واشتدت حاجته فهو (بائس)».

يتضح من هذا أن (بائس) اسم فاعل من الفعل بَئِسَ يَبْأَسُ، أي البائس هو المفتقر المحتاج.

ب- في الصرف:

واضح أن (بُؤَساء) هي جمع تكسير على وزن (فُعَلاء) كنُبَهاء وكُرَماء، وهذا الجمع قياسيٌّ لبناءين:

الأول: صفة لمذكر عاقل على وزن (فَعِيل) بمعنى (فاعل) صحيحة اللام غير مضاعفة دالة على سجيَّة مدحٍ أو ذمٍّ كنَبيه ونُبَهاء، وكريم وكُرَماء، وشَجيع وشُجَعاء، وجَبين (جبان) وجُبَناء.

والثاني: صفة لمذكر عاقل على وزن (فاعل) دالة على سجيَّة مدحٍ أو ذمٍّ كعالم وعُلماء، وجاهل وجُهلاء. وشذَّ جمع جبان على جُبَناء (لأنه جمع جَبين وهو الجبان).

وهذا الصنف الثاني منطبق تماماً على كلمة (بائس) التي هي صفة لمذكر عاقل على وزن (فاعل).

أما البؤساء جمعاً لـ (بَئِيس) بمعنى الشجاع فليست موضع جدال.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

صحة قولهم: (البُؤَسَاء) جمعاً لـ (بائس) بمعنى فقير ومحتاج.

* * *

(١١٢)

بتَّ الأمرَ وبتَّ في الأمر

١- المسألة:

يخطِّئ بعضهم عبارة: (بتَّ في الأمر) بمعنى أعطى حكماً قاطعاً فيه، أو قطع فيه برأي، والصواب عندهم: (بتَّ الأمرَ) بمعنى قطَعَهُ متعدياً بنفسه.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: (بتَّ في الأمر) بمعنى أعطى فيه حكماً قاطعاً بتعدية الفعل (بتَّ) بالحرف (في).

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- اللسان: «البت: القطع المستأصل..وبتَّ الحاكم القضاء على فلان إذا قطعه وفصلَه.. وسكران ما يُبُتُّ؛ أي ما يقطع أمراً».
- الوسيط: «بتَّ الشيءُ بُتوتاً: انقطع. وبتَّ الشيءَ يبتُّه بَتًّا وبَتَّةً وبَتاتاً: قطعَه قطْعاً مستأصلاً. وبتَّ الحكم: أصدرَه، وبتَّ الأمر: نواه وجزمَ به.. وبتَّ اليمين: جزمَ بها وأمضاها».

وجاء في الوسيط في مادة (قطع): «قطع برأيه: بتَّ فيه».

ويُعلم من هذا أن (بتَّ) يجيء لازماً ومتعدياً بنفسه كثيراً، ولكنه جاء متعدياً بـ (في) في عبارة المعجم الوسيط. ومع أن واضعي المعجم الوسيط استعملوه، فإنهم لم يوردوه في مادة (بتَّ).

ب- في الدلالة:

إذا كان (بتَّ) بمعنى (قطعَ)، فإن هذا الأخير قد يُعدَّى بـ (في)، على مثال قول ابن جني في الخصائص ١/ ٥٣: «لا يُقطَع فيها بيقين» أي لا يقطعون الأمر أو الخلاف في ذلك بيقين.

- جاء في المحلَّى لابن حزم الأندلسي ٩/ ١٢٢: «فهؤلاء عمر وعثمان وزيد بن ثابت لا يقطعون فيه بشيء».
- وجاء في فتاوى السبكي - كتاب الصيام ١/ ٤١٧: «ومنها ما لا يقطعون فيه بعدم الإمكان».

وعلى ما سبق يمكن قبول (بتَّ في الأمر) على تضمين (بتَّ) معنى (قطعَ)، ومن شروط التضمين التقارب في المعنى.

د- في الاستئناس:

- أقرته المعاجم الحديثة مثل معجم اللغة العربية المعاصرة فقال: «بتَّ في الأمر: أنهاه ووصل فيه إلى قرار..وقضية مبتوت فيها». وأشارت بعض كتب التصحيح اللغوي إلى أنها صحيحة. وخرَّجها دوزي على تقدير (بتَّ رأيه في الأمر) أي بحذف المفعول به.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: (بتَّ في الأمر) بمعنى أعطى فيه حكماً قاطعاً بتعدية الفعل (بتَّ) بالحرف (في).

* * *

(١١٣)

بَحْت وبَحْتة

١- المسألة:

يخطِّئ بعضهم تأنيث كلمة (بحت) كأن يقال: (تلك موسوعة لغوية بحتة) لأن هذه الكلمة مصدر، وهو مما يستوي فيه المذكر والمؤنث عند الوصف به لدى بعضهم.

٢- الاقتراح:

صحة قولهم: (بحت وبحتة) صفة بمعنى صرف وخالص مما يخالطه.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- اللسان: «البحت الخالص من كل شيء، يقال: عربي بحت وعربية بحتة..الجوهري: عربي بحت أي محض، وكذلك المؤنث والاثنان والجمع، وإن شئت قلت: امرأة عربية بحتة، وثنَّيت وجمعت، وقال: وبعضهم لا يُثنّى ولا يجمع ولا يحقَّر».
- الوسيط: «البحت: الصِّرف الخالص لا يخالطه غيره. وعربي بحت: خالص النَّسب وحَرٌّ بحت: شديد، يستوي في كل ذلك المذكر والمؤنث والمثنى والجمع، وقد يؤنَّث ويجمع، فيقال: عربية بحتة وأعراب بُحوت».

وواضح مما سبق أن تأنيث كلمة (بحت) جائز وكذا تثنيتها وجمعها، فلا حرج في استعمالها مؤنثة. العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

صحة قولهم: (بحت وبحتة) صفة بمعنى صرف وخالص مما يخالطه.

* * *

(١١٤)
بَخَّ وبَخَّاخ وبَخَّاخة

١ - المسألة:

يشيع في الاستعمال المعاصر الفعل (بخَّ) بمعنى أرذَّ السائل ورشَّه، والاسم (بخَّاخ) لمن يقوم بالفعل، و(بخَّاخة) للآلة التي يُرشُّ بها، كقولهم: (بخَّ عليه الماء)، (بخَّ الحشرات بالمُبيد)، (بخَّ الثعبان سُمَّه) ويخطِّئها بعضهم، لأنها لم ترد في المعاجم القديمة.

٢ - الاقتراح:

جواز قولهم: «بخَّ» بمعنى أرذّ ورشَّ، وكذا سائر مشتقات الفعل، وإضافتها إلى المعجم.

٣- التعليل: أ- في المعاجم القديمة:

ليس في المعاجم القديمة كلمة بهذه الدلالة، وورد فيها لفظ (بَخٍ بَخٍ) بمعنى الاستحسان، و(بَخْبَخَ) بمعنى قال له بَخٍ بَخٍ.

ب- المعاجم الحديثة:

- جاء في المعجم العربي الأساسي الصادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون بجامعة الدول العربية ومعجم اللغة العربية المعاصرة: «بخَّ السائل: رشَّه. وبخَّاخ وبخَّاخة (والجمع بَخَّاخات): آلة الرش».
- وذكره دوزي في تكملة المعاجم العربية ١/ ٢٤٧ نقلاً عن غيره من معاجم بعض المستشرقين.

ج- كتب التراث:

- ذكر أحمد تيمور في المعجم الكبير للعامية المصرية أن (بخَّ) ورد

بمعنى رش الماء في كتاب (مطالع البدور) لأديب من القرن التاسع الهجري ج٢ ص ١٠، وفي كتاب (روض الآداب) للحجازي ص ٢٩ في بيت لجمال الدين الصوفي يقول فيه:

أتانا بماوَرْدٍ ذكيٍّ فبخَّه بثغرٍ له كالمسك بل هو أَعْطَرُ

وذكر الدكتور محمد حسن عبد العزيز في بحث له في كتاب (الألفاظ والأساليب) لمجمع القاهرة أن الكلمة وردت في معجم العربية المعاصرة لـ(هانزفير)، وذكر أيضاً بخَّاخة ومِبخَّة.

د- في الاستئناس:

- أقرها مجمع اللغة العربية بالقاهرة في كتاب الألفاظ والأساليب ٤/ ٢٢٢.

ملاحظة: الكلمة آرامية الأصل فعلها (إبَّخ) ومصدره (بْخوخا) بمعنى بخَّ. بحسب قول مدير مدرسة اللغة الآرامية بمعلولا الأستاذ جورج رزق الله.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: (بخَّ) بمعنى أرذّ ورشَّ، وكذا سائر مشتقات الفعل، وإضافتها إلى المعجم.

* * *

(١١٥)

البِداية

١- المسألة:

يشيع كثيراً في الاستعمال اللغوي المعاصر كلمة (البِداية) بمعنى (البَدء)، ولم تذكر المعاجم هذه الكلمة بهذا البناء.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: (البِداية) بمعنى البدء، وإضافتها إلى المعجم.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- لسان العرب: «البدء: فعل الشيء أولُ، بَدأَ به وبَدأَه يبدؤه بَدْءاً وأَبدأَه وابْتَدأَه. يقال: لك البدءُ والبَدْأة والبَدِيئة والبَداءة والبُداءة والبَداهة على البدل، أي لك أن تبدأ مثل غيرك في الرمي وغيره. وحكى اللحياني: «كان ذلك في بَدْأتنا وبِدأتنا بالقصر والمد..وقولهم: أفعله بادئ بَدْء وباديَ بديءٍ على (فَعِيل) أي أول شيء».

ويلحظ أن اللسان ذكر ستة مصادر للفعل (بدأ)، وليس بينها (البداية).

- الوسيط: «بدأَ بَدْءاً وبَدأةً: حدث ونشأ. البَدْء: أول كل شيء، يقال: نقلْتُه بدْءاً وبَدْءَ بَدْءٍ وأول بدء. البُداءة: البَدْء».

وهكذا فالمعاجم القديمة والحديثة لم تذكر هذه الكلمة بين المصادر الكثيرة التي ذكرتها للفعل (بدأ).

ب- في كتب التراث العربي:

تكررت كلمة (البداية) آلاف المرات في كتب التراث العربي، ولعل أهمها كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير الدمشقي المتوفى (٧٧٤هـ)، وتكررت لدى معظم من جاء بعده من المؤرخين.

وممن تكررت عنده مرات: السبكي في الأشباه والنظائر ١/ ١٣١، والنووي في المجموع ٢/ ٤٠٥، وابن قدامة في الشرح الكبير ٧/ ٥٦٥، ولسان الدين بن الخطيب في (الإحاطة في أخبار غرناطة) ١/ ٣٥٧، وابن خلدون في تاريخه ٦/ ٣٤.

أما في كتابة المحدثين فلا يكاد كتاب يخلو منها.

ج- في الصرف:

يمكن حمل هذه الكلمة على المزاوجة بكلمة (النهاية)، وكثيراً ما تلجأ العربية إلى هذا، ولاسيما في الحقل الدلالي الواحد كقولهم: (الغدايا والعشايا) وهي الغَدَوات.

كما يمكن عدُّ الكلمة مصدر مرة للفعل المزيد (بادأ)، إذ المصدر القياسي (بِداء ومبادأة) على مثال جاهرَ جِهاراً ومجاهرةً، فمصدر المرة منه (بِداءة)، وقلب الهمزة في العربية ياءً مسموع في نحو: عباءة وعباية، وساءه سواءً وسَواية ومساءة ومَساية كما في اللسان.

كما يمكن عدُّها مما زيدت التاء عليه كما في كثير من المصادر نحو: ناب الأمر نَوباً ونَوبةً، ونَظرَهُ ينظرُه نظَراً ومنظراً ومنظرةً.

د- في الاستئناس:

أوردها معجم اللغة العربية المعاصرة بمعنى البَدْء.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: (البِداية) بمعنى البدء، وإضافتها إلى المعجم.

* * *

(١١٦)

بَرَّرَ وتَبْرير

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال المعاصر الفعل (برَّرَ) بمعنى (سَوَّغَ) و(علَّل)،

وكذا مشتقاته من نحو تبرير ومُبرَّر. ويخطِّئها بعضهم لأن هذا الفعل ليس له هذه الدلالة في المعاجم القديمة.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: (برَّرَ) بمعنى (سَوَّغَ) و(علَّل)، وإضافة هذه الدلالة إلى مادة (برر) في المعجم.

٣- التعليل: أ- جاء في المعاجم:

- اللسان: «أبرَّ الله حجَّك لغة في (برَّ الله حجَّك) أي قَبِله..والمَبرور: المقبول المقابَل بالبر وهو الثواب، يقال: برَّ الله حجَّه وأبرَّه برًّا وإبراراً».
- المصباح المنير: «برَّ الله الحجَّ: قَبِله».
- المعجم الكبير: «برَّر عمله: ذكر من الأسباب ما يسوِّغه. (محدثة). وبَرَّ الحجُّ: قُبِل» ومثله في المعجم الوسيط.

ب- في الصرف والدلالة:

إذا كان الفعل الثلاثي (برَّ) بمعنى (قَبِل)، فإن مزيده (برَّرَ) على زنة (فعَّلَ) الذي من معانيه جعل الشيء على صفة أو حالة نحو: أمَّرَه إذا جعله أميراً، وعلى هذا يصبح معنى (برَّر غيابه) هو جعله مقبولاً بما قدَّم من الأسباب، ومثله في ذلك مثل مرادفه (سوَّغ) الذي معناه جعلَ الشيء سائغاً أي سهلاً، وجعله جائزاً.

ج- في الاستئناس:

- أجازه مجمع القاهرة في كتاب (في أصول اللغة) ١/ ٢٤٤

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: (برَّرَ) بمعنى (سَوَّغَ) و(علَّل)، وإضافة هذه الدلالة إلى مادة (برر) في المعجم.

* * *

(١١٧)

ابتزَّ وابتزاز

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال اللغوي المعاصر فعل (ابتزَّ) بمعنى أخذَ مالاً أو موافقةً من أحدهم بوساطة التخويف أو التهديد، ومصدره (ابتزاز). ولم ترد هذه الدلالة للفعل ومصدره في المعاجم القديمة والحديثة.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: (ابتزَّ) بمعنى أخذَ مالاً من أحدهم أو استغلَّه دون رضاه وبوساطة التخويف أو التهديد، أو بالترغيب، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- جاء في لسان العرب: «البَزُّ: السَّلب، وابتززتُ الشيءَ: استَلَبْتُه. وبزَّهُ يبُزُّه: غلبَه وغصبَه. وبزَّ الشيءَ: انتزعه، وابتزَّ ثيابه: سلبَه إياها..والبُزابز: الشديد من الرجال إذا لم يكن شجاعاً».
- الوسيط: «بزَّ قرينَه بزًّا وبَزَّةً وبِزِّيزى: غلبَه، وبزَّهُ: سلبَهُ. وابتزَّ قرينَه: بَزَّه» [أي سلبَه]. ويُعلم من هذا أن البناء وارد في العربية فلا خلاف فيه.

ب- في الدلالة:

- يفهم مما ورد في المعاجم أن الدلالة المعاصرة للكلمة قريبة من

الدلالة المعجمية القديمة، فالدلالتان القديمة والمعاصرة تتضمنان معنى السلب، وهو الانتزاع والأخذ غصباً. وتزيد الدلالة المعاصرة أن هذا الانتزاع والغصب يجري بطريقة غير مباشرة وهي التهديد والتخويف بإفشاء سرٍّ أو نشر فضيحة مخفية، بل الترغيب أحياناً بتقديم منفعة أو مكسب، ولكن ليس ذلك اعتماداً على شجاعة المبتز أو قوَّته، بل على مكره واستغلاله، ولعل هذا ما توحي به كلمة (البُزابز)، وهو الشديد من الرجال إذا لم يكن شجاعاً، فالسلب والغصْب عند البُزابز ليس وراءه شجاعة، بل وراءه مكرٌ ومكيدة خبيثان، فدلالة الكلمة المعاصرة تطوير محدود في الدلالة القديمة.

ج- في الاستئناس:

- ورد في صبح الأعشى (٩/ ٩): «وأن يؤيدها [أي الوزارة] فيه بما يقضي له بالإحراز والتخويل ويحميه من الابتزاز والتحويل»، ويحتمل في هذا النص أن يكون معنى الكلمة موافقاً أو قريباً مما نحن فيه.
- وورد في معجم لغة الفقهاء لمحمد قلعجي: «ابتزاز المال: استجراره بغير حق وبغير رضى صاحبه» (٦/ ٣٨).
- ترجمت بعض المعاجم الثنائية اللغة كلمة (chantage) الفرنسية بكلمتي (ابتزاز بالتهديد، وتخويف بالتشهير).
- الكلمة مصطلح قانوني معتمد وشائع.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: (ابتزَّ) بمعنى أخذَ مالاً من أحدهم أو استغلَّه دون رضاه وبوساطة التخويف أو التهديد أو الترغيب، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم.

* * *

(١١٨)

البسيط

١- المسألة:

يخطِّئ بعضهم استعمال كلمة (البسيط) بمعنى الهيِّن الذي لا صعوبة فيه، لأن الأصل أن البسيط هو الواسع.

٢- الاقتراح:

جواز استعمال (البسيط) بمعنى الهيِّن السهل الذي لا صعوبة فيه.

٣- التعليل:

جاء في اللسان: «بَسَطَ الشيء: نشرَه، والبسيط من الأرض كالبساط من الثياب، وأرضٌ بَساطٌ وبسيطة: منبسطة مستوية، وهي أيضاً العريضة الواسعة». وقال الراغب في المفردات ١٢٣: «واستعار قوم البسيط لكل شيء لا يُتصوَّر فيه تركيب وتأليف ونظْم». ومن هنا أطلق لفظ (البسيط) لدى الناس على السهل الميسور الذي ليس فيه تركيب وتعقيد.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز استعمال (البسيط) بمعنى الهيِّن السهل الذي لا صعوبة فيه.

* * *

(١١٩)

بَسطَهُ ومبسوط

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال العام كلمتا (بسطَهُ، ومَبْسُوط) بمعنى سَرَّهُ ومسرور

ويتجنبها بعضهم متوهِّمين عاميتها وعدم فصاحتها.

٢- الاقتراح:

فصاحة قولهم: (بَسَطَه) بمعنى سرَّه، ومَبْسُوط بمعنى مسرور، واشتقاقاتهما.

٣- التعليل:

جاء في لسان العرب: «بسيط الوجه: متهلِّل..وإنه لَيَبْسُطني ما بسطَك أي يسرُّني ما سَرَّك. وفي حديث رسول الله ﷺ المتعلق بفاطمة رضوان الله عليها: «يَبْسُطني ما يبسطها» أي يسرني ما يسرها، لأن الإنسان إذا سُرَّ انبسط وجهه واستبشر».

وجاء في الوسيط: «بسط فلاناً: سرَّه، وانبسط: سُرَّ».

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

فصاحة قولهم: (بَسَطَه) بمعنى سرَّه، ومَبْسوط بمعنى مسرور، واشتقاقاتهما.

* * *

(١٢٠)

بَطَحَ ومُتَبَطِّح ومُنْبَطِح

١- المسألة:

يشيع في الكلام اليومي المعاصر كلمة (بطحَ) بمعنى صرعَ كما في قولهم: (بطحَ المصارعُ خصمَه)، ومتبطِّح ومُنبطح بمعنى مُستلقٍ، ويظنها بعضهم من العامية غير الفصيحة ويحاول تحاشيها.

٢- الاقتراح:

صحة استعمال (بطحَهُ) بمعنى صرعَهُ ومشتقاتها، وصحة استعمال

متبطِّح ومُنبطح بمعنى مستلقٍ على وجهه، فهي فصيحة.

٣- التعليل:

وردت هاتان الكلمتان في المعاجم العربية القديمة والحديثة بهاتين الدلالتين:

- جاء في اللسان: «بطحَه على وجهه: ألقاه على وجهه فانبطح، وتبطَّح فلان: إذا اسبطرَّ [تمدَّد] على وجهه ممتدًّا على وجه الأرض».
- وجاء في الوسيط: «بطح فلاناً: ألقاه على وجهه. وانبطح: استلقى على وجهه، وتبطَّح: انبطح».

فليس في البناء أو الدلالة خروج على اللغة الفصيحة، وكانت بعض مصنفات التصحيح اللغوي قد أشارت إلى توهُّم عاميَّتها.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

صحة استعمال (بطحَهُ) بمعنى صرعَهُ ومشتقاتها، وصحة استعمال متبطِّح ومُنبطح بمعنى مستلقٍ على وجهه، فهي فصيحة.

* * *

(١٢١)

البَطَّال والمُتَبَطِّل

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال كلمة (بَطَّال) بمعنى من ليس له عمل، أو هو متعطِّل عن العمل. ويخطِّئها بعضهم لأنه لم ترد لها هذه الدلالة في المعاجم القديمة، والصواب عندهم (مُتعطِّل).

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: (البَطَّال) بمعنى (متعطِّل عن العمل)، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم العربي.

٣- التعليل:

جاء في لسان العرب: «بطَلَ الشيء يَبْطُل بُطْلاً وبُطولاً وبُطْلاناً: ذهب ضياعاً وخُسراً، فهو باطل. ورجلٌ بطَّال: ذو باطل، والباطل: نقيض الحق. والتبطُّل مثل البِطالة وهو اتباع الهوى والجهالة».

ولكن مما جاء في تاج العروس: «بَطَلَ الأجيرُ من حدِّ نَصَر بَطالةً أي تعطَّلَ، فهو بَطَّال»، وفيه: «تعطَّلَ الرجلُ: بقيَ بلا عمل».

فالكلمة واردة على هذا البناء (فَعَّال) في تاج العروس وبالدلالة المعاصرة الشائعة.

أمَّا كلمة (المتبطِّل)، التي تعني بحسب لسان العرب من اتبع الهوى والجهالة، فإنها في الوسيط تعني (المتعطِّل عن العمل) إذ جاء في الوسيط: «بطَّلَ العامل: عطَّلَه» فاسم الفاعل (المُبَطِّل) تعني المتعطِّل عن العمل.

أمَّا المصدر (بطالة) فيجوز فيه كسر الباء وفتحها.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: (البَطَّال) بمعنى (متعطِّل عن العمل)، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم العربي.

* * *

(١٢٢)

بَعيدٌ منه وعنه

١- المسألة:

يحار بعض الكتَّاب في تعدية الفعل (بَعُدَ) ومشتقاته، هل هي بـ من أم عن؟

٢- الاقتراح:

صحة قولهم: (بعيدٌ منه وعنه) بتعدية الفعل (بَعُدَ) ومشتقاته بـ من أو عن بمعنى واحد، وقد يُعدَّى بأحرف أخرى لدلالات مغايرة مقصودة.

٣- التعليل: أ- في القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وجاء بمعنى مغاير في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ [التوبة: ٤٢].

ب- في المعاجم:

- اللسان: «بَعُدَ: تَباعدَ..إذا لم تكن ممن يقترب منه فتباعدْ عنه.. وقال الطرماح:

تُباعدُ منا من يُحَبُّ اجتماعه وتَجْمَع مِنّا بين أهل الضغائن

باعدْ وبعِّدْ معناهما واحد».

- المعجم الكبير: «تباعِدَ من فلان وعنه، يقال: ما أنت منّا ببعيد..وقال:

عشية لا عفراء منك قريبة فتدنو ولا عفراء منك بعيدُ»

- الوسيط: «تبعَّدَ: تباعدَ، ويقال: تبعَّدَ منه وعنه».

ومن المعروف أن مشتقات الفعل تُعدَّى بما يعدَّى به فعلها، فإذا صحَّ قولهم:

بعيد منه وعنه في الصفة المشبهة، صحَّ ذلك في الفعل بَعُدَ وابتعدَ ونحوهما.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

صحة قولهم: (بعيدٌ منه وعنه) بتعدية الفعل (بَعُدَ) ومشتقاته بـ من أو عن بمعنى واحد، وقد يُعدَّى بأحرف أخرى لدلالات مغايرة مقصودة.

* * *